نظرات لغوية

في القرآن الكريم

أ.د. صالح بن حسين العايد

الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات لغوية

في القرآن الكريم

(ح) دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العايد، صالح حسين

نظرات لغوية في القرآن الكريم - الرياض

٣٣٢ص؛ ١٧×٢٤

ردمك: ٩٩٦٠-٨٦٢-٦٠-٧

١- القرآن - نحو ٢- القرآن - ألفاظ أ- العنوان

ديوي ٢٢٤ ٢٢/٣١٧٦

رقم الإيداع: ٢٢/٣١٧٦

ردمك: ٩٩٦٠-٨٦٢-٦٠-٧

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

المملكة العربية السعودية ص. ب ١٣٣٧١ - الرياض ١١٤٩٣

هاتف: ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ - فاكس: ٤٧٨٧١٤٠
E-mail: eshbelia@hotmail.com

مقدمة

الطبعة الثانية

الحمدُ للّهِ الذي كثرت آلاؤه عن الإحصاء، وجلّت نعمه عن الجزاء، تفضّل علىٰ عبادِهِ بالنعمِ ، لا يريد منهم سوىٰ شكرها ؛ ليتفضّل عليهم بالمزيد منها : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

نحمدُهُ حمداً يليقُ بجلالِهِ وعظمته ؛ أنزل علينا خيرَ كُتُبِهِ ، وأرسلَ إلينا أفضلَ رُسُلِهِ ، وجعلنا من خيرِ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ، من غيرِ حولٍ لنا ولا قوّةٍ ، فلهُ الحمدُ حتّىٰ يرضىٰ، وله الحمدُ بعد الرضا .

إلهي لكَ الحمدُ الذي أنت أهلُهُ على نِعَمٍ ما كنتُ قطُّ لها أهلا
متى ازددتُ تقصيراً تَزِدْنِي تَفَضُّلاً كأنّيَ بالتقصيرِ أستوجِبُ الفَضْلا(1)

والصلاةُ والسلامُ علىٰ عبدِاللّهِ ورسولِهِ وصفيِّهِ، خيرِ الأوّلينَ والآخرينَ، سيِّدِنا وحبيبِنا أبي القاسم محمدِ بنِ عبدِاللّه، عليه من ربّنا أفضلُ الصلاةِ والتسليمِ ؛ فلقد أدىٰ الأمانةَ ، وبلّغَ الرسالةَ، ونَصَحَ للأمّةِ ، وجاهَدَ في اللّه حقَّ جهادِهِ، حتىٰ أتاه اليقينُ، وتركنا علىٰ المحجّةِ البيضاءِ ، ليلُها كنهارِها ، لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ، فصلاة ربّي وسلامه عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعدُ :

(1) ديوان محمود الورّاق : ١٠٨ـ١٠٩ .

فحين نشرتُ قبل سُنيّاتٍ كتابي الموسومَ بـ(نظرات لغويّة في القرآن الكريم) كنتُ أرمي إلى أنْ أشحذَ به هِمماً، وأرسمَ به منهاجاً ؛ فلقد رغبتُ في أنْ أقودَ طلابَ العلمِ ، ولو بالسلاسلِ ، إلى ولوجِ الروضاتِ الخلابةِ التي يزخرُ بها كتابُ اللّهِ ؛ كي يتفيَّؤوا ظلَّها الوارفَ، ويشمّوا عبيرها الفوّاحَ، وكنتُ أدركُ أنَّ مَنْ حُرِمَها قد حُرِمَ خيراً كثيراً ، وأنّه لا سبيلَ إلى دلَفانِ أبوابِها، والتمتّعِ بنعيمها، إلا بإعداد العدّةِ اللازمةِ لبلوغِ مراميها ، ولأنّ الوصولَ إلى مواطنِ الجمالِ اللغويِّ ظاهرِهِ وباطنِهِ متعذِّرٌ إلا على مَنْ اكتسبَ من علومِها نصيباً، كانَ لزاماً على مَنْ رغبَ في إدراكَ أسرارِ الإعجازِ اللغويِّ الذي تفرّدَ به القرآنُ الكريمُ أنْ يُحيطَ بقدرٍ غيرِ قليلٍ من علومِ اللغةِ العربيّةِ التي هي وعاؤهُ الحاوي ، وحين حفزتُ هِمَمَ طلابِ العلمِ إلى ركوبِ هذا المركبِ البديعِ ، بأنْ يسّرتُ النظراتِ أسلوباً وشرحاً، وَبَعِدْتُ عن المصطلحاتِ التي لا يفهمها إلا الخاصّة ، وعمدتُ إلى تيسيرِ العباراتِ ، والتجافي عن الإشاراتِ ، حينذاك حسبتُني قد حقّقتُ مرادي بأنْ يعترفَ القرّاءُ بأنّهم إلى معرفةِ علومِ العربيّةِ محتاجون ، وأنّهم عن تدبّرِ كلامِ ربّهم دونَ تحصيلِها عاجزون، فرسمتُ لهم منهاجاً أحسب أنّه يوصِلُ إلى المرادِ، متّبعُهُ حريٌّ - بتوفيقِ اللّهِ - أن يكونَ من أولي الألباب الذين قال اللّه فيهم : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] .

وإذا كان من نِعَمِ اللّهِ على المرء أن يرى شيئاً من ثمرة عمله في دنياه ، وأنْ عسى أن يكون ذلك من عاجل بشراه ، فإنّي أحمدُ اللّهَ جلَّ جلالُهُ

علىٰ ما رأيتُه من قبولٍ لكتابي : (نظرات لغويّة في القرآن الكريم)، فإخالُه لم يَضعْ كما تضيعُ أكثرُ الأشياء الثمينة ؛ فلا هو : (مطرٌ جَودٌ في أرضٍ مُسْبِخَةٍ، لا يجفُّ ثراها، ولا يُنْبِتُ مرعاها، ولا هو سراجٌ يُوقَدُ في الشمس، ولا هو جاريةٌ حسناء تُزَفُّ إلىٰ عنّين أعمىٰ، أو خَوْدٌ تُزَفُّ إلىٰ ضريرٍ مُقْعَدٍ[١]، ولا هو صنيعةٌ تُهدىٰ إلىٰ مَنْ لا يشكرُها)[٢]، بل رأيتُه وَسْمِيّاً باكَرَ جنّةً بربوة، ثم خَلَفَهُ وَلِيٌّ، فَغَدتِ الأرضُ بعده كأنّها وَشْيٌ منشورٌ، عليه لؤلؤٌ منثورٌ[٣] :

مَيثاءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلٌ ... فأمْرَعَتْ لاحتيالٍ فَرْطَ أعوامِ
إذا يَجِفُّ ثراها بَلَّها دِيَمٌ ... مِنْ كوكبٍ نَزِلٍ بالماءِ سَجّامِ
لم يَرْعَها أحدٌ وارْتَبَّها زَمَناً ... فَأْوٌ من الأرضِ محفوفٌ بأعلامِ
تسمعُ للطيرِ في حافاتها زَجلاً ... كأنّ أصواتَها أصواتُ جُرّامِ
كأنّ ريحَ خُزاماها وَحَنْوتِها ... بالليلِ ريحُ يَلَنْجُوجٍ وأهضامِ[٤]

أجل، لقد اطلع علىٰ الكتاب من الخاصّة والعامّة مَنْ لم يبخلوا علىٰ صاحبِه بدعوةٍ صادقةٍ إذا ما استجيبَ لها كانتْ له خيراً من إشادةٍ قيلتْ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ، بل كان منهم مَنْ أكرمني بعد قراءةٍ فاحصةٍ بملحوظاتٍ لا يدركها إلا مَنْ رزقهُ اللّهُ بصيرةً نافذةً، وعلماً جمّاً، ولا

(١) لأبي عبدالله الحسن بن أحمد بن الحجاج. انظر: يتيمة الدهر: ٣/ ٦٠.
(٢) كلام لابن القريّة حين سئل: ما أضيع الأشياء؟.
انظر: تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: ٣٧٨.
(٣) ديوان المعاني: ٢/ ١٨.
(٤) ديوان النمر بن تولب العكليّ ـ رضي اللّه عنه ـ: ١٢٧ ـ ١٢٨.

يعرفُ قدرَها إلا مَنْ أكرمَهُ اللّٰهُ بسجيّةِ العرفانِ لأهلِ الفضل بفضلهم، ومن هؤلاء الذين شَرُفَ الكتابُ بتمحيصهم وتدقيقهم الشيخ العلامة إبراهيم بن يوسف بن الشيخ سيدي الشنقيطيّ، أحد علماء موريتانيا المشهود لهم بالفضل الوفير، والعلم الغزير، حيث قرأ الكتاب قراءةَ فاحصٍ مقوّمٍ بنظرةٍ ثاقبةٍ، خرجَ منها باستدراكاتٍ سطّرتها يراعتُهُ، فأفدتُ منها كثيراً، وحلّيتُ بها هذه الطبعةَ الجديدةَ، واعترافاً منّي للعلامة الشنقيطيّ بفضله العميم، وجهده الهميم، بادرتُ إلىٰ تصويباته فأصلحتها، وإلىٰ استدراكاته وملحوظاته فزيّنتُ بها الكتاب وحواشيه، وهو ما أعدّه زينةً زادتْ كتابي رونقاً وجمالاً، وإنّي لأعترفُ بأنّ تقويمه للكتاب لا يقلُّ شأناً عندي من تقريظه له، إنْ لم يَفُقْهُ، حين كتب بخطّه المغربيّ الخلاب كلاماً مثل اللؤلؤ الأزهر، والزبرجد الأخضر، والياقوت الأحمر، فقال: (هذا وكتاب «النظرات» . . . . . . من الكتب الجامعة بين الإفادة والإمتاع، وحسن العرض، وسلاسة الأسلوب، ودقّة النظر. وقد غاص مؤلفه في أعماق التراث، فأخرجَ دُرراً نفائسَ، أحْسَنَ اختيارَها، وأجادَ في رَصْفِها وتنضيدِها، وقد أعانَهُ علىٰ ذلك تمكّنُهُ من علومِ اللسانِ، وسلامةُ ذوقِهِ الأدبيِّ، ورَهافَةُ حسِّهِ الفنّيِّ.

أسألُ اللّٰهَ سبحانه وتعالىٰ أنْ يجزيَهُ عن القرآنِ خيرَ الجزاءِ، ونطلبُ منه المواصلَةَ في هذا الميدانِ الفسيحِ؛ فإنَّ القرآنَ لا يَخْلَقُ، ولا يَتْفَهُ، ولا يَتَشانُّ، ولا تفنىٰ كنوزُهُ، ولا يُوقَفُ منه علىٰ غَوْرٍ. والحمدُ للّٰهِ ربِّ العالمين». انتهىٰ كلامُهُ، حفظه اللّٰه.

وربّما أنّ قارئاً من القرّاءِ سيقولُ : ما الذي أضافتْهُ هذه الطبعةُ الجديدةُ ؟

فأقولُ : مع ما أثبتُّهُ في الحواشي من تعليقات الشيخ إبراهيم بن يوسف الشنقيطيّ، زدتُ في الكتابِ نظراتٍ جديدةً، وأضفتُ علىٰ بعض النظراتِ معلوماتٍ مفيدةً ، وصوّبتُ ما سها عنه النظرُ وغفل، وقوّمتُ ما حادَ القلمُ فيه عن الصواب إلىٰ الزلل، كما رأيتُ أن أضمَّ إلىٰ هذه الطبعة رسالةً صغيرةً في (أهميّة اللغة العربيّة في الدعوة إلىٰ اللّه)، كنتُ أعددتُها بالتعاون مع أخي وصديقي وزميلي الأستاذ الدكتور تركي بن سهو بن نزّال العتيبيّ، وهو بحثٌ ألقيتُهُ في مؤتمر كان عنوانه : « الدعوة الإسلاميّة في دول شرق آسيا والباسفيك : الواقع والمستقبل »، عُقِدَ في جاكرتا عاصمة إندونيسيا، خلال المدة من ٢٧ / ٤ / ١٤١٦هـ إلىٰ ٢٩/ ٤/ ١٤١٦هـ .

وأخيراً لا يفوتني أن أقصدَ الذي هو خيرٌ، فأرفعُ أكفَّ الضراعةِ إلىٰ الله ربِّ الأربابِ، ومجري السحابِ، وهازم الأحزاب، أن يتقبّلَ هذا العملَ ، وأن يباركَ فيه ، وأن ينفعَ به ، ويرزقه مزيداً من القبول، وأن يجعلَهُ خالصاً لوجهه الكريم، وأن يُعظمَ المثوبة والأجر لي ، ولوالدي ووالديهم، ولذرّيتي وذوي رحمي ، ولمن دعا لي ولهم بمثله؛ فهو نعمَ المدّخرُ حينما تنقشع الدنيا كحلمِ نائمٍ انقضىٰ، أو ظلِّ غمامٍ انجلىٰ، حين يتلحفُ العبدُ الترابَ، ويتوسّدُ الثرىٰ، حينذاك يبحثُ الفقيرُ إلىٰ عفو ربّه

في ظلمة القبر عن الأنيس، ولا مؤنس حينذاك إلا العملُ الصالحُ.

اللهم باركْ لنا في أعمالنا وأعمارنا، وارحمنا برحمتك التي وسعتْ كلَّ شيء، ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفةَ عينٍ، ولا أقلَّ من ذلك، ولا أكثر، يا ربَّ العالمين، لا ربَّ لنا سواكَ، فندعوه، ولا ملجأ لنا إلا إليك، أنت وليّنا ومولانا، يا نعم المولىٰ، ويا نعم النصير:

لبستُ ثوبَ الدجى والناسُ قد رقدوا وقمتُ أشكو إلى مولايَ ما أجدُ

وقلتُ يا أملي في كلّ نائبةٍ ومَنْ عليه لكشفِ الضرِّ أعتمدُ

أشكو إليكَ أموراً أنت تعلمها ما لي على حملها صبرٌ ولا جَلَدُ

وقد مددتُ يدي بالذلِّ مبتهلاً إليك يا خيرَ مَنْ مُدَّتْ إليه يدُ

فلا تردّنها يا ربِّ خائبةً وبحرُ جودِكَ يروي كلَّ مَنْ يردُ(١)

والحمدُ للّه أولاً وآخراً. انتهت.

وكتبها
يوم الخميس ١٨/٣/١٤٢٣هـ
الفقير إلى عفو ربّه الكريم

د. صالح بن حسين بن عبدالله العايد
ص ب ٩٣٦٣٣ الرياض ١١٦٨٣
Email: dr_alaayed@hotmail.com

---

(١) أبيات لأبي إسحاق الشيرازيّ في: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٤/ ٢٢٥.

مقدمة

الطبعة الأولى

الحمدُ للّه الذي أنزل أعظمَ المعجزاتِ على رسولنا محمّدٍ ﷺ، فخصّه بكتابٍ أنزله بأفصحِ لسانٍ، وادّخرَ في آيه غُررَ البلاغةِ ودُررَ البيانِ، تحدّى قوماً ملكوا ناصيةَ الفصاحةِ، وفنونَ الكلامِ، أن يأتوا بسورةٍ من مثلِهِ، فأبوا بالخيبةِ والخسرانِ، بَهرَتْهُمْ سلاسةُ ألفاظِهِ، وإحكامُ أساليبِهِ، واتساقُ إيجازِهِ وإطنابِهِ، وما فيه من حجّةٍ وبرهانٍ، حتّى قال قائلهم: «واللّهِ إنّ لقولِهِ لَحَلاوَةً، وإنّ أصْلَهُ لَعَذْقٌ، وإنّ فَرْعَهُ لَجَنَاةٌ»[1]، وحُقَّ للوليد بن المغيرة أن يقول ذاك؛ فهو أمامَ «حَبْلِ اللّهِ المتينِ، ونورِهِ المبينِ، والذِّكْرِ الحكيمِ، و الصراطِ المستقيمِ، الذي لا تَزيغُ به الأهواءُ، ولا تَلْتَبِسُ به الألسنةُ، ولا تَتَشَعّبُ معه الآراءُ، ولا يَشْبَعُ منه العلماءُ، ولا يَمَلُّهُ الأتقياءُ، ولا يَخْلَقُ على كَثْرَةِ الرَّدِّ، ولا تَنْقَضِي عَجائِبُهُ»[2]، «ولا تزيده تلاوتُهُ إلا حلاوةً، ولا ترديدُهُ إلا مَحبّةً، ولا يزال غَضّاً طَرِيّاً، وغيرُهُ من الكلامِ - ولو بَلَغَ في الحُسْنِ والبلاغةِ مَبْلَغَهُ - يُمَلُّ مع الترديدِ، ويُعادى إذا أُعِيدَ؛ لأنّ إعادةَ الحديثِ على القلبِ أثقلُ من الحديدِ» كما قال السيوطيّ رحمه اللّه[3].

وسيظلّ كتاب اللّه تعالى غضّاً طريّاً، وبحراً زاخراً باللؤلؤِ والدرِّ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٦١، الروض الأنف للسهيلي: ٢/ ٢١.

(٢) سنن الترمذي: ٢/ ١٤٩.

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن ١/ ٢٤٤.

والمرجانِ، لكنّهُ مُشْرَعُ الأبوابِ، مهما قَرَأَهُ القارئُ، وأَعادَهُ ، فَسَيَظْفَرُ في كلِّ مَرَّةٍ منه بعجائبَ من عجائبِهِ التي لا تنقضي، كما قال سهلُ بنُ عبدِاللّهِ : « لو أُعْطِيَ العبدُ بكلِّ حرفٍ من القرآنِ ألفَ فَهْمٍ لم يبلغْ نهايةَ ما أَوْدَعَ اللّهُ في آيةٍ من كتابِهِ ؛ لأنّهُ كلامُ اللّهِ، وكلامُهُ صفتُهُ، وكما أنْ ليس للّهِ نهايةٌ فكذلك لا نهايةَ لِفَهْمِ كلامِهِ، وإنّما يَفْهَمُ كلٌّ بمقدارِ ما يفتحُ اللّهُ على قلبِهِ ، وكلامُ اللّهِ غيرُ مخلوقٍ، ولا يبلغُ إلى نهايةِ فَهْمِهِ فُهُومٌ مُحْدَثَةٌ مَخْلُوقةٌ »(١) .

ولـمّا كان إعجازُ القرآنِ الكريمِ بفصاحتِهِ وبلاغتِهِ وبيانِهِ لم يكنْ ممكناً فهمُهُ ، ولا الوصولُ إلى دقائقِ معانيهِ إلا بالتمكّنِ من وعائه، وهو اللغةُ العربيّةُ وعلومُها؛ نحواً وصرفاً وبلاغةً ودلالةً ، ومن هنا كانت دراسةُ علومِ اللغةِ العربيّةِ ضروريّةً لِفَهْمِ كتابِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

ولا يخفى على أحدٍ انصرافُ الناسِ اليومَ عن دراسةِ هذه العلومِ ، بل زُهْدُهُمْ بها ، وازْدِراؤهُمْ لها وللمشتغلين بها ، ولم يكنْ ذلك محلاً للاستغرابِ لو حَصَلَ ممّن تنكّبوا عن الطريقِ السويِّ ، وضاقوا بدينِ اللّهِ ذَرْعاً ، وتركوه وراءهم ظِهْرِيّاً ؛ فهؤلاءِ قد جعلوا شُغْلَهُمُ الشاغلَ التثريبَ عليه ، ومحاربةَ أهلِهِ ووسائلِهِ وكلِّ ما يَمُتُّ إليه بصلةٍ ، فَمَنْ يَرْجُ منهم غيرَ ذلك يكنْ كَمَنْ يرجو السماحةَ من بخيلٍ، أو كالمبتغي زبداً من الماء بالمخض، أو كالمبتغي الصيد في عِرِّيسة الأسد، قال الإمام

(١) البسيط في التفسير للواحدي: ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧

الشافعي ـ رحمه الله ـ:

ولا تَرْجُ السَّماحَةَ مِنْ بَخِيْلٍ فما في النارِ للظمآن ماءُ[١]

وقال مسلم بن الوليد:

وإني وإشرافي عليك بهمّتي لكالمبتغي زبداً من الماء بالمخضِ[٢]

وقال الطرمّاح:

يا طيّئ السهلِ والأجبالِ موعدُكم كالمبتغي الصيد في عِرِّيسةِ الأسدِ[٣]

أوْ يَكُنْ كـ «مُتطلّبٍ في الماءِ جَذْوَةَ نارِ[٤]»، ولكنَّ القلبَ لَيَحْزَنُ، وإنَّ العينَ لَتَدْمَعُ من قومٍ قد تَزَيّوا بزِيِّ الدِّينِ والعَقْلِ، بل ربّما تَسَرْبَلُوا بسِرْبالِ الدَّعْوَةِ، ومع ذلك كلّه لم يَدُلَّهُمْ شيءٌ من ذلك على إتْقانِ ما يُقَوِّمُ ألسنتَهُمْ من علومِ العربيّةِ، فَكَمْ من خطيبٍ لم يَتَهَيَّبْ صُعُودَ المنابرِ التي شَيَّبَتْ رأسَ عبدِالملكِ بنِ مروانَ، وأراعت زياد بن أبي سفيان وطارت بلبه حتى قال تعقيباً على جوابِ أصحابه حين سألهم: من أنْعَمُ الناسِ عيشاً؟ فأجابوا: الأميرُ وأصحابُهُ، فقال: «كلا؛ إنّ لصعود المنابر روعاتٍ، وإنّ لحلقِ البريد فزعاتٍ، ولكنَّ أنْعَمَ الناسِ عيشاً رجلٌ في دار لا يجري عليه فيها كِراء، وله زوجةٌ قد قَنعَ بها، وقَنِعَتْ به، لا يعرفنا،

(١) ديوانه: ١٠.

(٢) شرح ديوان صريع الغواني: ٢٨٦.

(٣) ديوانه: ١٢٢.

(٤) عجز بيت لأبي الحسن التهامي، وهو بكامله:

ومكلّفُ الأيامِ ضدَّ طباعها مُتَطَلّبٌ في الماء جذوةَ نارِ

انظر: ديوانه: ٣٠٨.

ولا نعـرفـه؛ لأنا إن عـرفناه أفسدنا عليه دينه ودنياه، وأتعبنا ليله ونهاره»[١]. لكنَّ الخطيبَ اليوم يَخبِطُ أمامَ القومِ خَبْطَ عَشْواءَ، فـ«يُحرِّكُ ما يشاءُ بما يشاءُ»، لا يَضيرُهُ أنْ يرفعَ منصوباً أو مجروراً، أو أنْ يفعلَ عكسَ ذلك، فيُفْسِدَ ما جَمَعَهُ من معانٍ شريفةٍ بلَحْنِه المجوجِ.

قال ابن فارس: «كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه، أو يقرءونه، اجتنابَهُمْ بعضَ الذنوب، فأما الآن فقد تجوّزوا حتى إنّ المحدِّثَ يُحَدِّثُ فيلحنُ، والفقيهَ يؤلِّفُ فيلحنُ، فإذا نبِّها قالا: ما ندري ما الإعرابُ؟ وإنما نحن محدّثون وفقهاء، فهما يُسَرَّانِ بما يُساءُ به اللبيب»[٤].

ونَتَجَ عن هذا الداءِ العُضالِ أنْ فَقَدَ كثيرٌ منْ قرّاءِ القرآنِ الكريمِ، بل من حُفّاظه، مَلَكَةَ التأثرِ به، فَبَعْدَ أنْ كان الأعرابيُّ يسجدُ للّه بِسَبَبِ بلاغة ما يسمعُهُ من آياتِ القرآنِ الكريمِ، ويؤمنُ بِسَماعه آيةً من آياته، وبعدَ أنْ كان كلامُ اللّهِ لأدواءِ الصدورِ شافياً، وإلى الإيمانِ وحقائقه منادياً، وإلى الحياةِ الأبديّةِ والنعيمِ المقيمِ داعياً، وإلى طريقِ الرشادِ هادياً، ها هي ذي الأذواقُ قد فَسَدَتْ، والمَلَكاتُ قد امَّحَتْ، أو كادتْ، وصارَ الحالُ كما قال ابنُ القيّمِ ـ عليه رحمةُ اللّهِ ـ: «لقد أَسْمَعَ منادي الإيمانِ لو صادَفَ آذاناً واعيةً، وَشَفَتْ مواعظُ القرآنِ لو وافقتْ قلوباً خاليةً، ولكنْ عَصَفَتْ على القلوبِ أهويةُ الشبهاتِ والشهواتِ، فأطفأتْ مصابيحَها، وتمكّنتْ منها أيدي الغَفْلَةِ والجهالة، فأغلقتْ أبوابَ رُشْدها، وأضاعتْ مفاتيحَها، ورَانَ عليها كَسْبُها، فلم ينفعْ فيها الكلامُ، وَسَكِرَتْ بشهواتِ

(١) الصاحبي: ٥٦.

الغَيِّ وشبهاتِ الباطلِ، فلم تُصْغِ بعدُ إلى الملامِ، وَوُعِظَتْ بمواعظَ أنكى فيها من الأسنّةِ والسهامِ، ولكنْ ماتتْ في بحرِ الجهلِ والغفلةِ، وأَسْرِ الهوى والشهوةِ، وما لِجُرْحٍ بميتٍ إيلامُ»(١).

ولقد أقْلَقَ الغُيُرَ على كتابِ اللّهِ، وعلى اللغةِ العربيةِ، تدنّي مستوى القُرّاءِ والمُتَحَدِّثِينَ والكُتّابِ بها، فأعدّوا بحوثاً ودراساتٍ نظريّةً كثيرةً في البحثِ عن علاجٍ لهذا الداءِ، ومع ذلك ما زالتِ المَرْكَبَةُ تَهْوي، وَتَنْحَدِرُ، والرُّبّانُ عاجزٌ عن الإمساكِ بِزِمامِها.

وإنّي حينَ أنْعَمْتُ النظرَ في هذه المشكلةِ، وَدَرَسْتُ أسبابَها، وجدتُ أنّ أبرزَ الأسبابِ لتلك المشكلة هو أنّ هناك شعوراً لدى كثيرٍ من النّاسِ بالقدرةِ على التعبيرِ دونَ الحاجةِ إلى تَعَلّمِ علومِ اللغةِ العربيّةِ؛ بدعوى أنّ المستمعين فَقَدوا الإحساسَ باللحنِ، وأنّ الفكرةَ عندهم أولى من صِحَّةِ الأسلوبِ وجودتِهِ.

وَمِنْ أجْلِ نَقْضِ هذه الفِرْيَةِ الباطلةِ بدأتُ مُنْذُ سنواتٍ في إنعامِ النظرِ في كتابِ اللّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وفي كتبِ التفسيرِ، وَخَلَصْتُ مِنْ تَأَمُّلِ أقوالِ العلماءِ إلى الخروجِ بـ(نظراتٍ لغويّةٍ في القرآنِ الكريمِ)، تُبْرِزُ الرَّوْعَةَ الأسلوبيّةَ في كلامِ اللّهِ تعالى التي لا يمكنُ الظَّفَرُ بها والوقوفُ على بدائعِها إلا بزادٍ غيرِ قليلٍ من دراسةِ مكنوناتِ اللغةِ العربيّةِ.

وقد كانتْ حصيلةُ ذاك الجهدِ بضاعةً مزجاةً نَثَرْتُ بعضَ ما كان في الكنانةِ منها في حلقاتٍ كثيرةٍ متواليةٍ عبر أثير إذاعة القرآن الكريم في

(١) بدائع التفسير: ١/ ٢٨٣-٢٨٤.

المملكة العربية السعودية عام ١٤٠٨هـ، ثم نشرتها على صفحات (منار السبيل)، وهي النشرةُ الشهريّةُ التي يُصْدِرُها معهدُ العلومِ الإسلاميّةِ والعربيّةِ في أمريكا، وكان ذلك خلال عام ١٤١٤هـ. وها أنا ذا أنْشُرُها كاملةً ومرتّبةً وموثّقةً توثيقاً علميّاً بحمد الله تعالى.

وإنّه لمن نافلة القولِ أنْ أذْكُرَ أنّه ليسَ لي منها إلا التنقيبُ عن أقوالِ العلماءِ، واختيارُها، وتقريبُ أسلوبِها حتّى يستطيعَ القارئُ فَهْمَها، ولا أنكرُ أنّ لي فيها قليلاً من النظراتِ والتأمّلاتِ، لكنّها لا تَعْدُو أن تكونَ مصابيحَ في رابعةِ نهارٍ.

أُؤمّلُ أنْ تُحَقِّقَ هذه النظراتُ المرجوَّ منها؛ فتُوقظَ القلوبَ، وتُفَتِّقَ الأذهانَ، وتُشْرِعَ الأبوابَ للولوجِ في هذا البحرِ العجيبِ؛ فهو ميدانٌ فسيحٌ خلابٌ، وطريقٌ بديعٌ شائقٌ، ما سَلَكَهُ من سالكٍ إلا كانت السعادةُ مركبَهُ، والأنسُ رفيقَهُ، كيف لا؟، وهو أمامَ المأدبةِ الـمُتَنَوِّعَةِ للمولى الكريمِ: (إنّ هذا القرآنَ مأدُبَةُ اللّهِ، فتعلّموا من مأدبتِهِ ما استطعتمْ)[1].

وقبل كلّ ذلك يظلّ طلبُ الأجرِ والثوابِ غايةَ الـمُرْتَجَى من مُنَزِّلِ هذا الكتابِ، أسألُ المولى ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنْ يجعلَ هذا العملَ خالصاً لوجهِهِ الكريمِ، وأن يُجْزِلَ لي المثوبةَ والأجرَ، ولمن دعا لي ولوالديّ بمثله، وأن يغفرَ لي ما فيه من زَلَلٍ أو خطأٍ، كيف لا أرجو ذلك من مولاي وأنا أخوضُ في كتابِهِ العظيمِ.

يوم الأحد: ١ / ٦ / ١٤١٧ هـ - الرياض

---

(١) سنن الدارمي: ٢/ ٨٨٩ رقم ٣١٩٧، شعب الإيمان: ٢/ ٣٢٤، ح١٩٣٣ معجم الكبير: ٩/ ١٣٠، ح٨٦٤٦.

أهمّية
اللغة العربيّة في الدعوة[1]

الحمد للّه الذي أنزل القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبين ، والصلاة والسلام علىٰ من بعثه اللّه بشيراً ونذيراً وداعياً إلىٰ اللّه بإذنه وسراجاً منيراً . أمّا بعد :

فلستُ أدري : أمن حُسْنِ حظٍّ هذا البحث أن يُلقىٰ في هذا المكان أم لا ؟ .

لماذا أقول هذا القول ؟

أقوله لأنّ هنا من سيقول : هذا عربيٌّ يتعصّبُ للغته !

وآخرُ سيقول : الإسلام إذنْ للعرب فقط !

لكنّي أبادر هذا الجمع المبارك ، فأقول : لن أخشىٰ لوماً ولا عتباً ؛ لأسباب ثلاثة :

أوّلها : أنّي قد أقمتُ سنينَ في إندونيسيا ، وعرفتُ محبّة المسلمين فيها للّغة العربيّة .

ثانيها : أنّ إدارة المؤتمر هي التي اختارتْ لي هذا الموضوع ، ولا شكّ

(١) ساعدني في إعداد هذا الموضوع أخي وزميلي الأستاذ الدكتور/ تركي بن سهو العتيبي عميد البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وألقيته في مؤتمر (الدعوة الإسلامية في دول شرق آسيا والباسفيك : الواقع والمستقبل) الذي عقد في جاكرتا عاصمة إندونيسيا خلال المدة ٢٧-٢٩/ ٤/ ١٤١٦هـ.

في أنّ سبب اختيارها هو إدراكها لأهمّيّته .

ثالثها : أنّ البحث سيوجّه إلىٰ دعاة ، والداعية يدرك أنّه لا بدّ من أن تتوافر فيه من الصفات ما ليس لدىٰ العامّة ، ومنها إجادة اللغة العربيّة .

تعريف العرب :

مرّ مصطلح « العربيّ » بمراحل من حيث المراد به ، فقد كان قبل الإسلام يطلق علىٰ مَنْ يسكن في شبه جزيرة العرب ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة - رحمه اللّه - : «اسم العرب في الأصل كان اسماً لقومٍ جمعوا ثلاثة أوصاف :

أحدها : أنّ لسانهم كان اللغة العربيّة .

الثاني : أنّهم كانوا من أولاد العرب .

الثالث : أنّ مساكنهم كانت أرض العرب ، وهي : جزيرة العرب»(١) .

وبعد بزوغ فجر الإسلام وانتشاره ، وفتح بلاد فارس والروم ، أصبح العربيّ يُرادُ به المسلمُ سواءً بسواءٍ ، قال أبو جعفر محمّد بن عليّ ابن الحسين بن عليّ : (مَنْ وُلِدَ في الإسلام فهو عربيٌّ)(٢) ولذلك روي أنّ رسول اللّه ﷺ قال : (مَنْ أحبَّ العربَ فبحبّي أحبّهم ، ومَنْ أبغضَ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم : ١/ ٤٥٤ .

(٢) المصدر السابق : ١/ ٤٥٧ .

العربَ فببغضي أبغضهم)[١].

ثمّ صار كلّ من يتكلّم اللغة العربيّة عربيّاً، فقد روي عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - يرفعه، قال: (مَنْ تكلّم بالعربيّة فهو عربيّ، ومن أدرك له اثنان في الإسلام فهو عربيّ)[٢]. وروي أنّ رسول اللّه ﷺ صعد المنبر، فحمد اللّه، وأثنى عليه، ثمّ قال: (أمّا بعدُ أيّها الناسُ، فإنّ الربَّ ربٌّ واحدٌ، والأبَ أبٌ واحدٌ، والدينَ دينٌ واحدٌ، وإنّ العربيّةَ ليستْ لأحدكم بأبٍ ولا أمٍّ، إنّما هي لسانٌ، فَمَنْ تكلّمَ بالعربيّةِ فهو عربيٌّ)[٣].

وهكذا أصبحت العربيّة لغةً لا جنساً[٤]، فمن تكلّمها في أيّ بقعة في الأرض، ومن أيّ جنس كان، فهو عربيّ.

العربيّة لغة الإسلام:

لقد اختار اللّه تعالى اللغة العربيّة لتكون وعاءً لكلامه العظيم وكتابه الكريم، وللمعجزة الخالدة لنبيّه الأمين ﷺ، وأثنى اللّه تعالى عليها، فقال: ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾** ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٥]، وقال أيضاً: ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾** ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

(١) المعجم الكبير: ١٢/٣٤٨، ح: ١٣٦٥٠، والمعجم الأوسط: ٣/ ١٤٠، ح: ٢٥٥٨، ٦/٢٧٣، ح: ٦١٨٢.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٤٥٨.
(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٦٠.
(٤) الإسلام والحضارة الغربية للدكتور/ محمّد محمّد حسين - رحمه الله -: ١٩٧-٢٠٠.

وقال أبو بكرٍ الصدّيقُ ـ رضي اللّه عنه ـ : (لَتَعَلُّمُ إعرابِ القرآنِ أحبُّ إليَّ من تعلُّمِ حروفه)[١] .

وقال عمر بن الخطّاب ـ رضي اللّه عنه ـ : (تعلّموا العربيّة ؛ فإنّها من دينكم)[٢] .

وقال عبداللّه بن عبّاسٍ ـ رضي اللّه عنهما ـ : (كان كلام آدمَ ـ عليه السلامُ ـ بالعربيّة ، فلمّا أكلَ الشجرةَ أُنْسِيَ العربيّة ، وتكلّم بالسُّريانيّة ، فلمّا تاب اللّه عليه رُدَّتْ عليه العربيّةُ)[٣] .

وقال أبيٌّ بن كعب ـ رضي اللّه عنه ـ : (تعلّموا العربيّة كما تتعلّمون حفظَ القرآن)[٤] .

وقال الحسين بن عليٍّ ـ رضي اللّه عنهما ـ : (تعلّموا العربيّة ؛ فإنّها لسان اللّه الذي يُخاطبُ به النّاس يوم القيامة)[٥] .

وسئل الحسن البصريّ ـ رحمه اللّه ـ : (ما تقول في قومٍ يتعلّمون العربيّة ؟ فقال : أحسنوا ؛ يتعلّمون لغة نبيّهم)[٦] .

وقال عمر بن هبيرة الفزاريّ : (ما على أحدكم أن يتعلّم العربيّة ؛ فيقيمَ بها أوَدَه ، ويحضرَ بها سلطانَه ، ويُزيِّنَ بها مَشْهَدَهُ ، وينوءَ بها على

(١) تنبية الألباب على فضائل الإعراب لأبي بكر الشنترينيّ : ٧٥-٧٦ .
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم : ١ / ٤٧٠ .
(٣) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطيّ : ١/ ٣٠ .
(٤) صناعة الكتاب : ٣٠ ، تفسير القرطبيّ : ١ / ٢٣ .
(٥) تنبيه الألباب على فضائل الإعراب : ٧٧ .
(٦) صناعة الكتاب : ٣٠ ، تفسير القرطبيّ : ١ / ٢٣ .

خصمه. أوَ يرضى أحدكم أن يكون لسانُهُ مثلَ لسانِ عبده أو أكّاره؟)[1].

ولعلّه من حسن التأسّي بالرسول ﷺ ـ وقد أُمِرَ المسلمون بالاقتداء به والتأسّي بشمائله ـ أن يتعلّمَ المسلم لغة نبيّه ﷺ.

وقد كان علماء المسلمين يعدّون التكلّم باللغة العربيّة شعاراً للإسلام، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ: «إنّ اللسان العربيّ شعارُ الإسلام وأهله، واللغاتُ من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميّزون»[2].

ولا يحتقر اللغة العربيّة، أو يعيبها، ويغضّ من شأنها، إلا جاهلٌ أو حاقدٌ يكره الإسلام وأهله، ولو تزيّا دعواه بزيّ العلم، أو وشّحها بوشاح الموضوعيّة، قال الزمخشريّ[3]: «ولعلّ الذين يغضّون من العربيّة، ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها . . . . . ، لا يبعدون عن الشُّعوبيّة منابذةً للحقّ الأبلج، وزيغاً عن سواء المنهج.

والذي يُقضى منه العجبُ حالُ هؤلاء في قلّة إنصافهم، وفرط جورهم واعتسافهم؛ وذلك أنّهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلاميّة فقهها وكلامها وعِلْمَي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربيّة بَيِّنٌ لا

(١) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي: ١/ ٤٩٩، ديوان المعاني: ١/ ٦٧.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٥١٩.
(٣) المفصّل في صنعة الإعراب: ١٨.

يُدْفَعُ ومكشوفٌ لا يتقنّعُ . . . .

ثمّ إنّهم يجحدون فضلها وتعليمها، ويدفعون خَصْلَهَا، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها، وينهون عن تعلّمها وتعليمها، ويمزّقون أديمها، ويمضغون لحمها . . . . . ».

ولم يسلم من ازدراء هؤلاء الحاقدين أو الجاهلين متعلمو اللغة العربيّة قديماً ولا حديثاً، بل كانوا يحتجون لمنقصتهم إيّاهم بحجج واهية، قال أبو جعفر النحاس: «وقد صار أكثر من مضىٰ يطعن علىٰ متعلمي العربيّة جهلاً وتعدياً حتّىٰ إنّهم يحتجون بما زعموا أنّ القاسم بن مخيمرة قال: (النحو أوّله شغلٌ، وآخره بغيٌ) . . . . »[1].

وأبو عروة القاسم بن مخيمرة الكوفيّ الهمدانيّ المتوفّىٰ سنة ١٠٠هـ، وإن كان أحد الأئمّة، ليس قوله حجّة إن صحّ؛ « فإنّه مخالف لقول النبيّ ﷺ وأصحابه وتابعيه، وما كان كذلك لم يجز لمسلم أن يحتجّ به، وأيضاً قوله: (أوله شغلٌ، وآخره بغيٌ) كلامٌ لا معنىٰ له؛ لأنّ أوّل الفقه شغلٌ، وأوّل الحساب شغلٌ، وآخره بغيٌ، وكذا أوائل العلوم، أفترىٰ الناس تاركين العلوم من أجل أنّ أولها شغلٌ ؟

وقوله: (وآخره بغيٌ) إن كان يريد به أنّ صاحب النحو إذا حذقه صار فيه زهوٌ، واستحقر من يلحن، فهذا موجود في غيره من العلوم»[2].

---

(١) صناعة الكتاب: ٢٩.

(٢) المصدر السابق.

حُكِيَ عن يحيىٰ بن أكثم أنّه قال: «بينما أنا يوماً جالسٌ مع المأمون إذ دخل الدار فتًىٰ أبرعُ الناس زيّاً وهيبةً ووقاراً، وهو لا يلتفتُ إعجاباً بنفسه، فنظر إليه المأمون، فقال: يا يحيىٰ، هذا لا يخلو أن يكون هاشميّاً أو نحويّاً، ثمّ بعث من يتعرّف ذلك منه، فإذا هو نحويٌّ، فقال المأمون: يا يحيىٰ، أعلمتَ أنّ علم النحو قد بلغ بأهله من عزّة النفس وعلوّ الهمّة منزلة بني هاشمٍ في شرفهم؟ يا يحيىٰ مَنْ قَعَدَ به نَسَبُهُ نَهَضَ به أدبُهُ»(١).

ولكنَّ سببَ ذلك الزهو أنّ النحويَّ يحتقر مَنْ يلحن ولا يتقن علمه، «وهذا موجودٌ في غيره من العلوم، من الفقه وغيره، في بعض الناس، وإن كان مكروهاً. وإن كان يريد بالبغي التجاوزَ فيما لا يحلّ فهذا محالٌ؛ لأنّ النحو إنّما هو لتعلّم اللغة التي نزل بها القرآن، وهي لغة النبيّ ﷺ، وكلام أهل الجنّة وأهل السماء، كما قال مقاتل بن حيّان: (كلام أهل السماء العربيّةُ)(٢). »(٣).

وقد تراجع القاسم عن قوله السابق، فقد« قال ابن الأنباريّ: سمعتُ أحمد بن يحيىٰ ثعلباً يقول: كان أحد الأئمّة يعيب النحو، ويقول: (أوّلُ تعلّمه شغلٌ، وآخره بغيٌ، والعالم به من يزدري به الناس، فقرأ يوماً: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٨]، فقيل له: كفرتَ؛ من حيث تجعلُ اللّهَ يخشىٰ العلماءَ، فقال: واللّهِ لا طعنتُ علىٰ علمٍ يؤدّي إلىٰ معرفة هذا أبداً»(٤).

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم: ١/ ٢٦٣.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة: فضائل القرآن: ٧/ ١٥١، ح ١٤.
(٣) صناعة الكتاب: ٢٩ـ ٣٠.
(٤) تنبيه الألباب على فضائل الإعراب لأبي بكر الشنتريني: ٦٦ـ ٦٧.

أهمّيّة اللغة العربيّة للداعية :

مع الإيمان بأنّ الدعوةَ رسالةٌ عامّةٌ، يجبُ على كلّ مسلمٍ حملُها والقيامُ بها ، سواءٌ أكان عالماً أم غير عالم ؛ لما رواه البخاريّ ـ رحمه اللّه ـ عن عبداللّه بن عمرو بن العاص ـ رضي اللّه عنهما ـ أنّ رسول اللّه ﷺ قال : (بلّغوا عنّي ولو آيةً، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومَنْ كذبَ عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعدَه من النّار)(١)، مع ذلك يجب أن تتوافر في الداعية شروط كثيرة ليقوم بالدعوة على الوجه الأكمل، منها :

الفهمُ الدقيقُ المبنيُّ على العلمِ قبلَ العملِ ، والقائمُ على تدبّر معاني القرآن الكريم وأحكامه ، وفهمِ السنّةِ النبويّةِ الشريفةِ(٢) .

فالداعية سيكون إماماً في الصلاة، مفسِّراً لكتاب اللّه تعالى، شارحاً لسنّة المصطفى ﷺ ، مفتياً ، وربّما دعت الحاجة إلى أن يكون مجتهداً ، وقبل ذلك كلّه لا بدّ أن يكون سليم المعتقد .

والإمامُ لا بدّ أن يكون مجيداً للغة القرآن الكريم التي سيتلو بها آياته في الصلوات ، قال يحيى بن عتيقٍ ـ رحمه اللّه ـ : «سألتُ الحسن البصريّ ، فقلتُ : يا أبا سعيدٍ : الرجلُ يتعلّم العربيّة ، يلتمسُ حُسنَ المنطقِ، ويُقيمُ بها قراءته، فقال : حسنٌ يا بُنيَّ ، فتعلّمْها ؛ فإنّ الرجلَ

---

(١) فتح الباري : ٦ / ٤٩٦ .

(٢) الحكمة في الدعوة إلى اللّه تعالى لسعيد بن عليّ القحطانيّ : ١٢٠ .

قد يقرأ الآية، فيعيا بوجوهها، فيهلك فيها»[١].

والمفسِّرُ والمحدّثُ والمفتي والمجتهدُ يحتاج كلٌّ منهم إلى معرفة اللغة العربيّة، كما أنّ سلامة المعتقد تنبع من الصواب في فهم اللغة العربيّة؛ لأنّ الانحراف في تأويل اللغة يؤدّي إلى الزيغ والضلال في العقيدة، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء اللّه.

العقيدة واللغة:

إنّ المعتقد السليم يقوم على تنزيل الأدلّة منزلتها في اللغة العربيّة دون تشبيهٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، وما زاغ أكثر الزائغين إلا بسبب جهلهم باللغة العربيّة، أو بتعمّدهم صرف معانيها عن حقائقها، قال ابن جنّي: «أكثرُ مَنْ ضلَّ من أهل الشريعة عن القصدِ فيها، وحادَ عن الطريقة المثلى إليها، إنّما استهواه، واستخفَّ حلمَهُ، ضعفُهُ في هذه اللغة الكريمة الشريفة»[٢].

وقال أبو عبيد: (سمعت الأصمعيّ يقول: سمعت الخليل بن أحمد يقول: سمعت أبا أيوب السختياني يقول: عامّة مَنْ تَزَنْدَقَ بالعراق لقلّة علمهم بالعربيّة)[٣].

ومن شواهد الزيغ عن الطريق المستقيم بسبب الجهل باللغة العربيّة أنّني كنتُ أعمل في معهد العلوم الإسلاميّة والعربيّة في جاكرتا عام

(١) إيضاح الوقف والابتداء: ٢٧.
(٢) الخصائص: ٣/ ٢٤٥.
(٣) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية: ١٢٤.

١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠م، فعلمتُ حينذاك أنّ أحد طلاب المعهد هو من القاديانيّين، فدعوته للمناقشة رغبةً في أن يعود عن الغيّ والضلال، وكنتُ إذا أفحمتُه بالحجّة بدتْ عليه الحيرة والاضطراب، لكنّه كان في اليوم التالي يعود إليّ وقد لُقِّنَ الجوابَ، وكان آخر عهدي به أن قلتُ له: أتؤمنُ بالقرآن الكريم؟، فقال لي: نعم، فقلتُ له: إذنْ كيف تؤمنُ بنبوّة غلام ميرزا أحمد المزعومة، واللّه سبحانه يقول في محكم كتابه: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فمحمّدٌ ﷺ هو إذاً آخر النبيّين، فلا نبيّ بعده، فاضطرب، وتلعثم، ولم يحرْ جواباً، لكنّه جاءني في اليوم التالي قائلاً: إنّ معنىٰ: ﴿**وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ أي: هو كالخاتم في اليد، فقلتُ: سبحان اللّه! لو عرفتَ اللغة العربيّةَ لما قبلتَ هذا التأويل ممّن لقّنك إيّاه!

وهذا مصداق لقول الزُهريّ ـ رحمه الله ـ: (إنما أخطأ الناس في كثير من تأويل القرآن لجهلهم بلغة العرب)[١].

لكنّ هذا لا يستغربُ من أعجميّ ذي بضاعةٍ مزجاةٍ باللغة العربيّة، لكنّ مثل هذا يُستنكَرُ من علامة جهبذٍ، بل من بحر علومٍ، كفخر خوارزم العلامّة الزمخشريّ الذي لوىٰ أعناق النصوص استدلالاً علىٰ مذهبه الاعتزالي[٢]، فرأىٰ أنّ «لن» تفيدُ التأبيدَ؛ للوصول إلىٰ مذهبه في نفي رؤيةِ المؤمنين ربَّهم في الدنيا والآخرة[٣] مستدلاً بقوله تعالىٰ:

(١) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية: ١٢٣.
(٢) الكشّاف: ٣/ ٢٢، شرح الأنموذج للأردبيليّ: ٢٣٣.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنّة: ٣/ ٤٥٤.

﴿ولَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وما ذلك جهلٌ منه في حقائق اللغة العربيّة، بل هو تعسّفٌ وضلالٌ.

والردُّ على الزمخشريّ سهلٌ جداً؛ فإنَّ اللّهَ سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦] فخصَّ النفيَ باليوم، وهذا معارضٌ للتأبيد، وفي آية البقرة قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: ٩٥] ولو كانت (لن) دالةً على التأبيد لما احتاجت إلى التأكيد بقوله: ﴿أَبَدًا﴾، ومّما يَرُدُّ على الزمخشريِّ أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩١]، فقيّدَ النفيَ برجوع موسى، وهو منافٍ للتأبيد.

وقبل الزمخشريّ كان أبو عليّ الفارسيّ يعرب (رَهْبَانِيَّةً) من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧] كان يعربها مفعولاً به لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده، أي يجعلها من باب الاشتغال، ويجعل الواو في قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ للاستئناف، ولا يجعل (رَهْبَانِيَّةً) معطوفة على (رَأْفَةً)، قال: «فقوله: (رَهْبَانِيَّةً) محمولٌ على فعلٍ، كأنّه

قال: وابتدعوا رهبانيّةً ابتدعوها، ألا ترىٰ أنّ الرهبانيّة لا يستقيم حملها علىٰ (جَعَلْنَا) مع وصفها بقوله: (ابْتَدَعُوهَا)؛ لأنّ ما يجعله هو تعالىٰ لا يبتدعونه هم»(١).

وتبع الزمخشريُّ أبا عليّ الفارسيَّ في إعرابه، وهذا الإعراب منهما مَرْجِعُهُ كونُهما من المعتزلة، وهم يقولون: ما كان مخلوقاً للّه لا يكون مخلوقاً للعبد، فالرأفة والرحمة من خلق اللّه، والرهبانيّة من ابتداع الإنسان، فهي مخلوقةٌ له، وهم يعتقدون أنَّ مايفعله الإنسان لا يفعله اللّه تعالىٰ، ولا يخلقه.

وهذا الإعراب منهما باطلٌ، ولا يستقيم علىٰ قواعد اللغة؛ لأنّ جعل هذه الآية من باب النصب علىٰ الاشتغال غير صحيح، فمن شروط الاسم المُشتَغَلِ عنه أنْ يكون مختصّاً ليصحَّ رفعُهُ بالابتداء، والمبتدأ لا يكون إلا معرفةً أو نكرةً مختصّةً(٢)، أمّا في هذه الآية فـ(رَهْبَانِيَّةً) نكرة غير مختصّة، فلا يصحّ أنْ تكون من باب الاشتغال، وإنّما الإعراب الصحيح لها: أنْ تكون الواو عاطفة، و(رَهْبَانِيَّةً) معطوفة علىٰ (رَأْفَةً)، ووُصفَتِ الرهبانيّةُ بجملة (ابْتَدَعُوهَا)؛ لأنّ الرأفة والرحمة في القلب لا تَكَسُّبَ للإنسان فيها، بخلاف الرهبانيّة؛ فإنّها أفعالُ بدنٍ مع شيء في القَلب، ففيها موضعٌ للتكسُّب. واللّهُ أعْلَمُ.

---

(١) الإيضاح العضديّ: ٧٦.

(٢) النكرة المختصة هي المضافة أو الموصوفة، مثل: كتابُ علمٍ اقتنيتُهُ، أو: كتابٌ قيمٌ اشتريتُهُ.

والداعية من أولى النّاس في تحريّ سلامة عقيدته؛ لئلا يزيغ أو ينحرف، فتهوي معه أممٌ من أتباعه في الزيغ والضلال، ومعرفة اللغة العربيّة أحد العواصم بإذن الله من الوقوع في ذلك، قال الأصمعي ـ رحمه الله ـ: «تعلّموا النحو؛ فإنّ بني إسرائيل كفروا بكلمةٍ واحدةٍ، كانت مشدّدة، فخففوها، قال تعالى: ﴿يا عيسى إني ولّدتُك﴾، فقرأوا: ﴿يا عيسى إني وَلَدْتُك﴾ مخففاً، فكفروا»(١).

التفسير واللغة:

إنّ كتاب اللّه تعالى هو معجزة رسولنا محمّد ﷺ، وهو أُنْزِلَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ؛ ليقوم النّاس بقراءته وبتدبّر آياته: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، ولا شكّ في عدم جواز تلاوة القرآن الكريم بغير اللغة العربيّة، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه اللّه ـ: «فأمّا القرآن فلا يقرؤه بغير العربيّة، سواءً قَدِرَ عليها أم لم يقدر، عند الجمهور، وهو الصواب الذي لا ريبَ فيه»(٢).

وأما تدبره فكيف يتدبّر القرآن الكريم مَنْ لا يعرفُ لغتَهُ؟ «وإنما يعرف فضل القرآن مَنْ كثُرَ نظره، واتسع علمه، وفهم مذهب العرب، وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات»(٣).

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبّان: ٢٢١-٢٢٢.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ١ / ٤٦٢.
(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ١٢.

قد يقول قائل: يفهم معانيه بالترجمة، ولكنّني أبادر هذا القائل بالتأكيد على أنّ الترجمة من أيّ لغة لا يمكن أن تنقل المعنى كاملاً، فكيف إذا كانت اللغة المنقول منها هي اللغة العربيّة التي عُرِفتْ بالعمق والغزارة وتقارب معاني الألفاظ؟

وكيف إذا كان المرادُ ترجمتُه القرآنَ المُعْجِزَ الذي عجزتْ فصحاءُ العربِ وأساطينُ البلاغةِ أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثله؟

إنّ الترجمة تظلُّ عاجزةً عن نقل معاني الآيات نقلاً كاملاً، قال ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ: «لا يقدر أحدٌ من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نُقِلَ الإنجيلُ عن السُّريانيّة إلى الحبشيّة والروميّة، وتُرجمتِ التوراةُ والزبورُ وسائرُ كتب الله عزّ وجلّ بالعربيّة؛ لأنّ العجمَ لم تتسعْ في المجاز اتّساعَ العربِ.

ألا ترى أنّك لو أردتَ أن تنقل قوله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدّية عن المعنى الذي أُودِعَتْهُ، حتّى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتظهر مستورها، فتقول: إنْ كان بينك وبين قومٍ هدنةٌ وعهدٌ، فخفتَ منهم خيانةً ونقضاً، فأعْلِمْهم أنّك قد نقضتَ ما شرطتَ لهم، وآذِنْهُمْ بالحرب؛ لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء»(١) انتهى كلامه ـ رحمه الله ـ.

(١) تأويل مشكل القرآن: ٢١، وانظر: الصاحبيّ لابن فارس: ١٧.

وقال بعض الحكماء : « لو اجتهد جميع الناس أن ينقلوا ـ أي : يترجموا ـ : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر : ٤٥] ما قدروا ، وكذا : ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [هود: ٤٤] ، الآية ، وكذلك : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] الآية ، وكذا : ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨] ؛ لما فيه من الاختصار الذي هو من إعجاز القرآن ، ومثلُه كثيرٌ »(١) .

ولذلك قال الدكتور أحمد نسيم سوسة : «الواقع أنّه يتعذّر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربيّة ، ولم يضطلع بآدابها ، أن يدرك مكانة هذا الفرقان الإلهيّ ، وسُمُوَّه ، وما يتضمّنه من المعجزات المبهرة»(٢) .

وأقول : كيف سيترجم مترجمٌ قول الله تعالىٰ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤] ، هذه الآية التي لـمّا سمعها أعرابيٌّ سَجَدَ ، فلمّا سئل : لِمَ سجدتْ ؟ قالَ : سجدتُ لفصاحة هذا الكلام(٣) .

وبِمَ سيترجم المترجم ألفاظ العموم التي ترد كثيراً في القرآن الكريم ، مثل : ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ في قول الله تعالىٰ : ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] ؟ ولذلك لم يُجِزْ بعض العلماء ترجمة القرآن الكريم(٤) .

---

(٢) صناعة الكتاب : ٧٣ .
(٣) قالوا عن الإسلام : ٧١ .
(٣) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٤٩ ، روح المعاني : ١٤/ ٨٦ .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٥٢٠ .

وأنّىٰ لمترجم أن يفرّق في ترجمته بين (أكمل) و (أتمّ) في قول اللّه تعالىٰ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] ؟ .

وكيف سيترجم مترجم ﴿ لِبَاسًا ﴾ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النبأ: ١٠] ؟ أم تراه سيفعل بها كما فعل أحد مترجمي معاني القرآن الكريم إلىٰ اللغة الإنجليزيّة حين ترجمها بـ(Pants) ! .

وقد أدرك المستشرقون الذين تعلّموا اللغة العربيّة روعة لغة القرآن الكريم ذات اللسان العربيّ، لذلك قال المستشرق الفرنسيّ جاك ريسلر : « لمّا كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أُنزل ليُقرأ ويتلىٰ بصوتٍ عالٍ، ولا تستطيع أيّة ترجمة أن تعبّر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقيّة، ويجب أن تقرأه في لغته التي كُتِبَ بها ؛ لتتمكّن من تذوّق جمله وقوّته وسموّ صياغته، ويخلق نثره ذو الجرس المسجوع سحراً مؤثراً في النفس، حيث تزخر الأفكار قوّةً، وتتوهّج الصور نضارةً، فلا يستطيع أحدٌ أن ينكر أنّ سلطانه السحريّ وسموّه الروحيّ يسهمان في إشعارنا بأنّ محمّداً ﷺ كان ملهماً بجلال اللّه وعظمته »[(١)] .

وقال المستشرق الإنجليزيّ سير هاملتون ألكسندر روسكين جب : « . . . . والواقع أنّ القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسيّ كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع ؛ إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العاديّة، ولا يمكن أن يعبّر عن صوره وأمثاله ؛ لأنّ كلّ عطفٍ أو

(١) الحضارة العربيّة : ٣٠ .

مـجـاز أو براعـة لغـويّة يجب أن تـدرس طويلاً قـبل أن ينبـثق المعنىٰ للقـارئ، والقرآن كـذلك له حلاوةٌ وطلاوةٌ، ونظمٌ بديعٌ مرتبٌ لا يمكن تحديده؛ لأنّها تُعِـدُّ بسحرها أفكار الشخص الذي يصغي إلىٰ القرآن لتلقي تعاليمه، ولا شكّ في أنّ تأويل كلمات القرآن إلىٰ لغة أخرىٰ لا يمكن إلا أن يشوّهه، ويحوّل الذهب النقيّ إلىٰ فخار . . . . »(١).

وقالت الإنجليزيّة إيفلين كوبولد: « الواقع أنّ جمل القرآن وبديع أسلوبه أمرٌ لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً، ومن المقرّر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته، وما ينعم به من جرس لفظيّ لا تجده في غيره من الكتب»(٢).

وقال الإنجليزيّ روم لاندرو: « بسببٍ من أنّ مهمّة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعيّة إلىٰ لغة أخرىٰ تتطلّب عناية رجل يجمع الشاعريّة إلىٰ العلم ، فإنّنا لم نعرف حتّىٰ وقت قريب ترجمةً جيّدةً استطاعت أن تتلقّف شيئاً من روح الوحي القرآنيّ، والواقع أنّ كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلىٰ ذلك مفعمين بالحقد علىٰ الإسلام إلىٰ درجةٍ جعلتْ ترجماتِهم تنوءُ بالتحامل والغرض، ولكن حتىٰ أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوبٍ لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الجرسيّ الآسر، علىٰ الوجه الذي يرتلها به المسلم ، وليس يستطيع الغربيّ أن يدرك شيئاً من روعة

(١) الاتجاهات الحديثة في الإسلام : ٣٠ .

(٢) البحث عن الله : ١١١ .

كلمات القرآن وقوّتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصليّة»[١].

وعوداً على بدءٍ أقول: إنّ الداعية لا يمكن أن يستغني عن تدبّر كلام اللّه تعالى وفهمه، ومن ثمّ تفسيره للعامة، فيحتاج حينئذٍ إلى عدّة المفسّر، وقد أجمع العلماء على أنّ العلم باللغة العربيّة وأسرارها شرطٌ من الشروط الرئيسة في المفسِّر، قال مالك بن أنس ـ رحمه اللّه ـ: «لا أوتى برجلٍ غير عالمٍ بلغات العرب يفسِّرُ كتابَ اللّه إلا جعلته نكالاً»[٢].

والمفسّر محتاج إلى الرسوخ في عدد من علوم اللغة العربيّة: كعلم دلالة الألفاظ، وعلمي النحو والصرف، وعلم الاشتقاق، وعلوم المعاني والبيان والبديع[٣]؛ وذلك للوصول إلى ما في القرآن الكريم من بلاغة وبديع، وللترجيح بين الأقوال المختلفة في تفسير الآية، ولاستنباط بعض الأحكام بمقتضى القواعد النحويّة والصرفيّة واللغويّة، وللوقوف على المترادفات، وعلى الحقيقة والمجاز[٤]، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه اللّه ـ: «لا بدَّ في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدلّ على مراد اللّه ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربيّة التي خُوطبنا بها ممّا يعينُ على أن

---

(١) الإسلام والعرب: ٣٦.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشيّ: ٢/ ١٦٠.
(٣) التحبير في علم التفسير للسيوطيّ: ٤٢ ب.
(٤) أثر الدلالة النحويّة واللغويّة في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعيّة لعبدالقادر السعديّ: ٨٧.

نفقه مـرادَ اللّه ورسـوله بكلامـه، وكـذلك معـرفةُ دلالة الألـفاظ على المعـاني؛ فإنّ عامّة ضلال أهل البدع كـان بهذا السبب؛ فإنّهم صـاروا يحـملون كـلام اللّه ورسـوله على مـا يدّعـون أنّه دالٌّ عليـه، ولا يكون الأمرُ كذلك»(١).

والثمـرة العظمى لهذا الفـهم هو التدبّر الذي نُدِبَ المرءُ إليه؛ ليؤديَ به ذلك إلى الإيمان باللّه مُنْزِلِ هذا الكتـاب، وإلى تعظيم القـرآن وَمَنْ أوحـاه، وَمَنْ بلّغـه، وهذه كلّهـا لا تتـأتّى إلا لمن عـرف لغتـه، وأدرك أسـرارها، وَسَبَرَ أغـوارها، وَمَيَّزَ الفروق بين مفـرداتهـا، وَرُزِقَ مَلَكَةَ تَذُوُّقِ أساليبـها، قال ابن النقيب ـ رحـمه اللّه ـ «إنّما يعـرف فضل القرآن مَنْ عرف كـلام العرب، فعـرف علم اللغة، وعلم العـربيّة، وعلم البيان ..... فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى مـا أودعه اللّه ـ سبحانه ـ فيه من البـلاغة والفـصاحة وفنون البـيان، فـقد أوتي فـيه العجبَ العـجابَ، والقولَ الفـصلَ اللبابَ، والبلاغـةَ الناصعةَ التي تحيّرُ الألبـابَ، وتُغلَقُ دونهـا الأبوابُ .... ولذلك يقـع في النفـوس عند تلاوته وسـماعـه من الروعـة ما يمـلأ القلوبَ هيبةً، والنفـوسَ خشيةً، وتستلذّه الأسـماعُ، وتميل إليه بالحنين الطباعُ، سـواءً كانت فاهمـةً لمعانيه أو غيـر فـاهمـة، عـالمةً بما يحـتـويه أو غـيرَ عـالمة، كـافرةً بما جـاء به أو مؤمنة»(٢).

(١) الإيمان: ١١١.
(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن: ٧.

الحديث واللغة:

إنّ السنّة النبويّة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلاميّ، روى الحاكم وغيره عن المقدام بن معديكرب ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: (ألا إنّي أُوتيتُ القرآنَ ومثلَهُ معه؛ ألا يُوشكُ رجلٌ شبعانُ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرامٍ فحرّموه، وإنّ ما حرّم رسولُ الله كما حرّم الله)، ولقد كان النبيّ ﷺ من الفصاحة والبلاغة في منزلة عالية لا تُدانى، روى البخاريُّ ـ رحمه الله ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: (بُعِثْتُ بجوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وبينا أنا نائمٌ أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض، فوُضِعتْ في يديَّ)(١).

ومن واجبات الداعية نشرُ السنّة النبويّة بين النّاس، وتبليغهم أحاديث الرسول ﷺ، فكيف يُبلّغ مَنْ لا يعرفُ لغة حديث المصطفى ﷺ؟ ولذلك قرن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ بينهما حيث كتب إلى أبي موسى الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ: (أمّا بعد: فتفقهوا في السنّة، وتفقهوا في العربيّة)(٢)، وكذلك كان العلماء يشنّعون على من يدرس الحديث ولا يتعلّم العربيّة، قال شعبة بن الحجّاج ـ رحمه الله ـ: (مثلُ الذي يتعلّم الحديث ولم يتعلّم العربيّة كالرأس بلا بُرْنُسٍ)(٣)؛ لأنّه قد يفهم الأحاديث، أو يؤولها على غير

(١) فتح الباري: ٦/ ١٤٩.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ١٥٠، صناعة الكتاب: ٣٠.
(٣) الصعقة الغضبيّة في الردّ على منكري العربيّة للطوفيّ: ٢٤٨.

وجهها المراد؛ بسبب جهله بدلالة ألفاظها، بل لا بدَّ له من أن يعرفَ أساليبها، وعادات العرب في خطابها وحديثها في العصور الأولى؛ لئلا ينزلق في فهمٍ خاطئ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه اللّه ـ: «ومَنْ لم يعرفْ لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها، ويخاطبهم بها النبيّ ﷺ، وعاداتِهم في الكلام، وإلا حَرَّفَ الكلم عن مواضعه؛ فإنّ كثيراً من النّاس ينشأ على اصطلاح قومه وعاداتهم في الألفاظ، ثمّ يجد تلك الألفاظ في كلام اللّه أو رسوله أو الصحابة، فيظنّ أنّ مراد اللّه أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهلُ عادته واصطلاحه، ويكون مرادُ اللّه ورسوله والصحابة خلافَ ذلك»(١).

وقد حضر مجلس الإمام سليمان بن مهران الأعمش قومٌ ليسمعوا الحديث، فقال لهم: ما اليومُ؟ فقال رجلٌ منهم: الاثنين، فقال الأعمش: الاثنين!! ارجعوا، فأعربوا كلامكم، ثمّ اطلبوا الحديث(٢). أراد منه أن يقول: (يوم الاثنين)؛ لأنّ إضافة (يوم) سبب جرّ (الاثنين).

ويخشى على مَنْ يلحنُ في قراءة حديث رسول اللّه ﷺ أن يكون ممّن يكذب عليه، قال الأصمعيّ: «إنّ أخوفَ ما أخافُ على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبيّ ﷺ: (مَنْ كذبَ عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النّار)؛ لأنّه ﷺ لم يكن يلحن، فمهما

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٢٤٣.

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: ١/ ٦٤٤.

رويتَ عنه، ولحنتَ فيه، كذبتَ عليه»(١). وقال أبو بكر الشنتريني - رحمه الله -: «روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: (مَنْ كذبَ عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النّار)، ومَنْ لحنَ في حديثه ﷺ فقد كذب عليه؛ لأنّه ﷺ لم يكن يلحن، فإن قيل: فإن لم يقصد به اللحن فليس بمتعمّد، فالجواب: أنّ كلّ مَنْ قد علم أنّه غير مستقلٍّ بالإعراب، ثمّ تعرّض لقراءة كتاب اللّه أو حديث رسول اللّه ﷺ فإنّه متىٰ لحن في أحدهما فقد تعمّد الكذب، ويتأكّد الأمر عند مَنْ يقول بحماية الذرائع»(٢).

ولا شكّ في أنّ هذا التشدّد من بعض العلماء إنّما هو من باب سدّ الذرائع. واللّه أعلم وأحكم .

الفتيا واللغة:

إنّ أحوج ما يحتاجه المدعوون أن يقوم الداعية بتبصيرهم بأحكام دينهم، وما من داعية في أيّ مكان إلا وسيستفتيه النّاس فيما يعرض لهم من شؤونهم، فلا بدّ حينئذٍ من أن يكون الداعية فقيهاً، ولا يمكن لأيّ امرئ أن يكون فقيهاً ما لم يكن عارفاً باللغة العربيّة، قال ابن فارس في باب (القول في حاجة أهل الفقه والفتيا إلىٰ معرفة اللغة العربيّة) من كتابه الشهير الموسوم بـ(الصاحبيّ): «إنّ العلم بلغة العرب واجبٌ علىٰ كلّ متعلّق من العلم بالقرآن والسنّة والفتيا بسبب، حتّىٰ لا غَناءَ بأحدٍ منهم عنه؛ وذلك أنّ القرآنَ نازلٌ بلغةِ العربِ،

(١) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث: ١٠٧ .

(٢) تنبيه الألباب على فضائل الإعراب: ٩٠ - ٩١ .

ورسول الله ﷺ عربيٌّ، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جلّ وعزّ، وما في سنّة رسول الله [ﷺ]، من كلّ كلمةٍ غريبة، أو نظمٍ عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدّاً»[1].

ولا تكفي من الفقيه معرفةُ اللغةِ العربيّةِ قراءةً وكتابةً وتحدّثاً، بل يجب أن يتعلّم نحوها وتصريفها ودلالة ألفاظها؛ ليكون قادراً على معرفة وجوه الاستدلال، ولذلك قال عاصم: «من لم يُحْسِنْ من العربية إلا وجهاً لم يُحْسِنْ شيئاً»[2]، وقال ابن حزم[3]: «وفرضٌ على من قصد التفقّه في الدين كما ذكرنا أن يستعين على ذلك من سائر العلوم بما تقتضيه حاجته إليه في فهم كلام ربّه تعالى وكلام نبيّه ﷺ، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤]، ففرضٌ على الفقيه أن يكون عالماً بلسان العرب؛ ليفهمَ عن الله عزّ وجلّ، وعن النبيّ ﷺ، ويكونَ عالماً بالنحو الذي هو ترتيب العرب لكلامهم الذي به نزل القرآن، وبه تُفْهَمُ معاني الكلام التي يُعَبَّرُ عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ، فمن جهل اللغة، وهي الألفاظ الواقعة على المسمّيات، وجهل النحو الذي هو علم اختلاف الحركات الواقعة لاختلاف المعاني، فلم يعرف اللسان الذي به خاطبنا الله تعالى ونبيّنا ﷺ، ومن

(١) الصاحبيّ: ٥٠.
(٢) معرفة القراء الكبار: ٢٥٤.
(٣) الإحكام في أصول الأحكام: ٥/ ١١٧ ـ ١١٨.

لم يعرف ذلك اللسان لم يحلَّ له الفتيا فيه؛ لأنّه يفتي بما لا يدري، وقد نهاه اللّه عن ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]».

وقال الرازيّ: «اعلمْ أنّ معرفةَ اللغة والنحو والصرف فرضُ كفايةٍ؛ لأنّ معرفةَ الأحكام الشرعيّة واجبةٌ بالإجماع، ومعرفةُ الأحكام دون معرفة أدلّتها مستحيلٌ، فلا بدَّ من معرفة أدلّتها، والأدلّةُ راجعةٌ إلىٰ الكتاب والسنّة، وهما واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم، فإذن توّقفَ العلم بالأحكام علىٰ الأدلّة، ومعرفة الأدلّة تتوقّف علىٰ معرفة اللغة والنحو والتصريف، وما يتوقّف علىٰ الواجب المطلق، وهو مقدورٌ للمكلّف، فهو واجبٌ، فإذنْ معرفة اللغة والنحو والتصريف واجبةٌ»(١).

وقال الآمديّ: «وأمّا علم العربيّة فلتوقّفِ معرفة دلالات الأدلّة اللفظيّة من الكتاب والسنّة وأقوال أهل الحلّ والعقد من الأمّة علىٰ معرفة موضوعاتها لغةً، من جهة الحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والحذف والإضمار، والمنطوق والمفهوم، والاقتضاء والإشارة، والتنبيه والإيماء، وغيره ممّا لا يُعرَفُ في غير علم العربيّة»(٢).

ولا يظنّ ظانٌّ أنّه يجب علىٰ الفقيه أو المفتي أو الداعية الإحاطةُ

(١) المحصول في علم الأصول: ١/ ٢٧٥.
(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ١ / ٢٤.

باللغة العربيّة؛ لأنّ العربيّة أوسع من أن يحيط بها عقلُ بشرٍ، قال ابن فارس: «ولسنا نقول: إنّ الذي يلزمه من ذلك الإحاطة بكلّ ما قالته العرب؛ لأنّ ذلك غيرُ مقدورٍ عليه، ولا يكون إلا لنبيّ، بل الواجبُ علمُ أصولِ اللغة، والسنن التي بأكثرها نزل القرآن، وجاءت السنّة»(١).

لكنّه إذا أراد أن يدخل في عِدادِ المجتهدين يجب أن يكون عارفاً باللغة العربيّة، مدركاً لأسرارها؛ فهذا شرطٌ اشترطه العلماءُ في المجتهد(٢)، قال الشوكانيّ ـ رحمه الله ـ في شروط المجتهد:

«أن يكون عالماً بلسان العرب، بحيث يمكنه تفسير ما ورد في الكتاب والسنّة من الغريب ونحوه، ولا يُشترَطُ أن يكون حافظاً لها عن ظهر قلبٍ، بل المعتبرُ أن يكونَ متمكّناً من استخراجها من مؤلّفات الأئمّة المشتغلين بذلك»(٣).

حكم تعلّم اللغة العربيّة:

إنّ بعض الشعائر التعبّديّة يجب أن تكون باللغة العربيّة، كالتشهّد وقراءة القرآن، ولذلك يجب على كلّ مسلم ومسلمة أن يتعلّم من العربيّة ما يستطيع به القيام بهذه الشعائر، قال الإمام الشافعيّ ـ رحمه الله ـ: «على كلّ مسلمٍ أن يتعلّم من لسان العرب ما بلغه جهدُهُ، حتّى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب

(١) الصاحبيّ: ٥٠.

(٢) الإبهاج في شرح المنهاج للسبكيّ: ٣/ ٢٥٥.

(٣) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول: ٢٥٢.

اللّه، وينطق بالذِّكْرِ فيما افْتُرِضَ عليه من التكبير، وأُمِرَ به من التسبيح والتشهّد وغير ذلك، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله اللّه لسان مَنْ ختمَ به نبوّتَهُ، وأنزل به آخر كتبه كان خيراً له»(١).

أمّا لما سوىٰ ذلك فتعلّم اللغة العربيّة من عامّة المسلمين مستحبٌّ، علىٰ القول الصحيح؛ «لأنّها اللغة التي أنزل اللّه بها كتابه، وخاطب بها في شرائع دينه، وفرائض ملّته، وبها بلّغ رسوله ﷺ، وعلّم سنّته»(٢).

ولأنّ اللغة العربيّة شعار الإسلام، ولغة القرآن ولغة النبيّ ﷺ، حثّ العلماء علىٰ تعلّمها، فقال شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه اللّه ـ: «ينبغي لكلّ أحدٍ يقدرُ علىٰ تعلّم العربيّة أن يتعلّمها؛ لأنّه اللسان الأَوْلىٰ بأن يكون مرغوباً فيه، من غير أن يُحَرَّمَ علىٰ أحدٍ أن ينطقَ بأعجميّة»(٣).

لكنّ شيخ الإسلام في موضع آخر من كتابه [اقتضاء الصراط المستقيم] جعل تعلّمها فرضاً واجباً حيث قال: « إنّ نفس اللغة العربيّة من الدين، ومعرفتها فرضٌ واجبٌ؛ فإنّ فهم الكتاب والسنّة فرضٌ، ولا يُفْهَمُ إلا بفهم اللغة العربيّة، وما لا يتمّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ»(٤)، والصحيح عدم وجوبه إلا للشعائر التعبّديّة؛ لأنّ فرضيّته تعني إثْمَ مَنْ تركه، وفي هذا مشقّةٌ علىٰ المسلمين، ولا يكلّف اللّه نفساً إلا وسعها،

---

(١) الرسالة: ٤١.

(٢) نصيحة الملوك للماوردي: ٣٥.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٥٢١.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٥٢٧.

قال الطوفيّ: «والإجماع منعقدٌ علىٰ أنّ من لم يحصّل صناعة الإعراب وعلمَ العربيّة لا يذمُ شرعاً، ولا يُتوعّدُ بالعقاب؛ لأنّا نقول: نحن نعني بوجوبه الوجوبَ الخاصَّ علىٰ من أراد الفُتيا والقضاء»(١)، وهو ما رجحه الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ حين ذكر: «أن علىٰ الخاصة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون إليهم لدينهم، الاجتهاد في تعلّم لسان العرب ولغاتها التي بها تمام التوصّلِ إلىٰ معرفة ما في الكتاب، والسنن والآثار، وأقاويل المفسرين من الصحابة والتابعين، من الألفاظ الغريبة، والمخاطبات العربية؛ فإنّ مَنْ جَهِلَ سَعَةَ لسانِ العربِ، وكثرة ألفاظها، وافتنانها من مذاهبها، جهل جمل علم الكتاب، ومَنْ علمها، ووقف علىٰ مذهبها، وفَهِمَ ما تأوله أهل التفسير فيها، زالتْ عنه الشبه الداخلة علىٰ مَنْ جَهِلَ لسانها من ذوي الأهواء والبدع»(٢).

وأخيراً نؤكّد أنّ الداعية مطالبٌ بمعرفة اللغة العربيّة وبتعلّمها، وله مع الإخلاص وصدق النيّة في تعلّمها وتعليمها أعظم الأجر والثواب من اللّه الكريم الوهّاب، وأنّ علىٰ أمة الإسلام أنْ تدرك أنّ اعتزازها بلغة القرآن الكريم من اعتزازها بدين الإسلام، وأنّه يجب علىٰ خاصتهم العمل علىٰ تيسير سبل تعليمها، ونشرها، وأن لا تكون لغة من اللغات تسبقها؛ فلئن كان تعلّم غيرها حسناً لتعلمها هي أوجب وأحسن؛ لأنها أسرع وسيلة في فهم القرآن العظيم والسنة النبوية

(١) الصعقة الغضبية: ٢٣٧.
(٢) تهذيب اللغة للأزهري: ١/ ٥.

الشريفة؛ فما أجدرها منا بمزيد عناية! وما أحراها بفضل تذليل لعسيرها، وتيسير لتعلمها، وتوفير لمعجماتها، ونشر لكتب تعليمها وبرامج تدريسها، وتأهيل لمعلميها، وتشجيع لمتعليمها!!! فلئن افتخر غيرنا بلغته عصبية قومية ليكونن افتخارنا بلغتنا احتساباً وتأكيداً على أنها من ديننا، ومن ركائز بقائنا وحفظ مكانتنا، والله مولانا يتولانا برحمته.

سبيل تدبّر كتاب اللّه

إنّ اللغة العربيّة تفخر على كلّ اللغات بمزايا كثيرة ليستْ في غيرها، منها:

أنّها الأطول عمراً حيث تكفّل اللّه تعالى بحفظها حين تكفّل بحفظ كتابه الذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⑨ ﴾ [الحجر: ٩]، وأنّها الأغزرُ مادةً حيث تزيد موادّها على مئة ألف سوى المشتقّات، وأنّها الأبلغ في مراعاة مقتضى الحال، ولذلك تفرّدتْ بكثرة القواعد النحويّة والصرفيّة والبلاغيّة التي يستطيع بها الموهوب أن يملك ناصية البيان، ومع ذلك تمتاز بالسهولة؛ فهي بحرٌ له عمقٌ، وله سطحٌ، وعلى قدر همّة الغوّاص يحصل على الدرر، وإذا كانت العربيّة بحراً فإنّ القرآنَ أنْفَسُها درراً ولؤلؤاً، ولكنّ الحصول على جواهره يحتاج إلى غواصٍ ماهرٍ، عدّتُه التدبُّرُ العميقُ لآياته وسوره.

وإن لبلوغ منزلة المتدبرين للقرآن الكريم وللوقوف على مدى بلاغته وإعجازه ثلاثةَ أركانٍ:

الأوّل: فهم علوم اللغة.

والثاني: الإخلاص.

والثالث: الذوق السليم. وسأكتفي بإيراد أقوال لبعض العلماء الأعلام في هذه الأركان:

الركن الأوّل: فهم علوم اللغة:

وأقصد بعلوم اللغة نحوَها وصرفَها وبلاغتَها ودلالاتِ ألفاظِها؛ فإنّ فهم أسرار اللغة العربية، ومنها القرآن الكريم، يحتاج إلىٰ الاطلاع علىٰ كلّ علومها مجتمعة؛ لأنّها حلقةٌ متّصلةٌ، يأخذ بعضها برقاب بعضٍ، قال شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمه اللّه ـ: «لا بدَّ في تفسير القرآن والحديث من أن يَعْرِفَ ما يدلّ علىٰ مراد اللّه ورسوله ﷺ من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؛ فمعرفة العربيّة التي خُوطبنا بها ممّا يعينُ علىٰ أن نفقه مرادَ اللّه ورسولهُ بكلامه، وكذلك معرفةُ دلالة الألفاظ علىٰ المعاني؛ فإنّ عامّة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنّهم صاروا يحملون كلام اللّه ورسوله ﷺ علىٰ ما يدّعون أنّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمرُ كذلك»(١).

والثمرة العظمىٰ لهذا الفهم هو التدبّر الذي نُدِبَ المرءُ إليه؛ ليؤديَ به ذلك إلىٰ الإيمان باللّه مُنْزِلِ هذا الكتاب، وإلىٰ تعظيم القرآن وَمَنْ أوحاه، وَمَنْ بَلَّغَهُ، وهذه كلّها لا تتأتّىٰ إلا لمن عَرَفَ لغته، وأدرك أسرارها، قال ابن النقيب ـ رحمه اللّه ـ: «إنّما يعرف فضل القرآن مَنْ عَرَفَ كلام العرب، فَعَرَفَ علم اللغة، وعلم العربيّة، وعلم البيان ... فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأىٰ ما أودعه اللّه ـ سبحانه ـ فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجبَ العجابَ، والقولَ الفصلَ اللبابَ، والبلاغةَ الناصعةَ التي تحيّر

(١) الإيمان: ١١١.

الألبابَ، وتُغلقُ دونها الأبوابُ. . . ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوبَ هيبةً، والنفوسَ خشيةً، وتستلذّه الأسماعُ، وتميل إليه بالحنين الطباعُ، سواءً كانت فاهمةً لمعانيه، أو غير فاهمةٍ، عالمةً بما يحتويه، أو غيرَ عالمة، كافرةً بما جاء به، أو مؤمنةً»(١).

الركن الثاني: التقوى والإخلاص والتجرّد:

فالقرآن العظيم نور اللّه، وفهمه يحتاج إلىٰ نورٍ منه ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور]، قال الزركشيّ ـ رحمه اللّه ـ: «اعلمْ أنّه لا يحصلُ للناظرِ فهمُ معاني الوحي حقيقةً، ولا تظهرُ له أسرارُ العلم من غيبِ المعرفةِ، وفي قلبه بدعةٌ، أو إصرارٌ علىٰ ذَنْبٍ، أو في قلبه كِبْرٌ، أو هوىً، أو حُبُّ دنيا، أو يكونُ غيرَ متحقّقِ الإيمانِ، أو ضعيفَ التحقيقِ، أو معتمداً علىٰ قولِ مفسرٍ ليس عنده إلا علمٌ بظاهرٍ، أو يكونُ راجعاً إلىٰ معقولِهِ، وهذه كلُّها حُجُبٌ وموانعُ، وبعضُها آكَدُ من بعضٍ، [فـ] إذا كان العبدُ مُصْغياً إلىٰ كلامِ ربِّهِ، ملقيَ السمعِ، وهو شهيدٌ، لمعاني صفاتِ مخاطِبِهِ، ناظراً إلىٰ قدرته، تاركاً للمعهود من علمه ومعقوله، متبرّئاً من حوله وقوّته، معظّماً للمتكلِّمِ، مفتقراً إلىٰ غيبِ الجوابِ بدعاءٍ وتضرّعٍ، وابتئاسٍ وتمسكنٍ، وانتظارٍ للفتحِ عليه من عند الفتّاحِ العليمِ، وليستعنْ علىٰ ذلك بأن تكون تلاوتُهُ علىٰ معاني

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن: ٧.

الكلام وشهادة وصفِ المتكلّم من الوعد بالتشويق والوعيد بالتخويف والإنذار بالشديد، فهذا القارئ أحسنُ الناسِ صوتاً بالقرآن، وفي مثل هذا قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة]، وهذا هو الراسخ في العلم، جعلنا اللّه من هذا الصنف ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب]»[1].

الركن الثالث: الذوق اللغويّ السليم:

إنّ قراءة القرآن الكريم، ولو توافر معها التقوىٰ والإخلاص ومعرفة العربيّة، لا تستلزم القدرة علىٰ الوقوف علىٰ جمال الأسلوب وبلاغة كلام العرب؛ لأنّ ذلك يحتاج أيضاً إلىٰ ذوقٍ سليمٍ، وكذلك إدراك مواطن الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم يتطلّبُ وجود مَلَكَةِ الذوق القادرِ علىٰ تمييز الفروق بين المشتبهات وأسرارها، وعلىٰ مواطن الفصاحة والبلاغة وإجراء الكلام علىٰ النسق الرائع، قال ابن أبي الحديد: «اعلمْ أنّ معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق، والجليّ والأجلىٰ، والعليّ والأعلىٰ من الكلام أمرٌ لا يُدْرَكُ إلا بالذوق، ولا يمكن إقامةُ الدلالةِ المنطقيّةِ عليه، وهو بمنزلة جاريتين: إحداهما بيضاءُ مُشْرَبَةٌ حُمْرَةً، دقيقةُ الشفتين، نقيّةُ الشَّعْرِ، كحلاءُ العينِ، أسيلةُ الخدِّ، دقيقةُ الأنفِ، معتدلةُ القامةِ.

والأخرىٰ دونها في الصفات والمحاسن، لكنّها أحلىٰ في العيون

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٨٠-١٨١.

والقلوب منها، وأليقُ وأملحُ[١]، ولا يُدْرىٰ لأيِّ سببٍ كان ذلك، لكنّه بالذوق والمشاهدة يُعْرَفُ، ولا يمكن تعليله.

وهكذا الكلامُ، نعمْ يبقىٰ الفرقُ بين الوصفين أنّ حُسْنَ الوجوهِ وملاحتَها، وتفضيلَ بعضِها علىٰ بعضٍ يدركه كلُّ مَنْ له عينٌ صحيحةٌ، وأمّا الكلامُ فلا يعرفه إلا بالذوق، وليس كلُّ مَنِ اشتغلَ بالنحو أو باللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق، وممّن يصلح لانتقاد الكلام.

وإنّما أهلُ الذوق هم الذين اشتغلوا بعلمِ البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر، وصارتْ لهم بذلك دُرْبَةٌ ومَلَكَةٌ تامّةٌ، فإلىٰ أولئك ينبغي أن يُرْجَعَ في معرفةِ الكلام، وفضلِ بعضِهِ علىٰ بعضٍ»[٢].

ولا شكَّ في أنّ سائلاً سيقول: ولكنْ أيكون الذوقُ فطريّاً أم مكتسباً؟، فأقول: إنّ الذوق في الأصل ملكةٌ فطريّةٌ، لكنّ الاكتساب فيه هو المعتَمَدُ، ولذلك قال الزمخشريّ عن تدبّر كتاب اللّه: «إنّ أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائبِ نكتٍ يلطفُ مسلكها، ومستودعاتِ أسرارٍ يدقُّ سلكها، علمُ التفسير

(١) قال الأصمعيّ: «الحُسْنُ في العينين، والجمال في الأنف، والملاحة في الفم».
انظر: عيون الأخبار ٤/ ٢٧، الروض الأنف للسهيلي: ٤/ ١٩، المخلاة: ٥٩٦.
وقيل: «الجمال في القامة، والحسن في الأنف، والملاحة في الجسم، والحلاوة في العينين». انظر: التمثيل والمحاضرة: ٢١٦.
وقال ابن ميّادة (شعره: ٥٨):

يا أطيبَ الناس ريقاً بعد هجعتها ... وأملحَ الناسِ عيناً حين تَنْتَقِبُ

وقال ذو الرمة (ديوانه: ١/ ٤٦٥):

وعينٌ كعين الرئم فيها ملاحةٌ ... هي السحرُ أو أدهى التباساً وأعلقُ

(٢) نقله عن ابن أبي الحديد الإمامُ الزركشيّ ـ رحمه اللّه ـ في كتابه: البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٢٤.

الذي لا يتمُّ لتعاطيه وإجابة النظر فيه كلّ ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب (نظم القرآن)؛ فالفقيه وإنْ برّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلّم وإن بَزَّ أهلَ الدنيا في صناعة الكلام، وحافظُ القصصِ والأخبارِ وإنْ كان من ابنِ القِرِّيَّة (١) أحفظَ، والواعظُ وإن كان من الحسن البصريّ أوعظَ، والنحويُّ وإنْ كان أنحى من سيبويه، واللغويُّ وإن عَلَكَ اللغاتِ بقوّةِ لحييه، لا يتصدّى منهم أحدٌ لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوصُ على شيء من تلك الحقائق إلا رجلٌ قد برع في علمين مختصّين بالقرآن، وهما علما المعاني والبيان، وتمهّل في ارتيادهما آونةً، وتَعِبَ في التنقير عنهما أزمنةً، وبعثته على تتبّع مظانّهما همّةٌ في معرفة لطائف حجّة اللّه، وحرص على استيضاح معجزة رسول اللّه، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظٍّ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثيرَ المطالعاتِ، طويلَ المراجعاتِ، قد رَجَعَ زماناً، ورُجِعَ إليه، ورَدَّ، ورُدَّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدّماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها، يقظان النفس دراكاً للمحةِ، وإنْ لَطُفَ شأنها، منتبهاً على الرمزة، وإنْ خفي مكانها، لا كَزّاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرّفاً ذا دربةٍ بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريّضٍ بتلقيح بناتِ الفكر، قد علم كيف يُرَتَّبُ الكلامُ، ويُؤَلَّفُ، وكيف يُنْظَمُ، ويُرْصَفُ، طالما دُفعَ إلى مضايقه، ووقع في مضاحضه ومزالقه»(٢).

(١) هو: أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلاليّ، أحد البلغاء، يضرب به المثل، فيقال: (أبلغ من ابن القرِيّة)، قتله الحجّاج بن يوسف سنة ٨٤هـ.
انظر: وفيات الأعيان ١/ ٢٥٠ ـ ٢٥٥.

(٢) الكشّاف: ١/ ١٥ ـ ١٧.

النظرات

قوله تعالىٰ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة ٦ـ٧].

عبّر عن المؤمنين بجملة : ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ التي جاءت صلةُ موصولِها جملةً فعليةً، ولم يقل : (صراط المنعَمِ عليهم) ؛ لتكون متناسبةً مع قولِه : ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وقولِه : ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ ؛ وإنما جاءت الآية علىٰ ما جاءت عليه لأنّ من شأن التعبير بالاسم الموصول أن يكون معهوداً نُصْبَ العينِ للسامع والقارئ، وههنا دلّ التعبير عن المؤمنين بالاسم الموصول علىٰ علوّ شأنهم وتلألئهم في ظلمات البشر، كأنّهم مَعْهُودُونَ نُصْبَ العين لكلّ سامع[1].

كما أسند الفعل الواقع في صلة الموصول، وهو (أنعم) إلىٰ ضمير ربّ العزّة والجلال، ولذلك فائدة دقيقة هي : أنّ المتأمّل في النظم القرآنيّ العظيم يجد أنّ اللّه سبحانه وتعالىٰ يُفْصِحُ عن فاعل أفعال الرحمة والجود والإحسان، فيبنيها للمعلوم، ولا يبنيها للمجهول، بخلاف أفعال العقوبة والجزاء، فيحذف فاعلها، ويبني الفعل معها للمجهول[2]، وفي الآية التي بين أيدينا أسند الفعل (أَنْعَمَ) إلىٰ ضمير المخاطب العائد إلىٰ اللّه سبحانه وتعالىٰ، وَعَدَلَ عنه في الغضب

---

(١) إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز لبديع الزمان سعيد النورسيّ : ٢٤ .

(٢) انظر : بدائع التفسير لابن القيّم : ١/ ١١٩ .

والضلال، ولهذه الآية نظائرُ كثيرةٌ ، تأمّلْ قول اللّه سبحانه وتعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء ٧٨ـ٨١]، حيث أسند إبراهيم ـ عليه السلام ـ الخلقَ والهدايةَ والإطعامَ والإسقاءَ وغفرانَ الخطايا إلىٰ اللّه تعالىٰ، أمّا المرض فأسنده إلىٰ نفسه، ولم ينسبه إلىٰ اللّه تعالىٰ، فقال: ﴿مَرِضْتُ﴾، ولم يقل: (أمرضني).

وتأمّل قوله تعالىٰ حكايةً عن الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الجن ١٠] ، حيث نسبوا إرادة الرشد إلىٰ اللّه سبحانه وتعالىٰ، وبنوا الفعل مع إرادة الشرّ إلىٰ المجهول، فقالوا : ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ ﴾ .

بل تأمل قوله تعالىٰ: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٠] ، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦] ، فالهداية نسبها إلىٰ المولىٰ جل جلاله، والضلالة جعلها حاقّةً عليهم.

ويمكن أن يكون سبب الاختلاف في السياق أنّه تعالىٰ هو وحده المتفرّد بالإنعام ، كما قال : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣] ، وإنْ نُسِبَتْ نعمةٌ إلىٰ غيره فهي نسبةٌ مجازيّةٌ؛ بكونه طريقاً ومجرًىٰ للنعمة، وأمّا الغضبُ علىٰ أعدائه فلا يختصّ به

تعالىٰ؛ بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه[١].

وتأمّل التعبير الخلاب بـ﴿أَنْعَمْتَ﴾ حيث عبّر عن هدايتهم بالإنعام؛ لأنّ للنعمة لذّةً تميل النفس إليها، وعبّر بالفعل الماضي؛ لأنّ من شأن المنعم الكريم أن لا يستردّ ما ينعم به[٢]، فكأنه أراد أنّهم ملكوا تلك النعمة، وحازوها، ولا سبيل إلىٰ نزعها منهم. والله أعلم.

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة ٧].

وفيها عدة وقفات :

الوقفة الأولى: الواوانِ اللتانِ تسبقانِ حرفَ الجر ﴿عَلَىٰ﴾ يمكنُ أن تكونَ إحداهما عاطفةً، والأخرىٰ استئنافيّةً، ففي قوله : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ إذا جعلتَ الواوَ للعطف يكونُ السمعُ داخلاً في حكمِ الختم عليه، مشتركاً في ذلك مع القلوب، وتكونُ الواوُ حينئذٍ في قوله : ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ استئنافيّةً، فتُخَصِّصُ الأبصارَ بالحكم عليها بالغشاوة.

وذكر أبو جعفرٍ النحّاسُ[٣] أنَّ الأخفشَ سعيدَ بنَ مسعدةَ أجازَ الوقفَ علىٰ قوله : ﴿قُلُوبِهِمْ﴾، فتكونُ الواو الأولىٰ في : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استئنافيّةً، والواو الثانية في : ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ عاطفةً، فيشتركُ السمعُ والأبصارُ في وقوعِ الغشاوةِ عليها.

(١) بدائع التفسير : ١/ ١٢٠ .
(٢) إشارات الإعجاز : ٢٧ .
(٣) القطع والائتناف : ١١٦ .

لكنَّ الصحيحَ الأوّلُ، وهو الوقف على ﴿سَمْعِهِمْ﴾؛ ليكونَ الختمُ على القلوب وعلى السمع، والغشاوةُ على الأبصار؛ لورود آية أخرى خَصَّصْتِ الأبصار بالغشاوة، وأوقعتِ الختم على السمع[1]، قال اللّه تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ٢٣].

ثمّ إنَّ القلوبَ والمسامعَ لـمّا كانت مخفيّةً كان استعمالُ الختمِ لها أولى، والأبصارُ لـمّا كانت بارزةً، وإدراكُها متعلّقٌ بظاهرٍ، كان الغشاءُ لها أليقَ. واللّهُ أعْلَمُ.

الوقفة الثانية: نلحظُ في الآية الكريمة إعادةَ حرف الجر، وهو ﴿عَلَىٰ﴾، بعد واو العطف في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، مع اشتراكهما في الحكم بالختم كما أسلفنا، فلم يقل: (ختم اللّه على قلوبهم وسمعهم)؛ وفي ذلك نكتةٌ بلاغيّةٌ، هي الدلالةُ على تغاير الختمين، فالختم على القلوب يكون بتغطيتها بحيث لا يؤثر فيها الإنذارُ، ولا ينفذ إليها الحقُّ، وأمّا الختمُ على السمع فيكون بسدِّ مواضعه.

وقال أبوجعفر النحاسُّ[2]: «في تعليل إعادة الجار ثلاثةُ أجوبةٍ، منها:

* إعادةُ الجار بمعنى المبالغة في الوعيد.
* والجواب الثاني: أنَّ السمعَ لـمّا كان واحداً، والقلوبُ جماعةٌ

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشيّ: ٢/ ١٦٠.
(٢) القطع والائتناف: ١١٧.

أعيد الحرف .

* والجواب الثالث : أنَّ المعنىٰ : (وختم علىٰ سمعهم)، فَحُذِفَ الفعلُ ، وقام الحرفُ مقامَهُ » .

الوقفة الثالثة: في هذه الآية أُفْرِدَ السمعُ ، وجُمِعَتِ القلوبُ والأبصارُ، ولم يردِ السمعُ في القرآن الكريم مجموعاً إلا في قراءةِ ابن أبي عبلة [(١)] في هذه الآية التي بين أيدينا : (أَسْماعهم)، وقد ذكر هذه القراءة القرطبيُّ[(٢)] والزمخشريُّ[(٣)] وأبو حيّان [(٤)]، وهي شاذّة .

وقد ذكرَ علماءُ اللغة والمفسرون توجيهاتٍ لإفراد السمع ، منها [(٥)] :

* التوجيه الأول : أنّ أصل كلمة (السمع) قبل أن تسمّىٰ بها تلك الحاسّةُ المعروفةُ مصدرٌ للفعل (سَمِعَ)، والمصادرُ والأجناسُ لا تثنّىٰ ولا تجمع ، ما لم تختلف أنواعها كالأكل والضرب والماء والتراب ، فأفردت كلمة (السمع) ههنا نظراً إلىٰ أصلها ، كما تقول : يعجبني حديثُكم وضربُكم ، ومثله قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ [الحجر : ٦٨] ، فلم يقل : ضيوفي .

* التوجيه الثاني : أنّ السمع هنا مصدرٌ مضافٌ إليه جمعٌ

---

(١) هو : إبراهيم بن أبي عبلة شمر بن يقظان بن المرتحل الشاميّ الدمشقيّ، توفي سنة ١٥١هـ على الراجح . ترجمته في : غاية النهاية في طبقات القرّاء : ١/ ١٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١/ ١٩٠ .

(٣) الكشاف : ١/ ١٦٤ .

(٤) البحر المحيط : ١/ ٤٩ .

(٥) المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى لأبي النصر السمرقندي : ١٣١ ـ ١٣٨ .

محذوفٌ، والتقدير: وعلىٰ مواضع سمعهم، أوحواسّ سمعهم.

* التوجيه الثالث: أنّ إضافة السمع إلىٰ ضمير الجمع تغني عن الجمع عند أمن اللبس، كقول المسيّب بن زيد مناة الغنويّ:

لا تُنْكِري القَتْلَ وقد سُبِينا ... في حَلْقِكُمْ عظمٌ وقد شجينا(١)

معناه: في حلوقكم، وكقول علقمة الفحل:

بها جِيَفُ الحَسرى فأمّا عظامُها ... فبِيْضٌ وأمّا جِلْدُها فصليبُ(٢)

أي: جلودها.

* التوجيه الرابع - وهو توجيهٌ متعلّقٌ بالمعنىٰ -: أنّ مدركاتِ السمع شيءٌ واحدٌ، هوالصوتُ، والسمع لا يقبل من الأصوات مهما تعدّدت وتنوعت إلا صوتاً واحداً، أو يلفظها جميعاً إنْ تزاحمتْ عليه، ولم يستطع عزل بعضها عن بعض، أمّا البصرُ فمدركاتُهُ متنوّعةٌ، فهو طريق لكلّ المرئيّات الساكنةِ والمتحرّكة، والجامدةِ والسائلةِ، والصامتةَ والناطقةِ، ويمكن أن يحيطَ بها البصرُ في لحظةٍ واحدةٍ، ويحتفظَ لكلّ منها بصورة غير مختلطة بغيرها، فالرائي يرىٰ بنظرة واحدة أعداداً كثيرة من الناس مختلفي الأشكال والألوان والملابس والهيئات، فالبصر إذن أبصارٌ متعدّدةٌ، ولأجل هذا جاء في القرآن الكريم مجموعاً.

* التوجيه الخامس: أنّ السمعَ حاسّةٌ تحتاج إلىٰ مؤثّر، هو الصوت

(١) شرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ: ١/ ٢١٢.
(٢) ديوان علقمة الفحل: ٤٠.

الذي يطرق الأذن، فلا يكفي وجود الجهاز السمعيّ لحدوث السمع، فإذا لم يكن صوتٌ مسموعٌ لم تعملِ الأذنُ، فالسمعُ متوقفٌ على المؤثِّر، بخلاف البصر الذي يعمل ما دام المبصر يقظاً فاتحاً عينه، فيرى صوراً كثيرةً، ساكنةً كانت أو متحرّكة، قَصَد أصحابُها، أو لم يقصدوا.

الوقفة الرابعة : في هذه الآية الكريمة قدّمَ اللّهُ سبحانه وتعالى السمعَ على البصر، وفي كلّ آية اجتمعا قُدِّمَ السمعُ إلا في قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف : ٢٦].

وسرُّ تقديم السمع على البصر هو ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ كما قال أبو السعود ـ رحمه اللّه ـ : «لأنّ جنايتهم ـ من حيث السمعُ الذي به تُتلقى الأحكامُ الشرعيّةُ، وبه يتحققُ الإنذارُ ـ أعظمُ منها من حيث البصرُ الذي به تشاهدُ الأحوالُ الدالةُ على التوحيد، فبيانُها أحقُّ بالتقديم، وأنسبُ بالمقام . . . ولأنَّ السمعَ شرطُ النبوّةِ، ولذلك ما بعثَ اللّهُ رسولاً أصمَّ، ولأنّ السمع وسيلةٌ إلى استكمالِ العقلِ بالمعارف التي تُتلقف من أصحابها»[(١)]. واللّهُ أعْلَمُ.

وقد استدلّ ابن قتيبة ـ رحمه اللّه ـ على أنّ السمع أفضل من البصر بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(١) تفسير أبي السعود: ١/ ٣٨.

[يونس: ٤٢، ٤٣]، فقال: «دلّ على فضل السمع على البصر حين جعل مع الصمم فُقْدانَ العقلِ، ولم يجعلْ مع العمى إلا فُقْدانَ النظرِ»(١).

ولكن ردّ ابن الأنباريّ على ابن قتيبة، فقال(٢): «هذا غلطٌ، وكيفَ يكون السمع أفضلَ، وبالبصر يكون الإقبالُ والإدبارُ، والقربُ إلى النجاة، والبعدُ من الهلاك، وبه جمالُ الوجه، وبذهابه شينُهُ؟

وفي الحديث: (من أذهبتُ كريمتيه، فَصبَرَ، واحتسبَ، لم أرضَ له ثواباً دون الجنّة)(٣)».

وأجاب ابن الأنباريّ عمّا ذكره ابن قتيبة: «بأنّ الذي نفاه اللّه تعالى مع السمع بمنزلة الذي نفاه عن البصر؛ إذ كأنّه أراد إبصارَ القلوبِ، ولم يُرِدْ إبصارَ العيونِ. والذي يبصره القلب هو الذي يعقله؛ لأنّها نزلتْ في قومٍ من اليهود كانوا يستمعون كلام النبيّ ﷺ، فيقفون على صحّته، ثمّ يكذّبونه، فأنزل اللّه فيه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾، أي: المعرضين، ﴿وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣)﴾.

قال: ولا حجّةَ في تقديم السمع على البصر هنا؛ فقد أُخِّرَ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾

(١) تأويل مشكل القرآن: ٧.

(٢) نقله عنه ابن القيّم في (بدائع الفوائد: ٣/ ١٦٤).

(٣) رواه الإمام أحمد (في المسند: ٣/ ٢٨٣) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، ونصّه: (قال ربكم ـ عزّ وجلّ ـ: مَنْ أذهَبتُ كريمته، ثمّ صبَرَ، واحتسبَ، كان ثوابُهُ الجنّة).

[هود: ٢٤]»[1]. أمّا ابن القيّم ـ رحمه الله ـ فقد نقل حججاً أخرىٰ في تفضيل السمع علىٰ البصر، فقال: «واحتجّ مفضّلو السمع بأنّ الله تعالىٰ يقدّمه حيث وَقَعَ، وبأنّ بالسمع تُنالُ سعادة الدنيا والآخرة؛ فإنّ السعادة بأجمعها في طاعةِ الرسلِ، والإيمانِ بما جاءوا به، وهذا إنّما يُدرَكُ بالسمع، ولهذا في الحديث الذي رواه أحمدُ[2] وغيره من حديث الأسود ابن سريع: (ثلاثةٌ كلُّهم يُدْلي علىٰ الله بحجّته يوم القيامة، فذكر منهم رجلاً أصمَّ يقول: يا ربّ لقد جاء الإسلام وأنا لا أسمعُ شيئاً).

واحتجّوا بأنّ العلومَ الحاصلةَ من السمع أضعافُ العلومِ الحاصلةِ من البصر؛ فإنّ البصر لا يدرك إلا بعض الموجودات المشاهدة بالبصر القريبة، والسمع يدرك الموجودات والمعدومات، والحاضر والغائب، والقريب والبعيد، والواجب والممكن والممتنع، فلا نسبة لإدراك البصر إلىٰ إدراكه.

واحتجّوا بأنّ فَقْدَ السمعِ يُوجِبُ ثَلْمَ القَلبِ واللسانِ، ولهذا كان الأطرش خِلْقةً لا ينطق في الغالب، وأمّا فَقْدُ البصر فربّما كان معيناً علىٰ قوّة إدراك البصيرة وشدّة ذكائها؛ فإنّ نور البصر ينعكس إلىٰ البصيرة باطناً، فيقوىٰ إدراكها، ويعظم، ولهذا تجد كثيراً من العميان أو أكثرهم عندهم من الذكاء الوقّاد والفطنة وضياء الحسّ الباطن ما لا تكاد تجده عند البصير، ولا ريب أنّ سفر البصر في الجهات والأقطار ومباشرته للمبصرات علىٰ اختلافها يوجب تفرّق القلب وتشتيته،

(١) بدائع الفوائد: ٣/ ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) المسند: ٤/ ٢٤.

ولهذا كان الليل أجمعَ للقلب، والخلوةُ أعونَ على إصابة الفكرة، قالوا: فليس نَقصُ فاقدِ السمعِ كَنَقْصِ فاقدِ البصرِ، ولهذا كثيرٌ في العلماء والفضلاء وأئمّة الإسلام مَنْ هو أعمى، ولم يُعْرَفْ فيهم واحدٌ أطرشُ[1]، بل لا يُعْرَفُ في الصحابة أطرشُ» [2].

* * *

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٩].

ثمّ قال: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

في الآية الأولى استعمل المولى ـ عزّ وجلّ ـ النفي بـ﴿ما﴾، فقال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وفي الآية الثانية استعمل النفي بـ﴿لا﴾، فقال: ﴿لاَّ يَشْعُرُونَ﴾، وهناك فرقٌ بين النفي بـ(ما) والنفي بـ(لا)؛ فـ(ما) تنفي الحال[3]، أي: تنفي الفعل الواقع في الزمن الحاضر، و نفي (لا) ممتدٌّ يشمل الحاضر والمستقبل[4]؛ فاستعمال النفي بـ﴿مَا﴾ في المخادعة وعدم الشعور بها من قِبَلِ أصحابها؛ لأنّ المخادعة ليستْ عملاً مستمرّاً

(١) قال الشيخ الموريتاني إبراهيم بن يوسف آل الشيخ سيدي الشنقيطي، في تعليقه على هذا الكتاب: «بل فيهم من عُرِفَ بالأصم، كقالون عيسى بن مينا، أحد الرواة المشهورين، عن نافع المدني الإمام؛ فقدَ كان ملقباً بالأصمّ، وكان -لفرط ذكائه وشدة فطنته- يَعْرِفُ اختلاف حركات القرآن بحركات شفتي القارىء.
وفيهم محمد بن يعقوب الأصم، أحد شيوخ الإمام الحافظ الكبير أبي عبدالله الحاكم، صاحب المستدرك، وجماعة يطول ذكرهم لقبوا بالأصم. ، والله أعلم».

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٧١، وانظر أيضاً: ٣/ ١٦٥.

(٣) الكتاب: ٢/ ٣٠٥.

(٤) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطيّ: ١/ ٢٢٧ـ٢٢٨، أمالي ابن الشجري: ٢/ ٥٣٤.

دون انقطاع، بل هي تحصل بين الفينة والفينة، ولا يمكن تصوّرها؛ لاحتمال أن يكتشف المؤمنون حقيقتها، فلا تكون مجدية ولا نافعة، فناسَبَ التعبيرُ عن ذلك النفي بـ ﴿مَا﴾ التي لنفي الحال.

أمّا الإفساد فهو خصلةُ سوءٍ ملازمةٌ لأصحابها المنافقين، ولذلك تأمّل تعبير اللّه عن هذه الخصلة فيهم إذ استعمل الجملة الاسميّة المؤكّدة بعدد من المؤكدات: ﴿أَلا﴾ و﴿إِنَّهُمْ﴾ و﴿هُمُ﴾، و﴿الْمُفْسِدُونَ﴾، ولكنّهم فقدوا كلّ إحساسٍ أو شعورٍ بحالهم المفسدة، فصار اليأس من استيقاظهم أمراً محتّماً، فناسب التعبير عن ذلك النفي بـ ﴿لا﴾.

وتأمّل مرةً أخرىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ⦗١١⦘ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ⦗١٢⦘﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، «فهذه مناظرةٌ جَرَتْ بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون: ﴿لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾، فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ⦗١١⦘﴾، فكأنّ المناظرةَ انقطعتْ بين الفريقين، ومَنَعَ المنافقون ما ادّعىٰ عليهم أهلُ الإيمان من كونهم مفسدين، وإنّ ما نسبوهم إليه إنّما هو صلاحٌ لا فسادٌ.

فَحكَمَ العزيزُ الحكيمُ بين الفريقين بأنْ أسْجَلَ علىٰ المنافقين أربعَ إسجالاتٍ:

أحدها: تكذيبهم.

والثاني: الإخبار بأنّهم مفسدون.

والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

والرابع: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنّه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين.

وتأمّلْ كيف نفىٰ الشعور عنهم في هذا الموضع، ثمّ نفىٰ عنهم العلم في قولهم: ﴿**أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**﴾ [البقرة: ١٣]، فقال لهم: ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ**﴾، فنفىٰ علمَهم بسفههم، وشعورَهم بفسادهم، وهذا أبلغُ ما يكون من الذمّ والتجهيل، أن يكون الرجلُ مُفْسِداً، ولا شعورَ له بفساده البتةَ، مع أنّ أثرَ فساده مشهورٌ في الخارج، مرئيٌّ لعباد اللّه، وهو لا يشعرُ به، وهذا يدلُّ علىٰ استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، وكذلك كونه سفيهاً، والسفهُ غايةُ الجهلِ، وهو مركّبٌ من عدم العلم بما يُصْلِحُ معاشَهُ ومعادَهُ، وإرادتُهُ بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة، وهو لا يعلم بحاله، كان من أشقىٰ النوع الإنسانيّ، فَنَفْيُ العلمِ عنه بالسفه الذي هو متضمّنٌ لإثبات جهله، وَنَفْيُ الشعورِ عنه بالفساد الواقع منه متضمّنٌ لفساد آلاتِ إدراكه، فتضمّنتْ الآيتان الإسجال عليهم بالجهل، وفساد آلات الإدراك، بحيث يعتقدون الفسادَ صلاحاً، والشرَّ خيراً»(١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾**﴾ [البقرة: ١٤].

إن النظمَ القرآنيَّ الفريدَ كانَ في غايةِ الإبداعِ وهو يزاوجُ بين الجملِ

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيّم: ٤/ ١٣٠ ـ ١٣١.

الاسميّة والجملِ الفعليّةِ، ويكونُ التعبيرُ بإحداهما في سياقٍ لا تنفعُ فيه الأخرىٰ، فالاسمُ يدلُّ علىٰ الحدثِ أو الحقيقة غيرَ مقرونٍ بزمان، أمّا الفعلُ فيدلُّ علىٰ الحدث أو الحقيقةِ مقروناً بزمان، وكلُّ ما كانَ زمانيّاً هو متغيِّرٌ، والتغيّرُ يشعرُ بالتجدّدِ والحدوثِ، ولذلك كانتِ الجملةُ الفعليّةُ تدلُّ علىٰ التجدّدِ والحدوثِ، أمّا الجملةُ الاسميّةُ فتدلُ علىٰ الثبوتِ والدوامِ.

والمتأمّلُ لخطابَي المنافقين في هذه الآية يجدُ أنّهم نوّعوا خطابَهم، فخاطبوا المؤمنين بقولهم: ﴿آمنَّا﴾، وهي جملةٌ فعليّةٌ تدلُّ علىٰ التجدّدِ والحدوثِ؛ وسبب ذلك ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ أنّهم يعلمون أنَّ المؤمنين المُخاطَبِينَ بهذا الخطاب ينكرون دعواهُم التزامَ الإيمانِ، ولا يُقرّون زعمَهم الانخراطَ في زمرة المؤمنين؛ لما عرفوه عنهم من النفاق ومخالفةِ أوامرِ اللّهِ ورسوله ﷺ، ونواهيهما، ولذلك أرادوا بخطابهم هذا وباستعمالهم الجملةَ الفعليّةَ، أرادوا الدَلالةَ علىٰ حدوثِ الإيمان في قلوبهم، والإيماءَ إلىٰ تجدّده فيها، والإشعارَ بتحوّلِهم عمّا كان المؤمنون يعرفونه فيهم من الكفرِ والنفاقِ.

وأمّا حين خاطبوا إخوانَهم الكفارَ واليهودَ فقد خاطبوهم بقولِهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وهي جملةٌ اسميّةٌ تدلُّ علىٰ الثبوتِ والدوامِ علىٰ كفرهم؛ للدلالة والتأكيد علىٰ أَنَّ إظهارهم الإيمانَ أمامَ المؤمنين إنّما كان للتعميةِ والخداعِ، وليس إيماناً حقيقيّاً، ولذلك أكّدوا خطابهم لهم بـ ﴿إنّ﴾ وبالجملة الاسميّة، فالتعبيرُ بالجملة الاسميّة نوعٌ من أنواعِ التأكيد.

وإذا تأمّلنا الآيةَ مرةً أخرىٰ نجدُ أنَّ خطابهم للمؤمنين وَرَدَ غيرَ مؤكَّدٍ بمؤكّـدات، مع أنَّ المؤمنين يَشُكُّون في إيمانهم، ونجـدُ أنَّ خطابَهم لإخوانِهم الكافرين مؤكّدٌ بمؤكّدين، هما: الجملةُ الاسميّةُ و ﴿إنَّ﴾، مع أنَّ ظاهرَ الحالِ يدلُّ علىٰ أنَّ إخوانَهم الكفارَ لا يَشكُّون في بقائهم علىٰ دينهم، وكانَ مقتضىٰ الحالِ يقتضي بأنْ يعكسوا في كلامِهم، فيؤكّدوا خطابَهم للمؤمنين، ولا يؤكّدوا خطابَهم لقومهم، فما السرُّ فيما جرىٰ عليه الكلامُ في الآية؟.

الجوابُ عن ذلك[1]: أنّه جرىٰ «علىٰ خلافِ مقتضىٰ الظاهرِ لمراعاةِ ما هو أجدرُ بعنايةِ البليغِ من مقتضىٰ الظاهرِ؛ فخُلوُّ خطابِهم مع المؤمنين عمّا يفيدُ تأكيدَ الخبرِ؛ لأنّهم لا يريدون أنْ يَعْرِضوا أنفسَهم في مَعْرضِ مَنْ يتطرَّقُ ساحتَه الشكُّ في صِدْقِه؛ لأنّهم إذا فعلوا ذلك فقد أيقظوهم إلىٰ الشكِّ، وذلك من إتقانِ نفاقِهم، علىٰ أنّه قد يكونُ المؤمنون أخلياءَ الذهنِ من الشكِّ في المنافقين؛ لعدمِ تعيُّنِهم عندهم، فيكونُ تجريدُ الخبرِ من المؤكّدات مقتضىٰ الظاهر.

وأمّا قولُهم لقومهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بالتأكيد فذلك لأنّه لمّا بدا من إبداعِهم في النفاقِ عندَ لقاءِ المسلمين ما يوجبُ شكَّ كبرائِهم في البقاء علىٰ الكفرِ، وتَطْرُقُ به التهمَةُ أبوابَ قلوبهم احتاجوا إلىٰ تأكيدِ ما يدلُّ علىٰ أنّهم باقون علىٰ دينهم». كذا قالَ ابنُ عاشورٍ في تفسيره[2]، واللّهُ أعْلَمُ.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد: ١/ ٢٧٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٢٩١.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

في هاتين الآيتين عدة وقفات:

الوقفة الأولى: قال ابن كيسان: «﴿استوقد﴾ بمعنىٰ (أوقد)، وقد يجوز أن يكون استوقدها من غيره، أي: طلبها من غيره»(١).

والصحيح أن الهمزة والسين والتاء في قوله: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ تدلُّ علىٰ الطلب، وهي ههنا توحي وتشعر بما تَكَبَّدَهُ مُوقِدُ النّارِ من مشقَّةٍ ونَصَبٍ في سبيل إشعالها، وتنبئُ عن تعاظُمِ تلهُّفِهِ علىٰ ذلك؛ لتنيرَ النارُ له غياهب الظلمة المُدْلَهِمَّة، وتقشعَ من طريقه الحيرةَ والوحشةَ، فحين يفقدها الموقدُ يفقدُ عزيزاً، وفَقْدُ المتعوبِ عليه أشدُّ وأقسىٰ علىٰ القلب من فَقْدِ ما نِيْلَ بيُسْرٍ وسهولةٍ، ودونَ نصبٍ ولا كَبَدٍ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ـ٦٥]، فقال: ﴿لَجعلناهُ﴾ مؤكّداً باللام مع الزرع؛ لأنّ فَقْدَهُ فَقْدُ متعوبٍ عليه، ثمّ قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ـ٧٠]، فقال مع الماء: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ غيرَ مؤكدٍ؛ لأنّ فَقْدَهُ فَقْدُ غيرِ متعوبٍ عليه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس: ١/ ١٠١.

وحين يقرأ قارئٌ هاتين الآيتين ـ أعني آيتي سورة البقرة ـ بتدبُّرٍ وتمعُّنٍ يتصور مدى ظلمة الليل البهيم، الذي يبدو كما قال الشاعر:

وليلٍ بهيمٍ كلّما قلتُ غوّرتْ كواكبُهُ عادتْ فما تتزيَّلُ

به الركبُ إمّا اومضَ البرقُ يمّموا وإنْ لم يَلُحْ فالقومُ بالسيرِ جُهَّلُ(١)

وترتسمُ في مخيَّلته صورةُ مستوقدِ النّارِ، وهو يلهثُ بغيةَ جمعِ الحطبِ، وهو بلا شكٍّ حاطبُ ليلٍ لا يفرّق بين رَطْبٍ ويابسٍ، وجاءت محصّلتُهُ بعد جهدٍ جهيدٍ حطباً رطباً، بطيءَ الاشتعالِ، كثيرَ الدخانِ، لا ينفكُّ باغي النّار من مثله ينفخُ في ناره، كنافخ الكيرِ يَشْرَقُ بدخانه، وحيث كان مضطرّاً إليها، غيرَ مستغنٍ عنها، لم يَمَلَّ، ولم يَكِلَّ، حتّى شبَّ أوارُها، وملأ ضوءُها الآفاقَ، ولكنْ فجأةً ذهب النورُ، فيا لَخيبةَ التعبِ، فهو كصاحبِ الجنّةِ المحترقة: ﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾**﴾ [الكهف: ٤٢]، وهكذا كانت لفظة ﴿**اسْتَوْقَدَ**﴾ أبلغ في هذا الموضع من (أوقد) بما دلّتْ عليه الهمزة والسين والتاء من طلبٍ ومشقّةٍ.

الوقفة الثانية: في قوله: ﴿**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ**﴾ عبّر عن مكان الإضاءة بقوله: ﴿**مَا حَوْلَهُ**﴾ حيث كان الضوءُ لما حوله مجاوراً له، وليس منبعثاً منه، ولا مضيئاً له، «ولو اتّصل ضوءها به، ولابَسَهُ، لم يذهب، ولكنّه كان ضوءَ مجاورةٍ، لا ملابسةٍ ومخالطةٍ، وكان الضوء عارضاً، والظلمةُ أصليّةً، فرجع الضوء إلى معدنه. وبقيت الظلمة في

---

(١) كتاب الجمان في تشبيهات القرآن: ٤٣.

معدنها، فرجع كلٌّ منهما إلىٰ أصله اللائق به حجّةً من الله قائمةً، وحكمةً بالغةً تَعرَّفَ بها إلىٰ أولي الألباب من عباده» (١).

الوقفة الثالثة: قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فيه نكتتان بليغتان:

* إحداهما: أنّه تعالىٰ عبّرَ عن انقطاع النور عنهم بذهاب الله به، ولم يقل: (نقطع نورهم)، ولا: (أخذ اللّهُ نورهم)، ولا: (أذهب اللّهُ نورَهم)، ولم يُسنِدِ الذهابَ إلىٰ النور نفسه، فلم يقل: (ذهب نورُهم)، بل عبّر عن ذلك بما يتضمّنُ انقطاعَ النور وذهابَهُ بعد ذهابِ مسبّبِهِ به، وهو المولىٰ ـ عزّ وجلّ ـ، فانقطعتْ عنهم معيّةُ اللّهِ تعالىٰ، فذهابُ اللّهِ بذلك النورِ هو انقطاعُ المعيّةِ التي خصَّ بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين، فلم يبقَ ـ أي الله ـ عندهم بعد ذهاب نورهم، ولا معهم، فليس لهم نصيبٌ مِنْ قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولا مِنْ: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]» (٢).

وقال ابن القيّم ـ عليه رحمة اللّه ـ: «ولم يقل: (أذهبَ اللّهُ نورَهم)؛ لأنّ كلَّ مَنْ ذَهَبَ بشيء فقد أذْهَبَهُ، وليس كلُّ مَنْ أذْهَبَ شيئاً ذَهَبَ به؛ لأنّ الذهاب بالشيء هو استصحابٌ له ومضيٌّ به، وفي ذلك نوعُ احتيازٍ للمذهوب به، وإمساكٌ له عن الرجوع إلىٰ حالته، والعود إلىٰ مكانه، وليس كذلك الإذهاب للشيء؛ لزوال معنىٰ الاحتياز، وهذا كلامٌ دقيقٌ يحتاج إلىٰ زيادة تأمّل، وإنعام نظرٍ، فافهمه» (٣).

---

(١) التفسير القيّم لابن القيّم: ١١٦.
(٢) المصدر السابق: ١١٥.
(٣) بدائع التفسير: ١/ ٢٧١.

* والنكتة الأخرى: أنّ الله تعالى قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: (بنارهم)، فيكون ذلك اتّساقاً مع أوّل الآية ﴿اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾، ولا: (بضوئهم) توافقاً مع قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾؛ وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ النار تشتمل على ثلاثة أشياء، هي: الضوء، والنور، والحرارة، فالضوءُ زيادةٌ في النور، فذهابه لا يعني ذهابَ أصلِه، وهو النور، لأنّ النور إشراقٌ وضياءٌ؛ لكنّ الذهابَ بالنور ذهابٌ بالضياء؛ «لأنّ الضوء هو زيادة في النور، فلو قال: (ذهب الله بضوئهم) لأوهمَ الذهابَ بالزيادة فقط دون الأصل، فلمّا كان النورُ أصلَ الضوءِ كان الذهابُ به ذهاباً بالشيء وزيادتِه، وأيضاً فإنّه أبلغُ في النفي عنهم، وأنّهم من أهل الظلمات الذين لا نورَ لهم، وأيضاً فإنّ الله تعالى سَمَّى كتابَهُ نوراً[١]، ورسولَهُ نوراً[٢]، ودينَهُ نوراً[٣]، ومن أسمائه النورُ[٤]، والصلاةُ نورٌ[٥]، فذهابُهُ ـ سبحانه ـ بنورهم ذهابٌ بهذا كلِّه»[٦].

والحرارةُ والإحراقُ والأذى مّما تشتملُ عليه النارُ، وبقاؤها مرادٌ

---

(١) قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ..﴾ [التغابن: ٨].
(٢) قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].
(٣) قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ..﴾ [الصف: ٨].
(٤) قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ..﴾ [النور: ٣٥].
(٥) روى مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٣) عن أبي مالك الأشقري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها).
(٦) التفسير القيّم: ١١٦.

هنا؛ لأنّ من أوجه الشبه بين المنافقين ومستوقدي النار ذهابَ ما ينفعهم من البهاء والإشراق، وبقاءَ ما يضرّهم من الاصطلاء بحرارتها وإحراقها، ولذلك لم يقل: (بنارهم)؛ لأنّ اللّه تعالىٰ شبَّهَ «أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا ناراً لتضيء لهم، وينتفعوا بها، فلمّا أضاءت لهم النار، فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم وما يضرّهم، وأبصروا الطريق بعد أنْ كانوا حيارىٰ تائهين، فهم كقومٍ سفرٍ ضلّوا عن الطريق، فأوقدوا النار، تُضيء لهم الطريق، فلمّا أضاءت لهم، فأبصروا وعرفوا طفئت عنهم تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون»[1]، فالمنافقون اكتسبوا نوراً ظاهريّاً بما عرفوا من الحقّ؛ بمخالطتهم المؤمنين، وصلاتهم معهم، وصيامهم معهم، وسماعهم القرآن، لكنّ ذاك النورَ ذهب بعد أن تلطّخت قلوبهم بوحل النفاق ودنسه، فبقيت في قلوبهم حرارةُ الكفر والنفاق والشكوك والشبهات، تحرقها، وتغلي كالمِرْجَلِ فيها، وكذلك ستكون حالهم في الآخرة حيث يرزقون نوراً ظاهريّاً، فإذا وقفوا علىٰ الصراط، وكانوا أحْوَجَ ما يكونون إليه، أُطفئت أنوارهم، وبقوا في الظلمة علىٰ الجسر حتّىٰ تَخْطَفَهُمْ كلاليبُ النارِ.

وهناك وجه شبه آخر بين المنافق ومستوقد النّار، هو أنّ المستوقد حين أوقدها كان في ليلةٍ مظلمةٍ، بمفازةٍ موحشةٍ، فاستضاء بها ما حوله، واتّقىٰ ما يخافُ، وأمِنَ، فبينما هو كذلك إذ طفئتْ ناره، فبقي مظلماً خائفاً متحيّراً، وكذلك المنافق إذا أظْهَرَ كلمةَ الإيمانِ استنارَ بها،

(١) التفسير القيّم: ١١٤ ـ ١١٥ .

واعتزّ بعزّها، وأمِنَ على نفسه وماله وولده، فإذا مات عاد إلى الخوف، وبقي في العذاب والنقمة(١) .

الوقفة الرابعة : قوله : ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ جمع المولى عزّ وجلّ (الظلمة) في مقابل إفراد (النور)؛ لأنّ الحقّ واحدٌ، «وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما شَرَعَهُ على لسان رسوله ﷺ، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عمّا بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحقّ، بخلاف طرق الباطل فإنّها متعدّدة متشعّبة ......»(٢).

* * *

قوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

تأمّلوا ـ رحمني الله وإياكم ـ الآيتين تجدوا أنّ النار في الآية الأولى وردتْ مُعَرَّفَةً، وفي الثانية جاءتْ مُنَكَّرَةً، ولتعريفها في الأولى، وتنكيرها في الثانية، مقصدٌ عظيمٌ؛ فالخطاب في الآية الأولى للكفّار

---

(١) بدائع التفسير : ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٢) التفسير القيّم: ١١٦ ـ ١١٧ .

والمنافقين، وهم خالدون مخلّدون فيها، محيطةٌ بهم من كلِّ جانبٍ، بل إنّ المنافقين في الدرك الأسفل منها، فتعريف النار فيها للدلالة على الاستغراق.

أمّا الآية الثانية فالخطاب فيها للمؤمنين العصاة، فتعذيبهم يكون في جزءٍ يسيرٍ من أعلاها، فتنكيرها لتقليلها.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

إنّ المتأمل لكتاب الله تعالى يجد أنّ كلمة (الزوج) مراداً بها (الزوجة) لم ترد إلا في حقّ المؤمنين، أي: حين يكون الزوجان مؤمنين، أمّا إذا كان أحدُهما غيرَ مؤمنٍ فتستعمل لفظة (امرأة)، كامرأة فرعون، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة أبي لهب.

وللعلماء في ذلك تعليلات:

منها ما قاله أبو القاسم السهيلي(١) من أنّ ذلك التعبير هو بسبب كونهنّ لسنَ أزواجاً لهم في الآخرة، وإنّما زواجهم في الدنيا فقط، ولذلك ناسب عدمُ ذِكْرِ الزوجيّة، وأبدلَ عنه بما يدلّ على الأنوثة فقط دون لفظ المشاكلة والمشابهة، وهو لفظ (امرأة).

ومنها أيضاً قول السهيلي(٢): «ولأنّ التزويجَ حليةٌ شرعيّةٌ، وهو من أمر الدين، فجرّدها ـ أي امرأة أبي لهب ـ من هذه الصفة كما جرّد

(١) الروض الأنف: ٢/ ١١٣.
(٢) المصدر السابق.

امرأة نوح وامرأة لوط ، فلم يقل : (زوج نوح)» .

وأقوىٰ منه تعليلُ الإمام ابن القيّم ـ رحمه الله ـ بأنّ هذا اللفظ ـ وهو الزوج ـ مشعرٌ بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، وهذا غير متأتٍ لغير المؤمنين، حيث قطع الله سبحانه وتعالىٰ المشابهة والمشاكلة بين الكفّار والمؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿**لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾ [الحشر: ٢٠] . . وقطع ـ سبحانه ـ المقارنة بينهما في أحكام الدنيا، فلا يتوارثان، ولا يتناكحان، ولا يتولّىٰ أحدُهما صاحبَهُ، فكما انقطعتِ الصلةُ بينهما في المعنىٰ انقطعتْ في الاسم، ولذلك ورد في آية المواريث لفظ (الزوج) دون (المرأة) إيذاناً بأنّ هذا التوارث إنّما وقع بالزوجيّة المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تَشاكُلَ بينهما، ولا تَناسُبَ، فلا يقع بينهما التوارثُ(١) .

ويرىٰ السهيليّ أنّ هذه القاعدةَ لم تنتقضْ إلا في قول زكريّا ـ عليه السلام ـ : ﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ [مريم: ٨]، وقوله تعالىٰ عن زوج إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ**﴾ [الذاريات: ٢٩]، وقد علّل السهيليّ ذلك بقوله: «إلا أنْ يكونَ مساقُ الكلامِ في ذِكْرِ الولادة والحمل ونحو ذلك، فيكونَ حينئذٍ لفظ (المرأة) لائقاً بذلك الموطن، كقوله تعالىٰ: ﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ [مريم: ٨]، ﴿**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ**﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ لأنّ الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع، لا من حيث كانت زوجاً»(٢) .

---

(١) التفسير القيّم: ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٢) الروض الأنف: ٢/ ١١٣ .

وأرى أنّ هذا التعليل ضعيفٌ؛ لأنّ الحملَ والوضعَ من مقتضيات الزوجيّة، فعلى هذا التعليل استعمالُ لفظِ (الزوجة) أولى، لكنْ بعد أنْ تأمّلتُ أنّه لم يرد هذا اللفظ في حقّ المؤمنين إلا مع امرأتين ما تلدان؛ لكون إحداهما عاقراً، والأخرى كبيرةً آيسةً، أرى ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ أنّ السبب في استعمال لفظ (المرأة) من قِبَلِ الزوجين في هاتين الآيتين هو انتفاءُ مستلزماتِ الزوجيّة بكبر السنّ وانقطاع الولادة.

ولا يُعْتَرَضُ على هذا بقول اللّه تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]؛ بكون عمران وزوجه مؤمنين، وبكون زوجه حاملاً؛ إذ سبب استعمال ﴿امْرَأَتُ﴾ ههنا أنّها أيضاً كانت عاقراً لا تلد، كما قال عكرمة، فقد أمسك اللّه عنها الولد حتّى أسنّتْ وشاختْ، كما أنّ عمران ـ عليه السلام ـ كان قد مات قبل تبيّنِ حمل زوجه وقبل ولادتها، بدليل قول امرأته: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ إذْ ليس من العادة أن تُسَمِّيَ المرأةُ مولودَها، وهناك دليلٌ آخرُ على موتِه قبلاً، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]، ولا يُكْفَلُ إلا اليتيم(١).

فائدة:

هل يقال: زوجٌ، وزوجة؟

نقل ابن جني(٢) عن أبي حاتم السجستاني(٣) قوله:

---

(١) تفسير الطبري: ٣/ ٢٣٥، تفسير الرازيّ: ٨/ ٢٢، ٢٤.
(٢) ورواها المرزياني من طريق آخر في: الموشح: ٢٨٣-٢٨٤.
(٣) الخصائص: ٣/ ٢٩٥.

«كان الأصمعي ينكر (زوجة)، ويقول: إنما هي (زوجٌ)، ويحتج بقول الله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] قال: فأنشدته قول ذي الرمة[١]:

أذو زوجةٍ في المصر أم ذو خصومةٍ أراك لها بالبصرة العام ثاويا

فقال: ذو الرمة طالما أكل المالح والبقل في حوانيت البقالين!!!.

قال: وقد قرأنا عليه من قبل لأفصح الناس، فلم ينكره:

فبكي بناتي شجوَهُنَّ وزوجتي والطامعون إليّ ثم تصدّعوا[٢]

وقال آخر:

من منزلي قد أخرجتني زوجتي
تَهِرُّ في وجهي هريرَ الكلبةِ»[٣]

والصحيح جوازه، قال الفراء[٤]: «وأهل الحجاز يقولون للمرأة: (زوج)، وسائر العرب يقولون: (زوجة)».

قال الفرزدق:

تقولُ وقد ضمّتْ بعشرين حَوْلَهُ ألا ليت أني زوجةٌ لابن غالبِ[٥]

وقال:

ولتكفينَّك فَقْدَ زوجتك التي هلكتْ مُوَقَّعةُ الظهورِ قصارُ[٦]

---

(١) ديوانه: ٢/ ١٣١١.
(٢) ديوان عبده بن الطبيب: ٥٠.
(٣) المخصص: ١٧/ ٢٤.
(٤) المذكر والمؤنث: ١٠٨.
(٥) ديوانه: ٦٣.
(٦) ديوانه: ٣٢٥.

وقال :

فـإنّ امــرأ يسـعـى يُخَـبِّبُ زوجـتـي ... كسـاعٍ إلى أسْدِ الشـرى يسْتبيلُها[١]

وقال :

آدمَ قــد أخــرجـتَــهُ وهو ســاكنٌ ... وزوجتَـهُ من خـيــرِ دارِ مُقـــامِ[٢]

وقال الأخطل :

زوجــةُ أشــمطَ مــرهوبٍ بوادرُهُ ... قد كان في رأسه التخويصُ والنزَعُ[٣]

وقال أيضاً :

على زوجـــهـــا الماضي تَنوح وإنني ... على زوجتي الأخرى كذاك أنوحُ[٤]

وقالت حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري :

ترى زوجــةَ الشــيـخِ مـغــمـومــةً ... وتُمـسـي لـصـحـبـتـه قـاليَــهْ[٥]

وقال الشماخ بن ضرار الذبياني :

قـد أصبـحتْ زوجـةُ شـمـاخٍ بِشَـرّ[٦]

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

جـدّي وجــدُّ رسـول الله مـتــحـدٌ ... وفـاطـمُ زوجـتي لا قــولَ ذي فندِ[٧]

(١) ديوانه : ٤١٧ .
(٢) ديوانه : ٥٤١ .
(٣) شعره : ١/ ٣٦٠ .
(٤) البيت معزو إليه في : أدب الكاتب ١/ ٣٢٧، والأغاني : ٨/ ٣٠٩، وليس في ديوانه .
(٥) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب : ١١٧ .
(٦) ديوانه : ٤٣٧ .
(٧) ديوانه : ٦٠

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ٦].

ففي الآية الأولى قال: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾، وفي الثانية قال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بالعطف بالواو، وفائدة الواو أنّ القول في الآية الثانية لموسى عليه الصلاة والسلام، وهو في مقام تعداد أنواع امتحانات بني إسرائيل، وتذكيرهم بنِعَمِ اللّه عليهم، ودعوتهم لشكرها، فَذَكَرَ منها أنّ آل فرعون ساموهم سوء العذاب بتكليفهم إيّاهم بالأعمال الشاقّة، حيث جعلوا منهم عمالاً ينحتون السواري من الجبال حتى قرحت أعناقهم وأيديهم وظهورهم من قَطْعِ الحجارة ونقلها وبنائها، فنجّاهم اللّه تعالى من هذا العذاب السيّء، ومن تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، ولذلك أتى بالعاطف؛ ليؤذن بأنّ إسامَتَهُمُ العذابَ مغايرٌ لتذبيح الأبناء وسبي النساء، وهو ما كانوا عليه من التسخير (١).

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٢٠.

أمّا في آية سورة البقرة فالخطاب من اللّه سبحانه وتعالى، فأبدل ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فوقع تفسيراً وتوضيحاً له (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾ [الأعراف: ١٦١، ١٦٢].

الموازنة بين آيتي سورة البقرة وآيتي سورة الأعراف تبرز النظرات التالية(٢):

١ ـ عَطَفَ ﴿ كُلُوا ﴾ بالفاء في سورة البقرة، وبالواو في سورة الأعراف؛ لأنّه تعالى أمرَهُمْ في سورة (البقرة) بالدخول، وهو سريع

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ١/ ١٩٧ - ٢٠٢، كشف المعاني في المتشابه من المثاني: ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) ملاك التأويل: ١/ ٢٠٣، كشف المعاني: ٩٦-٩٨ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للأنصاريّ: ١٢-١٣.

الانقضاء، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، ثمّ إنّه لا يَحْسُنُ الأكلُ مع الدخولِ، ولا قبله، بل لا يكون إلا بعده؛ لسرعة انقضاء الدخول، ولذلك ناسَبَهُ استعمالُ حرفِ العطفِ (الفاء)؛ لدلالتها على التعقيب من غير مهلة.

أمّا في سورة الأعراف فأمَرَهُمْ بالسُّكنىٰ - وهي الاستقرار -، وهي ممتدّة، فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، ممّا يمكن أن يكون معها الأكل، ولذلك استعمل (الواو)، فكأنّ الأمر في سورة (البقرة) مرادٌ به الإسراع بالدخول والأكل والسجود والقول والعودة مرّة أخرىٰ، أمّا في سورة (الأعراف) فالمراد الاستقرار والتمتّع بالأكل.

٢ - الإتيان بقوله: ﴿رَغَدًا﴾ في سورة (البقرة)، وحذفها في سورة (الأعراف) له مقصدٌ بليغٌ؛ فإنّه - واللّٰهُ أعْلَمُ - لـمّا أسْنَدَ القولَ إليه تعالىٰ، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، كان من المناسب أن يذكر معه ما يدلُّ علىٰ إفاضة النعم، وما يدل علىٰ كرم الكريم، فقال: ﴿رَغَدًا﴾.

أمّا في سورة الأعراف فإنّه لـمّا بنىٰ الفعل للمجهول، فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾، لم يذكر معه ما ذكر من الإكرام الوافر؛ لأنّه لم يُسْنَدْ إلىٰ اللّٰه تعالىٰ.

وجعل ابن الزبير الغرناطيّ سببَ عدم ذكر ﴿رَغَدًا﴾ في سورة الأعراف أنّ في فحوىٰ الآية ما يدلّ علىٰ معنىٰ الرغد، فلم تكن هناك حاجةٌ للنصّ عليه، قال: «إنّ مفهوم السكنىٰ - وهو الملازمة والإقامة -

مع الأمر بالأكل حيث شاؤوا، مع انضمام معنى الامتنان والإنعام المقصود في الآية، كلّ ذلك مشعرٌ ومعرِّفٌ بتمادي الأكل، وقوّة السياق مانعةٌ من التحجير والاقتصار، فحصل معنى الرغد، فوقع الاكتفاء بهذا المفهوم الحاصل قطعاً من سياق آية الأعراف»[١].

٣ ـ قال في سورة البقرة: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ عاطفاً بالواو؛ ليكون اتصاله بما قبله أقوى؛ بسبب إسناده القول إلى اللّه تعالى في أوّلها: ﴿وإِذْ قُلْنَا﴾.

أمّا في سورة الأعراف فلمّا لم يكن القول مسنداً إلى اللّه تعالى ناسب حذف الواو؛ ليكون الكلام استئنافاً.

٤ ـ قال اللّه تعالى في سورة (البقرة): ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وزاد في سورة (الأعراف): ﴿مِنْهُمْ﴾، وهي مرادة في سورة البقرة؛ لأنّ الذين ظلموا هم من المخاطبين بالأمر: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وهم الذين بدّلوا، وغيّروا في القول.

أمّا ذكرها في سورة (الأعراف) فلأنّ أوّل قصة أصحاب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في السورة نفسها مبنيٌّ على التخصيص؛ إذ قال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، فذكر أنّ منهم مَنْ يفعلُ ذلك، ثمّ عَدَّدَ صنوفَ إنعامه عليهم، وأوامرَهُ لهم، فلمّا انتهت قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ

---

(١) ملاك التأويل: ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

لَهُمْ﴾، فأتىٰ في آخر ما حكىٰ عنهم من مقابلة نعمة اللّه عليهم بتبديلهم ما قدّم به القول إليهم بلفظ (مِنْ) التي هي للتخصيص والتمييز، بناءً علىٰ أوّل القصة؛ ليكون آخرها متوافقاً مع أوّلها.

٥ ـ في سورة (البقرة) قال: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وفي سورة (الأعراف) قال: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔاتِكُمْ﴾، ومن المعروف أنّ (خطايا) جمعُ تكسيرٍ يدلُّ علىٰ الكثرة، وأنّ (خطيئات) ممّا جُمع بالألف والتاء، والجمع بالألف والتاء إذا لم تدخل عليه (أل) يدلّ علىٰ القلّة.

وتعليل هذا الاختلاف هو ما قلناه آنفاً: إنّه لمّا كان إسناد القول في سورة (البقرة) إلىٰ اللّه تعالىٰ ناسَبَ تكثيرُ النعمِ والفضائلِ، فأتىٰ بما يدلّ علىٰ الكثير من الجم، فـ(فَعالىٰ) من أوزان جمع الكثرة، وذلك ليدلّ علىٰ كرمه وجوده وعظيم امتنانه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، فكأنّه قال: نغفر لكم خطاياكم كلَّها جمعاء، وعكسه في سورة الأعراف.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: ١٦٠].

ففي الآية الأولى قال: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾، وفي الثانية قال: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾[١]، والانفجارُ أبلغُ؛ لأنّه يعني انصباب الماء بكثرة، أمّا الانبجاس فهو ظهور الماء ولو كان قليلاً، وهو يسبق الانفجار؛ لأنّه أوّله، وقد أتى بالانفجار في سورة البقرة؛ لأنّه استجابةٌ لاستسقاء موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾، ولذلك أمرهم في آية سورة البقرة بالأكل والشرب، وأتى بالانبجاس في سورة الأعراف؛ لأنّه استجابةٌ لطلب بني إسرائيل استسقاء موسى ـ عليه السلام ـ لهم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾، ولذلك أمرهم بالأكل فقط. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ [البقرة: ٧٤].

أتى بالتفضيل من القسوة بوساطة ﴿أَشَدُّ﴾ مع أنّ الفعل: (قسا) ممّا يؤتى بـ(أفْعَلِ) التفضيلِ منه مباشرةً، فيقال: (أقسى)، والسبب في ذلك ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ أنّ الإتيان بـ﴿أَشَدّ﴾ أبينُ، وأدلُّ على فرط القسوة، ولأنّه لا يريد معنى (الأقسى)، ولكنْ قَصَدَ وَصْفَ القسوةِ بالشدّة، كأنّه قيل: اشتدّتْ قسوةُ الحجارةِ، وقلوبُهُمْ أشدُّ قسوةً، كذا قال الزمخشريّ في (الكشّاف)، وقال ابن المنيّر[٢]: «إنّ سياق هذه

(١) ملاك التأويل: ١/ ٢١٢ـ٢١٣، كشف المعاني: ٩٨ـ٩٩، فتح الرحمن: ١٤.
(٢) الكشّاف: ١/ ٢٩٠.

الأقاصيص قُصِدَ فيه الإسهابُ لزيادة التقريع . . . .

ولاشك في أنّ قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أَدْخَلُ في الإسهاب من قول القائل: أو أقسىٰ» .

فإن قيل: علامَ رُفِعَتْ كلمةُ ﴿أَشَدُّ﴾ ، وقد وَقَعَتْ بعد (أو) العاطفة؟

فأقول: إنّ رفعها إمّا بكونها معطوفةً علىٰ الكاف من قوله: ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ ، فالكاف اسم بمعنىٰ (مِثْل) واقع خبراً، وإمّا أن تكونَ ﴿أَشَدُّ﴾ معطوفةً علىٰ محلّ الجارّ والمجرور: (كَالْحِجَارَةِ) إذا جعلنا الكافَ حرفَ جرٍّ. والرأي الثالث ـ وهو الأصحّ ـ أنْ تكونَ ﴿أَشَدُّ﴾ خبراً لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديره: أو هي أشدُّ(١) .

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

إنّ المتأمّل لهذه الآية يرىٰ قوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ كأنّها زيادةٌ يغني عنها ما قبلها؛ إذ معلومٌ سلفاً أنّ الكتابة لا تكون إلا باليد، فما فائدتها في الآية؟

إنّ النصَّ علىٰ أنّ أولئك المحرّفين لكلام اللّه تعالىٰ كتبوه بأيديهم فيه زيادة في التشنيع عليهم، وفي تقريعهم وتقبيح أفعالهم؛ لأنّهم قد

(١) البحر المحيط: ١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥ .

باشروا هذا الصنيع السخيف بأيديهم، إذ يمكن أن يقال: كتب زيدٌ كتاباً، إذا أمرَ بكتابته، وإنْ لم يباشره، فإذا كان مهتمّاً به باشرَ كتابتَهُ بيده[1].

وإنّي أرىٰ أنّ لقوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فائدةً أخرىٰ، هي المبالغة في إخفاء حقيقة التزوير؛ لمخادعة مَنْ يتلقّىٰ عنهم الكتابَ المزوّر وزيادة التلبيس والتدليس عليه، فهم لا يثقون في غيرهم أن يحفظَ سرّهم لو طلبوا منه القيامَ بالكتابة نيابة عنهم. واللّه أعلم.

والمتأمّل لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يجد أنّ استعمال ﴿ثُمَّ﴾ في النظم القرآني العظيم يدلُّ علىٰ أنّهم كانوا يخفون ما يكتبون حتّىٰ تمرَّ عليه مددٌ طويلةٌ ينسىٰ الناسُ خلالها أصلَ الكتابِ، ثمّ ينسبونه إلىٰ اللّه تعالىٰ، فلا يجدون معارضاً لصنيعهم؛ فتقادُمُ الزمنِ أنسىٰ النّاس حقيقةَ الأمرِ.

❊ ❊ ❊

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾ [البقرة: ٨٣].

التولّي والإعراض ظاهرهما أنّهما شيءٌ واحدٌ، فما سرُّ الجمع بينهما في هذه الآية؟

---

(١) التفسير الكبير للرازيّ: ١/١٢٨ ـ ١٢٩.

أقول: إنّ المقصودَ بالتولّي هنا عدمُ الوفاء بالعهد الذي أُخِذَ عليهم بعبادة اللّه تعالىٰ، وبرِّ الوالدين، والإحسان إليهما، ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين، ومخاطبةِ الناس بما يليق، وإقامةِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، ثمّ بيّن سبحانه وتعالىٰ أنّهم فعلوا ذلك غيرَ متدبّرين، ولا مفكّرين في عواقب هذا التولّي، فحصل منهم تَوَلٍّ وإعراضٌ عن التفكّر في عواقبه (١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** (٨٧) ﴾ [البقرة: ٨٧].

عَبَّرَ المولىٰ ـ عزّ وجلّ ـ عن التكذيب بالفعل الماضي ﴿ **كَذَّبْتُمْ** ﴾ الذي يدلّ علىٰ حصولِ الحدث وانقضائه، وَعَبَّرَ عن القتل بالمضارع ﴿ **تَقْتُلُونَ** ﴾ الذي يدلّ علىٰ الزمن الحاضر أو المستقبل، مع أنّ القتلَ قد حَصَلَ، وانقضىٰ، فالسِّر في ذلك ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ أنّ التعبيرَ بالمضارع بدلاً من الماضي لاستحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب؛ لِفَظاعَتِهِ.

ويمكن أن يقال: إنَّ الفعلَ المضارعَ ﴿ **تَقْتُلُونَ** ﴾ باقٍ علىٰ زمنه، وهو المستقبل؛ لأنَّ اليهودَ كانوا في زمن الرسول ﷺ يحومون حولَ قتل النبي ﷺ، لولا أَنْ عصمه اللّه تعالىٰ منهم، أمّا التكذيبُ فقد حصل منهم وانقضىٰ.

---

(١) البحر المحيط: ١/ ٤٦٤.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة: ٦، ٧].

في آية سورة البقرة قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾، وفي آية سورة الجمعة قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾، والنفي بـ(لا) أعمُّ من النفي بـ(لن)، قال السهيليُّ ـ رحمه الله ـ[1]: «فحرفُ (لا) لامٌ بعدها ألفٌ، يمتدّ بها الصوتُ ما لم يقطعه تضييقُ النَّفَسِ، فآذن امتدادُ لفظها بامتداد معناها، و(لن) بعكس ذلك، فتأمّله؛ فإنّه معنىٰ لطيفٌ، وغرضٌ شريف» انتهىٰ كلامه.

فـ(لا) تفيدُ العمومَ؛ لأنّ نفيها ينسحبُ علىٰ جميع الأزمنة، و(لن) تفيدُ القطعَ وقُرْبَ المنفيّ. وقال السهيليّ ـ عليه من رحمة الله شآبيبها ـ: «علىٰ أنّي أقول: إنّ العرب ـ مع هذا ـ إنّما تنفي بـ(لن) ما كان ممكناً عند المخاطب، مظنوناً أن سيكون، فتقول: (لن يكون) لما يمكن أن يكون؛ لأنّ (لن) فيها معنىٰ (أنْ)، وإذا كان الأمر عندهم علىٰ

(١) نتائج الفكر في النحو: ١٣١.

الشكّ لا على الظنّ، كأنّه يقول: أيكون أم لا يكون ؟، قلتَ في النفي: (لا يكون)»[١].

وقد فرّق كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني بينهما تفريقاً مَبْنِيّاً على اللفظ، فقال:

«(لن) محلُّ استعمالها المظنونُ حصولُهُ، ومحلُّ استعمال (لا) المشكوكُ في حصوله، وهذا يعلمك أنّ (لن) آكدُ في النفي، على ما قاله فخر خوارزم رحمه الله، وإن كان زمانُها أقصرَ؛ ومما يثبت عندك ذلك قوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ بعد حرف الشرط، وهو: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦)﴾، كأنه قيل: متى زعموا ذلك في وقت من الأوقات، وقيل: تمنوا الموت، فلا يتمنونه أبداً.

فلما كان حرف الشرط لا يختص بوقت دون وقت، وعَمَّ جميع الأزمنة، قُوبِلَ بـ(لا)؛ ليعمَّ ما جُعِلَ جواباً له.

ولما فات العموم من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾؛ بسبب دخول (كان)؛ لكونها لا تدل على الحدث، بل تدخل على المبتدأ والخبر؛ لتقرن مضمون الجملة بالزمان الماضي، وكأنه قيل: إن كان قد وجبت لكم الدار الآخرة عند الله فتمنوا الموت الآن.

وكان حرف الشرط داخلاً على فعل أمده قريبٌ جاء في جوابه

(١) نتائج الفكر في النحو: ١٣٣.

(لن)، فانتظم الخطاب في الآيتين»[١] انتهىٰ كلامه.

ولكني أرىٰ بينهما تفريقاً من حيث المعنىٰ؛ فإنّ فائدة ﴿لن﴾ في آية سورة البقرة الدلالةُ علىٰ القطعِ والبتاتِ؛ لأنّه علّقَ صحةَ فعلِ الشرطِ الذي ادّعوه ـ وهو كونُ الدارِ الآخرةِ خالصةً لهم من دونِ الناس ـ علىٰ تمنّي الموتِ؛ ليصلوا إلىٰ جنّة النّعيم الخالصة لهم من دون النّاس بزعمهم، فالحبيب لا يكره لقاء حبيبه، بل يتمنّاه، «والابن لا يكره لقاء أبيه، لا سيّما إذا علم أنّ كرامته ومثوبته مختصّةٌ به، بل أحبُّ شيءٍ إليه لقاءُ حبيبه وأبيه، فحيث لم يحبّ ذلك، ولم يتمنّه، فهو كاذبٌ في قوله، مبطلٌ في دعواه»[٢].

ودعواهم بأنّ لهم الدار الآخرة خالصةً عند اللّه، وزعمهم كما في غير هذه الآية[٣] أنّهم أبناء اللّه وأحباؤه، لو صحتْ لكانت غايةَ ما يطلبُه مطيعُ اللّهِ وعابدُه، فليس بعد حصولَ الدار الآخرة خالصةً لأمّةٍ من الأمم مطلبٌ أعظمُ منه، ولا يطمعُ طامعٌ بزيادة عليه من حيث الظفرُ بالآخرة، والاستئثارُ بنعيمها، ونظراً إلىٰ عظمِ هذه الدعوىٰ ووثوقِ أصحابها بها احتاجَ الردُّ عليهم بها إلىٰ ما هو أبلغُ في القطعِ وأقوىٰ، فجاء بـ﴿لن﴾ القاطعةِ النّافيةِ، فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾، فهذا النفيُ كالصاعقةِ وَقَعَتْ علىٰ رؤوسهم، وَدَحَضَتْ دعواهم.

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ١٩٣-١٩٤.

(٢) بدائع التفسير: ١/ ٣٣٠.

(٣) المائدة: ١٨.

أما في آية سورة (الجمعة) فقد عُلّقَ على تمنّي الموت صحةُ فعلِ الشرطِ الذي ادعوه، وهو كونُهم أولياء لله من دون الناس ، فليس زعمُهم هذا مطلباً لا مطلبَ وراءه؛ لأنّهم يحتاجون بعد ذلك إلى طلبِ قبولِ أعمالهم كما يفعلُ الأولياءُ، ويرجون الثوابَ عليها في الآخرةِ، فلمّا كانَ الشرطُ في هذه الآية قاصراً عنه في سورةِ البقرةِ لم يُحْتَجْ في نفيه إلى ما يدلُّ على القطعِ، فجاء بـ ﴿لا﴾ النافية، فقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾، وهذا النفيُ أيضاً يدلُّ على عمومِ الأزمنةِ؛ لأنَّ دعواهم بأنّهم أولياءُ اللّهِ وأحباؤه أكثرُ تردّداً من دعواهم بأنَّ لهم الدارَ الآخرةَ خالصةً.

وههنا تنبيهٌ يَحْسُنُ ذِكْرُهُ، وهو: أنّ الزمخشريَّ[1] يرى أنَّ (لن) تفيدُ التأبيدَ؛ للوصول إلى مذهبه الاعتزاليِّ في نفي رؤيةِ المؤمنين ربَّهم في الدنيا والآخرة[2] مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والردُّ على الزمخشريّ سهلٌ جداً؛ فإنَّ اللّهَ سبحانه وتعالى قال: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، فخصَّ النفيَ باليوم، وهذا معارضٌ للتأبيد، وفي سورة البقرة قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، ولو كانت (لن) دالةً على التأبيد لما احتاجت إلى التأكيد بقوله: ﴿أَبَدًا﴾، ومّما يَرُدُّ على الزمخشريِّ أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١)﴾ [طه: ٩١]، فقيّدَ النفيَ برجوع موسى، وهو منافٍ للتأبيد.

---

(١) الكشاف: ٣/ ٢٢، شرح الأنموذج للأردبيليّ: ٢٣٣.
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنّة: ٣/ ٤٥٤.

وعجيبٌ أمرُ عالمٍ جهبذٍ كالزمخشريّ، كيف يسقطُ مثلَ هذه السقطة؟ لكنّه الانحرافُ في العقيدة، يُعْمِي ويُصِمُّ، ولا يخفى على ذي بصيرةٍ ما يَعْتَوِرُ المعتزلة من قصورٍ في فهم كلام الله، فهم كما قال الإمام ابن القيّم ـ رحمه الله ـ(١): «وهكذا كلّ صاحب بدعةٍ تَجِدُهُ محجوباً عن فهم القرآن.

وتأمّل قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، كيف نفى فِعْلَ الإدراك بـ ﴿لا﴾ الدالّة على طول النفي ودوامه؛ فإنّه لا يُدْرَكُ أبداً، وإنْ رآه المؤمنون فأبصارهم لا تدركه، تعالى عن أن يحيط به مخلوقٌ.

وكيف نفى الرؤيه بـ ﴿لن﴾، فقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾؛ لأنّ النفي بها لا يتأبّدُ، وقد أكذبهم الله في قولهم بتأبيد النفي بـ(لن) صريحاً بقوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فهذا تمنٍّ للموت، فلو اقتضتْ (لن) دوامَ النفيِ تَناقَضَ الكلامُ، كيف، وهي مقرونةٌ بالتأبيد بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾؟، ولكنّ ذلك لا ينافي تمنّيه في النّار؛ لأنّ التأبيدَ قد يُرادُ به التأبيدُ المقيّدُ، أوالتأبيدُ المطلقُ، فالمقيّدُ كالتأبيدِ بمدّة الحياة، كقولك: واللّهِ لا أكلّمه أبداً، والمطلقُ كقولك: واللّهِ لا أكفرُ بربّي أبداً.

وإذا كان كذلك فالآية إنّما اقتضتْ نفي تمنّي الموت أبدَ الحياة الدنيا، ولم يتعرّض للآخرة أصلاً؛ وذلك لأنّهم لحبّهم للحياة، وكراهتهم للجزاء لا يتمنّون، وهذا منتفٍ في الآخرة.

(١) بدائع الفوائد: ١ / ٩٦ ـ ٩٧.

فهكذا ينبغي أن يُفْهَمَ كلامُ اللّهِ ، لا كَفَهْمِ المحرِّفين له عن مواضعه».

* * *

قولِه تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ [البقرة : ١٠٤].

حيث نادىٰ اللّهُ تعالىٰ المؤمنين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، ولم يَقُلْ : (يا أيّها المؤمنون)، مع أنّها أخصرُ، بحذفِ الاسمِ الموصولِ، وبالتعبيرِ بالاسمِ بدلاً من الفعلِ ؟

والجوابُ عن ذلك من وجهين ـ واللّهُ أعلَمُ ـ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ التعبيرَ بقوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يُشْعِرُ بتقدّمِ حدوثِ إيمانِهم ؛ لأنَّه عبَّر عنه بالفعلِ الماضي ، فهم قد آمنوا ، وامْتُحِنَ إيمانُهُمْ ، وليسوا من المؤمنين قريباً ، فلم يقع عليهم قول اللّه سبحانه وتعالىٰ : ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ١ ، ٢]، ولو قال : (يا أيّها المؤمنون) لم يدلَّ علىٰ ذلك ، ولم يردْ في القرآنِ : (يا أيّها المؤمنون) قطُّ[1] .

---

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف في تعليقاته على هذا الكتاب : «بل وردت في سورة النور في قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] ولا فرق بينهما إلا حذف أداة النداء من آية النور، وقد كتبها الصحابة محذوفة الألف أيضاً هكذا : (أيُّهَ المؤمنون)، ولا نظير لها إلا قوله : ﴿يأيهُ الساحر﴾ و(أيهُ الثقلان)، الأولى في الزخرف، والثانية في الرحمن، وهذه الألفاظ الثلاثة : (أيها المؤمنون-أيها الساحر- أيها الثقلان) مفردة في القرآن، لا توجد متكررة، وربما كان ذلك من العوامل التي حملت الصحابة رضي الله عنهم إلى تمييزها خطأً عن غيرها، ولبعض العلماء كلام ورسائل في تعليل رسم المصحف، وقد لا يكون أكثر ذلك مقنعاً؛ إذ الرسم توقيفي . والله أعلم».

الوجهُ الثاني: أنَّ (أل) تُستَعملُ للدلالةِ على كمالِ الشيء، فإذا قيلَ: (يا أيّها المؤمنون) دلَّ على أنَّ المخاطبين هم الذين كَمُلَ إيمانُهم، فإذا جاءَ بعدَ النداءِ أمرٌ أو نهيٌ تُوهِّمَ أنَّ ذلك مخصوصٌ بِمَنْ هم كاملو الإيمانِ، بخلافِ ما إذا عبَّرَ بالاسمِ الموصولِ، فقيل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، فإنَّ الفعلَ لا يُشْعِرُ إلا بمطلقِ الصفة، وممّا وردتْ فيه (أل) دالةً على الكمالِ قولُه: ﴿**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ**﴾ [يوسف: ٤٦]، وقولُه: ﴿**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ**﴾ [يوسف: ٧٨]، ولعلَّ مِنْ ذلك قولُه: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ①﴾ [الكافرون: ١]، واللّهُ أعْلَمُ.

وتأمّلوا قولَه تعالى: ﴿**لا تَقُولُوا رَاعِنَا**﴾، فـ ﴿**رَاعِنَا**﴾ بمعنى: رَاقِبْنا، وانتظِرْنَا، وتَأَنَّ بنا، يا رسول اللّه حتى نفهمَ ما تتلو علينا من كلامِ اللّهِ تعالى، ونحفظَهُ، ولم يكنْ في هذه اللفظة مأخذٌ، فينهى المؤمنون عن استعمالِها مع رسولِ اللّهِ ﷺ، لكنَّ اليهودَ حرّفوا المرادَ بها، حيث جعلوه من الرعونةِ، فهم يعنون بها المسبّةَ له ﷺ، فيقصدون بها الحمقَ، فضَّ اللّهُ أفواهَهم(١).

وأخيراً تدبّروا قولَه تعالى: ﴿**لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾ حيث بدأ بالنهي، ثمّ أتى بالأمرِ، وهذا مما عُرِفَ لدى العربِ بالتخليةِ قبلَ التحليةِ، فنهى عن قولِ: (راعنا)، ثمّ أتى بما هو أشقُّ وأصعبُ، حيث قيّدَ الخطابَ بقولِ: ﴿**انظُرْنَا**﴾ بعدَ أنْ حصلَ الاستئناسُ بالنهي.

---

(١) التفسير الكبير: ٢/ ٢٠٣.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ [البقرة: ١٠٧].

حيث جمعَ السماءَ، وأفردَ الأرضَ، ولم تردِ الأرضُ في القرآنِ الكريمِ إلا مفردةً، حتى أنّه تعالى لما أرادَ الإشارةَ إلى تعدّدِها قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

والسببُ في ذلك ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ على نوعين:

الأول: سببٌ معنويٌّ قاله ابن جنّي، وهو: «أنَّ السماءَ بعيدةٌ عنّا، فلسنا نشاهدُ حالَها، فنعلمَ اتصالَ بعضِها ببعضٍ، كاتصالِ أجزاءِ الأرضِ بعضِها ببعضٍ، ألا ترى أنّ السهلَ والجبلَ والوادي والبحرَ والبرَّ لا تجد شيئاً من أجزائه منفرداً عن صاحبه، ونحنُ لا نعلمُ هذا من حالِ السمواتِ، كما علمنا، وتحقّقنا من حالِ الأرضِ، فلاقَ بالأرضِ أن تأتيَ بلفظِ الإفرادِ، ولاقَ بالسماءِ أن تأتيَ بلفظِ الجمعِ تارةً، وبلفظ الإفرادِ أخرى» (١) انتهى كلامه.

ثم إنَّ الأرضَ لا نسبةَ لها إلى السمواتِ في سعتِها، قال الإمام ابنُ القيّم ـ رحمه اللّه ـ (٢): «بل هي بالنسبةِ إليها كحصاةٍ في صحراءَ، فهي، وإن تعدّدتْ، وكبرتْ، بالنسبةِ إلى السماءِ كالواحدِ القليل، فاختْيرَ لها اسمُ الجنسِ».

---

(١) الخاطريات: ٤٠.

(٢) بدائع الفوائد: ١/ ١١٥.

ولذلك استعملت الأرضُ مفردةً، والسماءُ مجموعةً.

الثاني: سببٌ لفظيٌ، وهو أنَّهم لو جَمَعُوا الأرضَ جمعَ تكسيرٍ لقالوا: آرُضٌ، كأفْلُسٍ، أو آراضٌ، كأجْمالٍ، أو أُرُوضٌ، كفُلوسٍ، وهذه الجموعُ ثَقيلةٌ، بعكسِ جمع السماءِ، فهو عذبٌ حسنٌ، قال ابن القيِّم ـ عليه رحمة الله ـ: «وأنتَ تجدُ السمعَ ينبو عنه بقدرِ ما يَسْتَحْسِنُ لفظَ السموات، ولفظُ السمواتِ يلجُ في السمعِ بغير استئذانٍ؛ لنصاعته وعذوبته»(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (١٢٠) ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** (١٤٥) ﴾ [البقرة: ١٤٥].

يجعل علماء اللغة (ما) الموصولة بمعنى (الذي)، وهذا تعبيرٌ غيرُ دقيقٍ؛ لأنّهما مختلفان من حيث المعنى، ومن حيث الأحكام، فأمّا افتراقهما من حيث الأحكام فليس هذا مجال بحثه، لكنّه مفصّلٌ في كثيرٍ من كتب النحو(٢).

---

(١) بدائع الفوائد: ١/ ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) نتائج الفكر في النحو: ١٨٠ ـ ١٨١، بدائع الفوائد ١/ ١٣١ ـ ١٣٢.

أمّا وجه اختلافهما في المعنىٰ « فإنّ (ما) اسمٌ مبهمٌ في غاية الإبهام، حتّىٰ إنّها تقع علىٰ كلّ شيء ، وتقع علىٰ ما ليس بشيء، ألا ترىٰ أنّك تقول: إنّ اللّه عالمٌ بما كان وما لم يكن، و(ما لم يكن) معدومٌ، والمعدوم ليس بشيء، فلفرط إبهامها لم يجز الإخبار عنها حتّىٰ توصل بما يوضّحها»(١).

وفي هاتين الآيتين اللتين هما موضع النظرة عَبَّرَ في الآية الأولىٰ بقوله: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وفي الثانية بقوله: ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، فَعَبَّرَ بـ ﴿الَّذِي﴾ في الأولىٰ؛ لأنّ المراد بالعلم فيها العلمُ الكاملُ، وهو معرفة اللّه وصفاته، وبأنّ الهدىٰ هدىٰ اللّه، فناسَبَ ذكرُ ﴿الَّذِي﴾؛ لكونه أبلغ في التعريف من (ما)، وعبّر بـ ﴿مَا﴾ في الآية الثانية؛ لأنّ المراد بالعِلْمِ فيها العِلْمُ بأنّ قبلة اللّه هي الكعبة، وهو علمٌ خاصٌّ، فناسَبَ ذِكْرُ ﴿مَا﴾ معه(٢)، واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال: ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾، ومعلومٌ أنَّ الزيادةَ في المبنىٰ تدلُّ علىٰ الزيادة في المعنىٰ، و(مَتَّعَ) تدلُّ علىٰ الكثرة ، فكيفَ وصَفَ مصدرَها فقال:

(١) نتائج الفكر: ١٨٠.
(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن للأنصاريّ: ١٩ ـ ٢٠.

﴿قليلاً﴾ ، فَوَصَفَ الكثيرَ بالقليل ؟ (١) .

أقول : السببُ في ذلك ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ أنَّ اللّهَ تعالىٰ مهما أَغْدَقَ علىٰ ابنِ آدمَ من نِعَمِ الدنيا فإنّها قليلةٌ بالنظر إلىٰ صيرورتِها إلىٰ نقصٍ ونفادٍ وفناءٍ ، ونظراً إلىٰ هلاكِه ورحيله عن الدنيا وتركِه ما فيها :

أمـاويَّ مـا يُغْني الثـراءُ عن الفـتى إذا حَشْرَجَتْ نفسٌ وضاقَ بها الصدرُ (٢)

فَكَثَّرَ الفعلَ بعين صاحبِ المتاعِ ، وقلّلَهُ بالنظر إلىٰ حقيقته ، ومثله قوله تعالىٰ : ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)** ﴾ [لقمان : ٢٣ ، ٢٤] .

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)** ﴾ [البقرة : ١٥٩ ـ ١٦١] .

لو وقفنا أمام هذه الآيات العظيمات متدبرين فيها لخرجنا منها **بفوائدَ بديعة** ، منها :

الفائدة الأولى: أنَّ اللّهَ تعالىٰ عبّر عن الكاتمين لِما أنزلَه من البينات

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشيّ : ٣/ ٣٥ ـ ٣٦ .
(٢) ديوان حاتم الطائيّ : ١٩٩ .

والهدىٰ، عبّر عنهم بالفعل المضارع، فقال: ﴿يَكْتُمُونَ﴾، ومن المعلوم أنَّ الفعلَ المضارع يدلُّ علىٰ الزمنِ الحاضرِ والمستقبل، فالفعلُ ﴿يَكْتُمُونَ﴾ إذاً يدلُّ علىٰ أنَّ اليهودَ في الوقتِ الحاضرِ كاتمون للبّينات والهدىٰ، ولو وقعَ التعبيرُ بلفظِ الماضي لتوهّمَ السامعُ أنَّ الحديثَ عن قومٍ مضوا، وليس عن قومٍ حاضرين(١)، فيخرج حينئذٍ عن دائرة المذمومين يهودُ عصرِ التنزيلِ والعصورِ التاليةِ له، وهذا غيرُ مرادٍ؛ لأنّ صفات اليهود لا تتغيّر، فالتعبير بالفعل المضارع يدلُّ علىٰ تجدّدِ الكتمانِ منهم، فبقاؤهم عليه تجدّدٌ له.

الفائدة الثانية: قال اللّه تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ والجملةُ خبرٌ لـ(إنَّ)، وهي جملتان: كبرىٰ وصغرىٰ، فالصغرىٰ جملة الخبر الفعليّة: ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾، والكبرىٰ الجملة الاسميّة: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾، والتعبير بالجملتين ذو دلالةٍ مُزْدَوَجَةٍ، فهو بالجملة الاسميّة يدلّ علىٰ ثبوت لعن اللّه لهم ودوامه، وبالجملة الفعليّة يدلُّ علىٰ تجدّدِ لَعْنِ اللّه لهم كلّما تَجدَّدَ كتمانُهم، فهم يكتمون، واللّه يلعنهم، أي: يطردهم من رحمته.

والإشارة بـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ التي تدلُّ علىٰ البُعْد للدلالة علىٰ بُعْدِهم بالإفسادِ، وإفراطهم فيه، ثُمَّ إنَّ الإشارةَ لا تكونُ إلا للمُشَاهَدِ، ومع ذلك أشارَ بها إلىٰ صفاتِهم، وهي لا تُشَاهَدُ؛ وذلك لأنَّ وصفَهم بتلك الصفاتِ جَعَلَهُم كالمشاهدين للسامع(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢/٦٦.
(٢) المصدر السابق: ٢/٦٧.

الفائدة الثالثة: في تكرار ﴿يَلْعَنُهُمُ﴾ في قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ مع إمكانِ أَنْ يُقال: (أولئك يلعنهم اللّهُ واللاعنون)؛ وذلك لأنَّ معنى اللعن في الثاني مختلفٌ عنه في الأوّل، فإنَّ اللعنَ من اللّهِ الطردُ والإبعادُ من رحمته، واللعنُ من غيره الدعاءُ على الملعون بذلك، فلاختلافِ معنى اللعن تكرّر الفعلُ[1]، واللّهُ أعْلَمُ.

الفائدة الرابعة: قولُه: ﴿اللاَّعِنُونَ﴾ هذا الوصف المعرَّف بالألف واللام يُشْعِرُ بأنّ هنالك قوماً شُغلُهم الشاغلُ هو اللعنُ، وليس الأمرُ كذلك؛ فما هناك من أحدٍ متخصّصٍ باللعن، فَيُوصَمَ به، إنّما المرادُ هنا الذين يُمكنُ أن يَصْدُرَ منهم اللعنُ كالملائكةِ والصالحين الذين يُنكرونَ المنكرَ، ويَغْضَبُون للّه تعالى، ويَطّلعون على كِتمانِ مَنْ يكْتُمُ آياتِ اللّهِ، فهم يلعنونهم لذلك، فكأنّهم اختصوا بذلك[2].

الفائدة الخامسة: اختلفَ النحاةُ في نوعِ الاستثناء في قوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾، أمتّصلٌ هو أم منقطعٌ؟.

ومعلومٌ أنَّ الاستثناءَ المتّصلَ: هو ما كان المستثنى فيه بعضاً من المستثنى منه، والاستثناء المنقطعُ: هو ما لم يكن فيه المستثنى جزءاً من المستثنى منه.

فَمنْ قَالَ في هذه الآيةِ: إنَّ الاستثناءَ متّصلٌ[3]، أراد أنّه استثنى

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢/ ٦٨.
(٢) الكشّاف: ١/ ٣٢٥، البحر المحيط: ٢/ ٧٠.
(٣) البحر المحيط: ٢/ ٧٠.

التائبين ممّن يلعنهم اللّهُ، ويلعنهم اللاعنون.

ومن قال: إن الاستثناءَ في هذه الآيةِ منقطعٌ جَعَلَ التائبين من غيرِ الملعونين؛ لأنّهم يرون أنَّ مَنْ يلعنُهُ اللّه لا يتوبُ عليه.

الفائدة السادسة: قال اللّه تعالىٰ: ﴿**إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾، عَبَّرَ عن كفرهم بالفعلِ الماضي الذي يدلُّ علىٰ ثبوتِ الكفرِ منهم، ثُمَّ أردفَهُ بالإخبارِ عن موتِهم علىٰ حالةِ الكفر، وهذا الصنفُ من الناسِ لا توبةَ لهم، ولا يَغْفِرُ لهم اللّهُ؛ لأنّه تعالىٰ يقول: ﴿**إنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ١١٦]، ولذلك عَبَّرَ اللّهُ عن جزائهم بجملةٍ اسميّةٍ تدلُّ علىٰ الثبوتِ والدوامِ، وليس فيها استثناءٌ، فقال: ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾، وتأمّلوا كيف عبّرَ اللّهُ عن جزاءِ مَنْ يكتمُ آياتِ اللّهِ بقوله: ﴿**أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾، فاللعنُ عليهم غيرُ دائمٍ؛ لإمكانِ أن يتوبوا، فيرضىٰ اللّهُ عنهم، فهو حديث عن أحْياءٍ.

أمّا الآية الكريمة الأخيرة فقد عَبَّرَ فيها عن جزائهم بثبوت لعنةِ اللّه عليهم ودوامِها، وكذلك لعنةُ الملائكةِ والناسِ أجمعين؛ لأنّهم ماتوا علىٰ الكفر، فأُغْلِقَ دونهم بابُ التوبة، فالحديث عن هالكين.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ**

فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ [البقرة: ١٨٧].

توطئة:

إنَّ الأفعالَ اللازمةَ يمكن أن تتعدىٰ إلىٰ مفعولها بوساطة حرفِ الجرِ، مثلَ أنْ تقولَ: نظرتُ بطرفٍ خفيٍّ، فتعديَ الفعلَ (نَظَرَ) بالباء، أو بـ(إلىٰ) كأنْ تقولَ: نظرتُ إلىٰ الجبل.

فإذا قلت: نظرتُ مِنْ طرفٍ خفيٍّ، فعدّيته بـ(مِنْ) دون الباء أو (إلىٰ)، فبعضُ النحاةِ يقولون: إنَّ (مِنْ) ضُمّنتَ معنىٰ الباء، وهؤلاءِ هم الذين يقولون بتناوب حروفِ الجرّ بعضها عن بعض[١]، وهم يرون أن الحرف حينئذ يُبْقِي فيه رائحةً من معناه الأصلي، يقول الكفوي: «كلّ حرف كان له معنىٰ متبادر، كالاستعلاء في (علىٰ) مثلاً، ثم استعمل في غيره، فإنه لا يترك ذلك المعنىٰ المتبادر بالكلية، بل يبقي فيه رائحة منه، ويلاحظ معه»[٢] وقال غيرُهم[٣]: إنّ الحرفَ لا يُضَمَّنُ معنىٰ حرفٍ آخرَ، ولكنَّ العاملَ فيه

(١) كالفرّاء وأبي عبيدة والأخفش وابن قتيبة والمبرّد.
انظر: معاني القرآن للفراء: ١/ ٦٣، مجاز القرآن: ١/ ٣٢٤، معاني القرآن للأخفش: ١/ ٤٦، تأويل مشكل إعراب القرآن: ٥٦٧، المقتضب: ٢/ ٣٢٨.

(٢) الكليات: ٩٩٧.

(٣) هم أكثر البصريّين: انظر: معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٤١٦، الإنصاف في مسائل الخلاف: ٢/ ٤٨١، الجنى الداني: ١٠٨.

هو الذي يُضَمَّنُ معنىٰ عاملٍ آخرَ يتعدّىٰ بذلك الحرف، فيكون في ذلك دليلٌ على الفعلين، أحدهما بالتصريح به، والثاني بالتضمُّن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه، مع غاية الاختصار.

ومثلُ الفعلِ اللازمِ الفعلُ المتعدّي بنفسه حين يُسْتَعْمَلُ متعدّياً بوساطة حرفِ الجرِ، فيكونُ مضمّناً معنىٰ فعلٍ آخرَ، كقولِ إمام الصلاة: سمع اللّه لمن حَمِدَهُ، فقد عدَّىٰ الفعلَ (سمع) إلىٰ مفعوله (مَنْ حَمِدَه) باللام مع إمكان أَنْ يقولَ: سمع اللّه مَنْ حَمِدَه.

والسببُ في ذلك أنّه ضمّن (سمع) معنىٰ (استجاب)، و(استجاب) يتعدّىٰ بوساطة حرف الجر (اللام)، فكأنّه قال: سمع اللّه، واستجاب لمن حَمِدَه [1].

وهذا يؤيّد قولَ القائلين: إنّ التضمينَ يكونُ في الفعل، لا في الحرف؛ لأنَّ وجودَ الحرفِ هنا غيرُ جائز أصلاً لو لم يُشْرَبِ الفعلُ معنىٰ فعلٍ آخرَ.

وههنا في هذه الآية التي بين أيدينا موضعاً للنظرة وقفتان:

الأولى: يقال: رَفَثَ فلانٌ بزوجه، أو: رَفَثَ معها، ولا يُقال: رَفَثَ إليها، فَلِمَ قال اللّه تعالىٰ في الآية الكريمة: ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾؟.

الجواب على هذا السؤال هو: أنّه ضَمَّنَ (رَفَثَ) معنىٰ (أفْضىٰ)،

(١) انظر: بدائع الفوائد: ٢/ ٧٥-٧٦.

وهذا الفعل الأخير يتعدىٰ بـ (إلىٰ)، تقول: أفضىٰ فلانٌ إلىٰ زوجه[1].

والتضمين هنا أفاد صِحَّةَ الرَّفَثِ والإفضاءِ إلىٰ الزوجة ليلةَ الصيامِ، والرَّفَثُ هو متضمِّن لما يستقبح ذِكْرُهُ من ذِكْرِ الجِماعِ ودواعيه، أمّا الإفضاء فهو المباشَرَةُ والجِماعُ، ولذلك لو لم يُعدَّ الرَّفَثُ بـ(إلىٰ) لتبادرَ إلىٰ الذهنِ حِلُّ ذِكْرِ الجماعِ ودواعيه دون مباشَرَتِهِ، فتأمّلوا أسرارَ العربيةِ، والبيانَ القرآنيَّ العظيمَ.

الثانية: اختلف النحاةُ في مجرورِ ﴿إلى﴾ في قوله: ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾، أيكونُ غايةً لا يدخلُ في حكمِ ما قبلَها؟ أو يدخلُ فيه؟.

فيه قولان [2]:

أحدُهما: عدمُ دخولِه، فإذا قلتَ: سرتُ من القصيمِ إلىٰ الرياضِ، فإنَّك لم تدخل الرياض.

والقولُ الآخرُ: أنَّه إنْ كانَ ما بعدَ (إلىٰ) من جنسِ ما قبلَها فهو داخلٌ، وإلا فلا، مثالُ الجنسِ: اشتريتُ الغنمَ إلىٰ آخرها، ومثالُ غيرِ الجنسِ: سرتُ من الخرجِ إلىٰ الرياضِ.

وفي الآيةِ الكريمةِ التي بين أيدينا: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ الليلُ غيرُ داخلٍ في الصيامِ قطعاً؛ لقولِ الرسولِ ﷺ: (إذا أقبلَ الليلُ من ههنا، وأدبرَ النهارُ من ههنا، وغربَتِ الشمسُ، فقد أفطرَ الصائمُ)[3]،

---

(١) الكشّاف: ١/ ٣٢٨.

(٢) الجنى الداني: ٣٧٣.

(٣) صحيح البخاريّ: ٣/ ٨٠.

وهذا يؤيِّدُ قولَ الذين قالوا بعدمِ دخوله إذا لم يكنْ من جنسٍ ما قبله؛ لأنَّ الإفطارَ يكونُ بغروبِ الشمسِ، فالسُّنَّةُ الفطرُ إذا تبيّنَ الليلُ.

فإنْ تَرَكَ الصائمُ الأكلَ لعذرٍ أو لشغلٍ جاز، وإنْ تَرَكَهُ قصداً لمواصلةِ الصيامِ فللعلماءِ فيه ثلاثة أقوال [١]: منهم مَنْ رآه جائزاً، ومنهم مَنْ جعله مكروهاً، والأكثرُ على أنّه حرامٌ؛ لِما فيه مِنْ مخالفةِ الظاهرِ، والتشبّهِ بأهلِ الكتابِ. واللّهُ أعْلَمُ.

والمتأمّل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ يجد أنّ اللّه تعالى قد قدّمَ الخيطَ الأبيضَ على الخيطِ الأسودِ؛ وذلك ـ واللّهُ تعالى أَعْلَمُ ـ لأنَّ السوادَ هو الأصلُ، فالليلُ ملتحفٌ بوشاحِه الداكنِ، والبياضُ طارئٌ عليه، ولمّا لم يكنِ المرادُ بالخيطين هما الحقيقيّان [٢]. أتى بـ(مِنِ) البيانية، وكانَ الصحابيُّ الجليلُ عديُّ بنُ حاتمٍ الطائيّ ـ رضي اللّه عنه ـ قد فَهِمَ الآيةَ على ظاهرها، فَعَمَدَ إلى عقالين أسودَ وأبيضَ، فجعلهما تحت وسادته، ينظرُ إليهما في الليلِ، فلا يستبينُ له شيءٌ، فَقَصَدَ رسولَ اللّهِ ﷺ، فذكرَ له ذلك، فقال: (إنّما ذلك سوادُ الليلِ وبياضُ النهار) [٣].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربيّ: ١/ ٩٣.

(٢) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: «الأولى: (الحقيقيّين) بالنصب على الخبرية لـ(كان)، وهي لغة القرآن، وهي اللغة الفصحى، وقال تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ﴾، وقال: ﴿وإما أن نكون نحن الملقين﴾ في آيات كثيرة، وللرفع وجه، ولكن الأولى والأفصح ما ذكر. والله أعلم»

(٣) صحيح البخاريّ: ٣/ ٦٦.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

حينما نتدبر الآيتين نجد في الأولى نهياً عن مقاربة حدود اللّه، ونجد في الثانية نهياً عن مجاوزتها، ولذلك مقاصد عظيمة؛ فالحدود نوعان:

حدودٌ مانعةٌ من ارتكاب المحظور، فيُنهى عن مقاربتها، وحدودٌ فاصلةٌ بين الحلال والحرام، فيُنهى عن مجاوزتها.

وفي الآية الأولى نهيٌ عن مواقعة النساء في حالة الاعتكاف في المساجد، فغلّظ الوعيد بالنهي عن مقاربته، وشَدَّدَ بالابتعاد عنه، والحذر من مقدماته ودواعيه؛ لئلا يقع المعتكف في الحرام من حيث لا يشعر، فاقتضى ذلك المبالغةَ في النهي عن المقاربة.

وفي الآية الثانية بيانٌ لحلِّ قيام المرأة بافتداء نفسها بمهرها، ومخالعة زوجها، وأنّه لا إثم عليها، فنهى عن مجاوزة الحدّ برفض ذلك أو مخالفته، فقال: ﴿فَلا تَعْتَدُوهَا﴾.

وقال بدر الدين ابن جماعة: «الحدود في الأولى هي عبارة عن نفس المحرّمات في الصيام والاعتكاف من الأكل والشرب والوطء والمباشرة، فناسب: ﴿فَلا تَقْرَبُوهَا﴾.

والحدود في الثانية: أوامرُ في أحكام الحلّ والحرمة في نكاح المشركات، وأحكام الطلاق والعدّة والإيلاء والرجعة، وحصر الطلاق في الثلاث والخلع، فناسبَ ﴿فَلا تَعْتَدُوهَا﴾، أي: لا تتعدّوا أحكام اللّه تعالىٰ إلىٰ غيرها ممّا لم يشرعه لكم، فَقِفُوا عندها، ولذلك قال بعده: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠]»(١).

*   *   *

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

العرب في حديثهم يفرّقون بين أداتي الشرط (إذا) و (إنْ)، قال ابن مالك ـ رحمه اللّه ـ(٢): «(إذا) للوقت المستقبل، مضمّنةٌ معنىٰ الشرط غالباً، لكنّها لِمَا تُيُقّنَ كونُهُ، أو رُجِّحَ، بخلاف (إنْ)».

وقال الكفويّ: «(إنِ) الشرطية تقتضي تعليق شيء، ولا تستلزم تحقق وقوعه، ولا إمكانه، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]،

(١) كشف المعاني: ١١٣.
(٢) تسهيل الفوائد: ٩٣.

وعادةً كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٥] لكن في المستحيلِ قليلٌ»(١).

فيجعلون (إذا) مع الشيء المتحقّق وقوعه، أو المترجّح، فيقولون: إذا دخل وقتُ الصلاة نصلّي؛ لأنّ دخول وقتها متحقّق الوقوع، ولا يصحّ أن يقال: إن دخل وقت الصلاة نصلِّي؛ لأنّ هذا الأسلوب يشعر بأنّ دخوله محتملٌ وغير مؤكّد.

وكذلك يؤتىٰ بـ(إذا) مع الشيء الذي يحدث كثيراً، أمّا (إنْ) فيؤتىٰ بها مع قليل الحدوث، كقول الطالب الذي اعتاد النجاح دائماً: إذا نجحتُ فسأعود إلىٰ بلدي، وإن رسبتُ فسوف أبقىٰ هنا، أمّا الطالب المهمل المفرّط الذي اعتاد الإخفاق فيقول: إنْ نجحتُ فسأعود إلىٰ بلدي، وإذا رسبتُ فسوف أبقىٰ هنا.

قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ(٢): «المشهور عند النحاة والأصوليّين والفقهاء أنّ أداة (إنْ) لا يُعلَّقُ عليها إلا محتمل الوجود والعدم، كقولك: إنْ تأتني أكرمْكَ، ولا يعلّق عليها محقّقُ الوجود، فلا تقول: إنْ طلعتِ الشمس أتيتُك، بل تقول: إذا طلعتِ الشمس أتيتك، و(إذا) يُعلّق عليها النوعان».

وقول ابن القيّم أوّله صحيحٌ، وآخره ليس كذلك؛ إذ لم يوافقه أحدٌ من العلماء علىٰ أنّ (إذا) يعلَّقُ عليها النوعان، إلا ابن الجوينيّ الذي قال: «الذي أظنّه أنّه يجوز دخولها علىٰ المتيقّن والمشكوك؛ لأنّها

(١) الكليات: ١٠٢١.
(٢) بدائع الفوائد: ١ / ٤٦ ـ ٤٧.

ظرفٌ وشرطٌ، فبالنظر إلى الشرط تدخل على المشكوك كـ(إنْ)، وبالنظر إلى الظرف تدخل على المتيقّن كسائر الظروف »[١].

وقول ابن الجوينيّ وابن القيمّ غير صحيح؛ لأنّ سيبويه يقول[٢]: «(إذا) تجيء وقتاً معلوماً، ألا ترى أنّك لو قلتَ: آتيك إذا احمرَّ البسرُ، كان حسناً، ولو قلت: آتيك إن احمرَّ البسرُ، كان قبيحاً؛ فـ(إنْ) أبداً مبهمةٌ، وكذلك حروف الجزاء، و(إذا) تُوصَلُ بالفعل، فالفعل في (إذا) بمنزلته في (حين)، كأنّك قلت: الحين الذي تأتيني فيه آتيك فيه».

ولذلك ذكر بعضهم أنّها: «اسمٌ للوقت. . ، ومعناها في نفسها، والمتكلّم بها يعرف كَون ما دخلتْ عليه، و(إنْ) حرفٌ وُضِعَتْ لتعليق الثاني بالأوّل، ومعناها في غيرها، والمتكلّم شاكٌّ في كونِ ما دخلتْ عليه، وهذا حقّ ما يُجازىٰ به ألا يُدرىٰ أيكون أم لا يكون»[٣].

قال أبو سعيد السيرافي[٤] عن (إذا): «إنّ الذاكر لها في الكلام كالمعترف بأنها كائنة، كقولك: إذا طلعت الشمس فائتني، فالمتكلم معترف بطلوع الشمس، وحقُّ ما يجازىٰ بـ(إن) أن لا يُدْرَىٰ أيكون أم لا يكون؟ كقولك: إنْ قدم زيد زرته، وإن تمطر اليوم نجلس للحديث، ولا يُدْرَىٰ أيقوم زيد أم لا؟ ولا يُدْرَىٰ أتمطر اليوم أم لا؟ ولذلك حسن: إذا احمرّ البُسْرُ فائتني، وقبح: إن احمرّ البُسْرُ فائتني؛ لإحاطة العلم أن

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشيّ: ٤ / ٢٠١ .
(٢) الكتاب: ١ / ٤٣٣ ، وانظر: شرحه للسيرافيّ: ٣/ ٢٢٨ ب ـ ٢٢٩ أ .
(٣) معاني الأدوات والحروف: ١ / ٨١ .
(٤) شرح الكتاب: ٢/ ٢٢٨ ب .

احمرار البُسْرِ كائنٌ».

وإنّني لا أنفي ورود (إذا) مع ما ظاهره أنّه مشكوكٌ فيه، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨]، ولا وقوع (إنْ) مع ما ظاهره أنّه متحقق الوقوع، كقوله تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] لكنّي أرى أنّ ذلك يأتي تنزيلاً لـ(إذا) منزلة (إنْ)، وتنزيلاً لـ(إن)، منزلة (إذا)؛ لفائدة غير خفيّة.

قال السيرافي(١) أيضاً: «وقد تستعمل (إذا) في الموضع الذي يحسن فيه (إنْ)، ولا يبين بينهما فرق؛ للمشابهة التي بينهما، وكذلك تستعمل (إن) في موضع (إذا)، قد يقول القائل: إنْ مِتُّ فأخرجوا ثلث مالي للفقراء والمساكين، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والموت كائن لا محالة، وقال الشاعر:

كم شامتٍ بي إنْ هلكتُ وقائلٍ لله دَرُّهْ(٢)

وقال زهير:

إذا أنت لم تنزع عن الجهل والخنا أصبتَ حليماً أو أصابك جاهلُ(٣)

وقد يجوز أن تنزع، ويجوز أن لا تنزع، ولا يحيط العلم بأيّ ذلك يكون.

---

(١) شرح الكتاب: ٢/ ٢٢٨ ب.
(٢) بيت من البحر الكامل للنابغة الذبياني في (ديوانه: ٢٣١).
(٣) شرح شعره: ٢١٩.

وقولهم: إن مات زيدٌ كان كذا، أحسنُ من قولك: إن احمرَّ البُسْرُ؛ لأن الموت، وإن كان معلوماً أنه كائن، فلا يُعْرَفُ وقتُهُ، واحمرارُ البُسْرِ معروفُ الوقتِ».

وفي هذه الآية التي بين أيدينا قال اللّه تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾، فاستعمل ﴿إن﴾؛ لأنّ الإحصارَ قليلُ الوقوعِ، أمّا الأمن والتمكّن من الوصول إلىٰ مكّة، والقدرة علىٰ إتمام الحجّ، فهو الأكثر، ولذلك قال: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾. واللّه أعلم.

وأمّا قوله: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فظاهرُ الكلامِ فيه أنّ كلمةَ ﴿عَشَرَةٌ﴾ مغنيةٌ عن ﴿كَامِلَةٌ﴾[١]؛ لأنّها إذا لم تكن كاملةً فستكونُ تسعةً، أو ثمانيةً... إلخ.

وقد اختلف العلماء في هذه الآية، فقال محمد بن يزيد المبرد: «لو لم يقل: ﴿تلك عشرة﴾ جاز أن يتوهم السامع أن بعدها شيئاً آخر، فقوله: ﴿تلك عشرة﴾ بمنزلة قولك في العدد: فذلك كذا وكذا»[٢].

ولكنّ الصحيح أنّ قولَه: ﴿كَامِلَةٌ﴾ إنّما هو بمعنىٰ (فاضلة)؛ من كمال الفضل، لا من كمال العدد، قال كمالُ الدين الزملكانيّ: «الإتمام لإزالة نقصانِ الأصلِ، والإكمالُ لإزالة نقصانِ العوارضِ بعد تمامِ الأصلِ، ومن ثَمَّ كانَ قولُه تعالىٰ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أحسنَ من: (تلك عشرةٌ تامةٌ)؛ إذ التمامُ في العددِ قد عُلِم، وإنّما بقي احتمالُ النقصِ في صفاتها.

ويفترقان أيضاً من جهةِ أنَّ قولَهم: (تَمَّ) يُشْعِرُ بحصولِ نقصٍ قبل

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشيّ: ٢ / ٤٧٨ ـ ٤٨٢.
(٢) معاني القرآن للنحاس: ١ / ١٢٧.

ذلك، و(كَمُلَ) لا يُشعِرُ به، ومن ثمَّ قالوا: رجلٌ كاملٌ، إذا جَمَعَ خصَالَ الخيرِ، ورجلٌ تامٌّ، إذا كانَ غيرَ ناقصِ الطولِ»(١).

وأيضاً (تمَّ) يُشْعِرُ بحصول نقصٍ بعده، كما يوصف القمر بالتمام، مثل قول العجاج:

أو شرفاً يُتمُّ نوراً قد زَهَرْ

كما تُتِمُّ ليلةُ البدرِ القمرْ(٢)

وقال النابغة الذبياني:

فتى تَمَّ فيه ما يسرُّ صديقَهُ ... على أنَّ فيه ما يسوءُ الأعاديا

فتى كَمُلَتْ أخلاقُهُ غيرَ أنَّه ... جوادٌ فما يُبقي من المال باقيا(٣)

وقال الشاعر:

وإذا الفتى جَمَعَ المروءةَ والتقى ... وحوى مع الأدبِ الحياءَ فقد كَمُلْ(٤)

وقال عدي بن الرقاع العاملي:

هو الفتى كلُّهُ مجداً وتكرمةً ... وكلُّ أخلاقِهِ الخيراتِ قد كَمُلا(٥)

وقال امرؤ القيس:

إذا ما اتقى اللهَ الفتى ثم لم يكن ... على أهله كَلاً فقد كَمُلَ الفتى(٦)

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٩١ـ٩٢.

(٢) ديوانه: ٦٨.

(٣) ديوانه: ٢٣٣.

(٤) بهجة المجالس: ١/ ٢/ ٦٤٦.

(٥) ديوان شعره: ٧٩.

(٦) ديوانه: ٣٣٦.

وقال الشاعر:

متى يبلغ البنيانُ يوماً تمامَهُ إذا كنتَ تبنيه وآخرُ يهدمُ (١)

وكذلك تقول العرب: (تَمَّ البدر)؛ لأنه كان ناقصاً، ومصيره إلى نقصان، قال العرجي:

ووجهٌ كَمِثْلِ البدرِ إذ تمَّ فاستوى إذا ما بدا في ظلمةِ الليل يَسْدِفُ(٢)

ولذلك أَحْسَنَ الحسن بن هانئ أيَّما إحسانٍ حين قال في الخليفة العباسيّ محمد الأمين:

تتيهُ الشمسُ والقمرُ المنيرُ إذا قلنا كأنّهما الأميرُ

فإنْ يكُ أشبها منه قليلاً فقد أخطاهما شَبَهٌ كثيرُ

لأنّ الشمس تغربُ حين تمسي وأن البدرَ يُنْقِصُهُ المسيرُ

ونورُ محمدٍ أبداً تمامٌ على وَضَحِ الطريقة لا يحورُ(٣)

وللّه دَرُّ أبي هلال العسكريّ حين يقول(٤):

لو تمَّ شيءٌ من الدنيا لذي أدبٍ لانضافَ مالٌ إلى علمي وآدابي

فتمَّ جاهيَ عند الناسِ كلِّهِمُ وطابَ عيشيَ في أهلي وأصحابي

عَزَّ الكمالُ فلا يحظى بِهِ أحدٌ فكلُّ خَلْقٍ وإن لم يدرِ ذوو عابِ

(١) شعر عمرو بن شأس الأسديّ: ٧٩.

(٢) ديوانه: ٢٦٤.

(٣) ديوان المعاني: ١/ ٢٣٠.

(٤) ديوان المعاني: ١/ ١٤٢.

وقال الزَّجَّاجُ: «قال بعضهم: ﴿كَامِلَةٌ﴾ أي: تُكْمِلُ الثوابَ، وقال بعضُهم: كاملةٌ في البدل من الهَدْي، والذي أراه في هذا ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ أنّه لمّا قيل: ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ جاز أن يَتَوَهَّمَ المتوهِّمُ أنَّ الفرضَ ثلاثةُ أيامٍ في الحجِّ، أو سبعةٌ في الرجوعِ، فأَعْلَمَ اللّهُ ـ عزّ وجلَّ ـ أنَّ العشرةَ مُفْتَرَضَةٌ كلُّها، فالمعنى: المفروضُ عليكم صومُ عشرةٍ كاملةٍ على ما ذُكرَ من تَفرُّقِها في الحجِّ والرجوعِ»(١).

فليست الواو بمعنى (أو) كما في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]؛ إذ الواو فيها بمعنى (أو)؛ لئلا يظنَّ ظانٌّ أنه يصحَّ جَمْعُ تسعٍ من النساء جملةً واحدةً(٢).

قال كمال الدين الزملكاني: «ومما جاء خبراً لإرادة معنى التأكيد قوله تعالى: ﴿تلك عشرةٌ كاملةٌ﴾؛ لاحتمال أن يعني بالواو معنى (أو)، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]؛ إذ لا يسوغ الجمع بينها»(٣).

ومّما يحسن ذكره ههنا أنّه يروى أنّ الحجّاج بن يوسف الثقفيّ قال لرجل من ولد عبداللّه بن مسعود ـ رضي اللّه عنه، وعن صحابة رسول اللّه ﷺ أجمعين ـ: لِمَ قرأ أبوك ـ يعني عبداللّه بن مسعود رضي اللّه عنه ـ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أنثى﴾ [ص: ٢٣]، أترى لا

(١) معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩، وذكر الزركشيّ ـ رحمه اللّه ـ ثلاث عشرة إجابة أخرى. انظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٧٩ ـ ٤٨٢.
(٢) غرائب آي التنزيل: ٢٠.
(٣) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٣٠٤.

يعلم الناسُ أنّ النعجة أنثى ؟ فقال : قد قُرِئ قبله : ﴿ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ألا يُعلَم أنّ سبعة وثلاثة عشرةٌ؟ فما أحار الحجّاج[1] .

* * *

قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

في هذه الآية العظيمةِ عدةُ فوائدَ :

الفائدة الأولى: في تقديمِ الشهرِ الحرامِ على قوله : ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ ، والأخيرُ يسمّيه أهلُ النحوِ بدلَ الاشتمال ، وذلك يعني أنَّ المرادَ السؤالُ عن القتالِ في الشهرِ الحرامِ ، فكانَ من الممكنِ أنْ يُقالَ : (يسألونك عن قتالٍ في الشهرِ الحرامِ)، أو : (عن القتالِ في الشهر الحرام)، لكنَّه جاءَ على ما في الآية منْ تقديمِ المُبْدَلِ منه ، ثُم الإتيانِ بالبدل ، فلِمَ كان هذا التقديم والتأخير ؟ .

قبل الإجابة على السؤال لا بدّ من معرفة سبب نزول الآية ؛ كي تتضح الإجابة :

(١) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيديّ : ٧ / ٨١ ، نثر الدرّ للآبيّ : ٢ / ١٩٥ .

رويَ أنَّ رسول اللهِ ﷺ بعث عبدَالله بنَ جحشٍ الأسديّ ـ رضي الله عنه ـ علىٰ سريةٍ في شهر جمادىٰ الآخرةِ من السنة الثانية لهجرته ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ قبلَ قتالِ بدرٍ بشهرين؛ ليترصّدَ عِيراً لقريشٍ، فيها عمرُو بنُ عبدِالله الحضرميُّ وثلاثةٌ معه، فقتلوه، وأسروا اثنين ممّن معه، وغنموا العِيرَ، وكانَ ذلك في أوّلِ يومٍ من رجبٍ، وهو أحد الأشهر الحُرُمِ، وهم يظنّونه آخرَ يومٍ في جمادىٰ الآخرة، فقالتْ قريشٌ: قد استحلَّ محمّدٌ الشهرَ الحرامَ، شهراً يأمنُ فيهِ الخائفُ، ويَبْذَعِرُّ فيه الناسُ إلىٰ معايشِهم، أي يتفرّقون إليها.

فوقفَ رسولُ اللهِ ﷺ العِيرَ، وعَظُمَ ذلك علىٰ أصحابِ السريّةِ، وقالوا: ما نبرحُ حتّىٰ تنزلَ توبتُنا، فنزلتْ هذه الآيةُ [١].

فدلَّ سببُ النزولِ علىٰ أنَّ هذا السؤالَ لم يقعْ إلا بعدَ وقوعِ القتالِ في الشهرِ الحرام، وتشنيعِ الكفرةِ عليهم انتهاكَ حرمةِ الشهرِ، فاغتمامُهم واهتمامُهم بالسؤالِ إنّما وَقَعَ مِنْ أجلِ حُرْمَةِ الشهرِ؛ فلذلك قُدّمَ في الذكْرِ، كذا قالَ السهيليُّ رحمه الله[٢].

فقدَّمَ الشهرَ الحرامَ؛ لعمومِ حرمتِه وشمولِها لكلِّ مخالفةٍ من قتلٍ أو غيرِه، ثُمَّ أبدلَ منه ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾؛ لكونه سببَ السؤالِ، فجمعَ بينَ الأمرين، ومعلومٌ عند أهل اللغة أنّ البدل علىٰ نيّة تكرار العامل، فكأنّه

---

(١) أسباب النزول للواحديّ: ٩٨ـ١٠٢، الكشّاف: ١/ ٣٥٦ـ٣٥٧، تفسير الطبريّ: ٢/ ٣٦٠.

(٢) نتائج الفكر في النحو: ٣١٣.

ههنا قال: (يسألونك عن الشهر الحرام، يسألونك عن قتالٍ فيه)، ولو قالَ: (يسألونك عن قتالٍ في الشهر الحرام) لكانَ المسؤولُ عنه القتالَ فقط دونَ سائرِ ما يُنْتَهَكُ به الشهرُ الحرامُ، فسبحانَ مَنْ هذا كلامُه!!!.

الفائدة الثانية: في تنكيرِ قوله: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ حيث لم يقلْ: (القتالِ فيه)؛ وذلك ليدلَّ على أنَّ المرادَ القتالُ، ولو كانَ قليلاً غيرَ مُسْتَحِرٍّ، كما حصلَ في سببِ نزولِ الآيةِ، حيثُ لم يُقْتَلْ إلا كافرٌ واحدٌ، ولو قالَ: (القتالِ) بالتعريفِ لظُنَّ أنَّ المقصودَ القتالُ العظيمُ، باعتبار (أل) دالةً على الكمال، أو أنّه القتالُ المسؤولُ عنه. وهو ما كان سبباً في نزول الآية، باعتبار (أل) للعهد، لكنّ تنكيره دلّ على أنّ المقصودَ أيُّ قتالٍ.

ولعدمِ دلالةِ النكرةِ على الكثرةِ؛ لأنّها لا تدلّ على الكثرة إلا إذا وقعتْ في سياق النفي، ونظراً إلى احتياجه إلى الدلالة عليها في الجوابِ، وَصَفَهُ بما يدلُّ عليه، قالَ: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، واللّهُ أعْلَمُ.

الفائدة الثالثة: قولُه: ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عَلامَ عُطِفَ؟

أَكثرُ المفسّرين والنّحاة على أنّه معطوفٌ على﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾[(١)]، فـ﴿صد﴾ مبتدأ، وهو كائنٌ صداً عن سبيلِ اللّهِ وعن المسجدِ الحرامِ، والخبرُ قوله: ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾، لكنِ اعْتَرَضَ على هذا الإعرابِ بدرُ الدين ابنُ الناظمِ بقوله[(٢)]: «لأنَّ جرّ (المسجدِ) بالعطفِ على ﴿سَبِيلِ

(١) تفسير الرازيّ ٦/ ٢٨ ـ ٢٩، إعراب القرآن للنحّاس ١/ ٢٥٩.
(٢) شرح الألفية: ٥٤٦.

﴿اللَّهِ﴾ ممتنعٌ مثلُه باتفاق؛ لاستلزامه الفصلَ بينَ المصدرِ، وهو ﴿صَدٌّ﴾، ومعمولِه، وهو ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بالأجنبيِّ، وهو قولُه: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾»، ويرىٰ ابنُ الناظمِ أنهَّ يجبُ عطفُ ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ علىٰ الضميرِ المتّصلِ المجرورِ في قولِه: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾، فيكونُ التقديرُ: (وكفرٌ به وبالمسجدِ الحرامِ)، وعطفُ الاسمِ الظاهرِ علىٰ الضميرِ المجرورِ لا يجوزُ عندَ الأكثرين إلا بإعادةِ الجارِّ، كقولِه تعالىٰ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾ [المؤمنون: ٢٢]، وأجازَ بعضُهم [١] ذلك دونَ إعادةِ الجارِّ مستدلين بقولِه تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، بجرّ (الأرحام)، وهي قراءة حمزة[٢]، وبشواهدَ شعريّةٍ كثيرةٍ [٣] تدلُّ علىٰ صحّةِ ما ذهبوا إليه، وأنَّه جائزٌ.

لكنْ علىٰ أيِّ التقديرين يستقيمُ المعنىٰ: (وصدّ عن سبيلِ اللّه وعن المسجد الحرامِ)، أم: (وكفرٌ به وبالمسجدِ الحرامِ)؟

كلا المعنيين مستقيمٌ، لكنّي أميلُ إلىٰ الأوّلِ؛ لأنَّ جُرْمَ الكفارِ ازدادَ بصَدِّهِمُ المسلمين عن دخولِ البيتِ الحرامِ، لا بكفرِهم فيه. واللّهُ أعْلَمُ.

الفائدة الرابعة: ما السِّرُّ في تكرارِ كلمةِ ﴿قِتَالٌ﴾ مع إمكانِ أنْ يقال: (قلْ: هو كبيرٌ)؟؛ إنّ سبب التكرار هو أنَّ التصريحَ به دونَ الإضمارِ وصولاً إلىٰ الدلالةِ علىٰ عمومِ الحُكْمِ لكلِّ قتالٍ، ولو جاءَ مضمراً لاختصَّ الحكمُ بتلك الحادثةِ التي وقعتْ في سريّةِ عبداللّهِ بن

---

(١) هم الكوفيّون، انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: ٢/ ٤٦٣.
(٢) السبعة: ٢٢٦.
(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف: ٢/ ٤٦٤ـ٤٦٥.

جحشٍ، رضي اللّه عنه. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال تعالىٰ: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، فأظهر ﴿الْمَحِيضِ﴾ بعد إضماره حين قال: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾، وكان يمكن أن يقال في غير القرآن: (يسأل النّاس عن المحيض، قل: هو أذىً، فاعتزلوا النساء فيه)، أو يقال: (يسألون عن المحيض، قل: المحيض أذىً، فاعتزلوا النساء في المحيض)، لكن في هذا الأسلوب الأخير تتكرّر كلمة ﴿الْمَحِيضِ﴾ ثلاث مراتٍ، وهو غيرُ حسنٍ، وأمّا الأسلوب الأوّل، وهو الإضمار في الموضعين الأخيرين، فقد علّلَ العدولَ عنه ابنُ القيّمِ رحمه اللّه، فقال: «﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ ولم يقل: (فيه) تعليقاً لحكم الاعتزال بنفس الحيض، وأنّه هو سبب الاعتزال»(١).

وأرىٰ أنّ سبب مجيء سياق الآية علىٰ النحو المذكور هو أنّ ﴿الْمَحِيضِ﴾ في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ هو مصدرٌ ميميٌّ، معناه: الحيض، ولكونِ الحيضِ نفسِه أذىً، ذكره مضمراً حين أراد ذكره مرّة ثانية، فقال: ﴿هُوَ أَذًى﴾، أمّا ﴿الْمَحِيضِ﴾ في قوله:

(١) بدائع الفوائد: ٢ / ٤٨.

﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فليست مثل الأولىٰ، بل هي مختلفةٌ عنها؛ لأنّها هنا ليستْ مصدراً كالأولىٰ، بل هي اسمُ مكانٍ علىٰ رأي أكثر العلماء [١]، أو اسمُ زمانٍ علىٰ رأي بعضهم [٢].

ويلاحظ أنّه يَتَرَتَّبُ علىٰ هذا الخلاف في دلالته علىٰ المكان أو الزمان أحكامٌ فقهيّةٌ حول ما يُعْتَزَلُ من الحائض في زمن حيضها [٣]، ولكنّها في كلتا الحالتين يكون معناها: ويسألونك عن الحيض، قل: الحيض أذًىٰ، فاعتزلوا النساء في مكان الحيض، أو فاعتزلوا النساء في زمان الحيض. واللّه أعلم [٤].

ولكنّنا حينئذٍ لا نحتاج إلىٰ تأويل بعض المفسّرين [٥] الذين يقدّرون: فاعتزلوا النساء في مكان الحيض، أو في زمن الحيض، ولا نحتاج إلىٰ البحث عن أسباب بعيدة للإظهار بعد الإضمار، كما فعل ابن القيّم رحمه اللّه.

---

(١) تفسير الطبريّ: ٢/ ٣٩٤، ٣٩٨، تفسير الرازيّ: ٦/ ٥٥.

(٢) البحر المحيط: ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣، أحكام القرآن لابن العربيّ: ١/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) أحكام القرآن: ١/ ١٦٢ ـ ١٦٤.

(٤) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: «ويستدلُّ لإرادة اسم المكان هنا بقوله صلى الله عليه وسلم: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»، فلا يحرم إلا الوطء في الفرج، وهو مذهب سفيان الثوري وداود الظاهري وأحمد ومحمد بن الحسن، وأصبغ من المالكية، وجماعة يطول ذكرهم، ومن رأى أن المحيض في الآية اسم زمان أو مصدر ميمي، لم يجز المفاخذة ولا ما يقرب منها، واعتمد الأحاديث الصحيحة عن عائشة وميمونة وأم سلمة رضي الله عنهن، أنه عليه الصلاة والسلام كان يأمر إحداهن إذا كانت حائضاً أن تشدّ عليها إزارها، ثم يباشرها. والله أعلم».

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٢/ ٣٦٦.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، هذان الفعلان مختلفا الأصل والمعنىٰ، فالأوّل منهما ﴿يَطْهُرْنَ﴾ مأخوذٌ من الطُّهْرِ، والثاني ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ مأخوذٌ من التّطَهُّرِ، ويقال: طَهُرَتِ المرأةُ، إذا انقطعَ دمُ حيضها، فهو فِعْلٌ طَبَعِيٌّ يقوم بنفسه، ويقال: تَطَهَّرتِ المرأةُ، إذا اغتسلتْ بعد الحيض أو النفاس، فهو فِعْلٌ مُحْدَثٌ من قِبَلِ فاعله، فالمُطَهَّرُ مَنْ طهارتُه كانت خِلْقَةً، كالملائكة والحُورِ العِينِ، والمتطهِّرُ مَنْ فَعَلَ الطهورَ - كالمُتَفَقِّهِ، وهو مَنْ يُدْخِلُ نفسَه في الفقه - مثل الآدميّين والآدميّات إذا تطهّروا.

والجمع بين الفعلين في هذه الآية للدلالة علىٰ اشتراطهما جميعاً قبل حِلِّ إتيان النساء بعد الحيض، فلو حَصَلَ الطُّهْرُ دون الغُسْلِ، أو الغُسْلُ دون الطُّهْرِ لما جاز الجِماعُ(١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧].

الآية الأولى خَتَمَها اللّهُ تعالىٰ بالغفران والرحمة؛ لأنَّ رجوعَ

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: «أقول: هو مذهب مالك والشافعي والجمهور، لكن ذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن المرأة إذا طهرت لأكثر أمد الحيض -وهو عنده عشرة أيام- جاز وطؤها قبل أن تتطهر، وذهب الأوزاعي إلى أنها إن غسلت فرجها بالماء جاز وطؤها، وبه قال أبو محمد بن حزم. فالمسألة خلافية كما ترى، وظاهر الآية مع الجمهور. والله أعلم».

الزوجِ إلىٰ عِشْرَةِ زوجتِه، والإحسانَ إليها بالنَّفَقَةِ والعِشْرَةِ الطيِّبةِ، وعدمَ طلاقِها، عملٌ حسنٌ، وصنيعٌ يستحقُّ عليه المجازاةَ بما هو أحسنُ من صَنيعه، من مغفرةِ اللّٰهِ ورحمته.

والآية الثانية خَتَمها بالسمعِ والعلمِ؛ لأنَّه في مقامِ التعقيبِ علىٰ إيقاعِ الطلاقِ بعدَ اليمينِ والتربُّصِ، والطلاقُ قولٌ، فناسَبَهُ السمعُ والعلمُ بمضمونِه وأسبابِه وغايتِه. واللّٰهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**﴾ [البقرة: ٢٢٨].

التربّص: الانتظارُ، سواءٌ أكان المُنْتَظَرُ خيراً أم شرّاً، والمرادُ به ههنا الانتظارُ والمكثُ في العِدَّةِ.

ويستقيم اللفظ والمعنىٰ لو قيل في غير القرآن الكريم: (المطلقاتُ يتربّصنَ ثلاثةَ قروء)، ولكنْ لزيادة قوله: ﴿**بِأَنفُسِهِنَّ**﴾ فائدةٌ عظيمةٌ، قال الزمخشريّ: «في ذِكْرِ الأنفسِ تهييجٌ لهنّ علىٰ التربّص، وزيادةُ بعثٍ؛ لأنّ فيه ما يُسْتَنْكَفُ منه، فيحملهنّ علىٰ أن يتربّصنَ، وذلك أنَّ أنفسَ النساءِ طوامحُ إلىٰ الرجال، فَأُمِرْنَ أنْ يَقْمَعْنَ أنفسَهنَّ، ويغلبْنَها علىٰ الطموح، ويجْبرنَها علىٰ التربُّصِ»(١).

وقال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعديُّ ـ رحمه اللّٰه تعالىٰ ـ(٢):

(١) الكشّاف: ١ / ٣٦٥.
(٢) المواهب الربّانيّة من الآيات القرآنيّة: ٤.

«اعلمْ أنّ في قوله: ﴿بأَنفُسِهِنَّ﴾ فائدةً جليلةً، وهي أنّ هذه المدّةَ المحدودةَ للتربّص مقصودةٌ لمراعاة حقّ الزوج والولد، ومع قَصْدِ البراءةِ فلا بدّ أن تكون في هذه المدّة منقطعةَ النظرِ عن الرجال، محتبسةً على زوجها الأوّل، لا تُخْطَبُ، ولا تتزيّن للخُطّاب، ولا تعملُ الأسبابَ في الاتصال بغير زوجها».

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ (٢٣٣)﴾ [البقرة: ٢٣٣].

في هذه الآيةِ عدةُ تأمّلات:

التأمّل الأول: في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ فهذه جملةٌ خبريّةٌ معناها الأمرُ، فالتقديرُ: أيّها الوالداتُ أرْضِعْنَ أولادَكُنَّ حولين كاملين، والأمرُ هنا أمرُ نَدْبٍ لا إيجابٍ؛ بدليلِ استحقاقِ الأمِّ الأجرةَ عليه، ولقولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦)﴾ [الطلاق: ٦]، ويصير واجباً إذا لم يَقْبَلِ الصبيّ إلا ثديَ أمِّهِ، أو لم تُوجَدْ له ظِئْرٌ، أو كان الأبُ عاجزاً عن الاستئجار(١).

وقيل(٢): إنّ الخبرَ على معناه، ويكونُ الكلامُ حينئذ أبلغَ؛ لأنّه

(١) الكشّاف: ١ / ٣٧٠.
(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ٤٣٠.

يدلُ على شيئين :

الأول: أنَّ هذا حقٌّ من حقوقِ الأمِّ، لا ينبغي للمولودِ له أنْ ينازعَها فيه.

الثاني: أنّه حقٌّ على الأمِّ، لا ينبغي لها أن تماطِلَ به، أو تتخلى عنه، أو تساومَ فيه.

ويؤيّد ذينك تقديمُ الاسمِ على الفعلِ، والتعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ التي تدلُّ على الحَصْرِ، فلو قيلَ: (تُرْضِعُ الوالداتُ أولادَهن) ما كانَ ملزماً للأمِّ، ولا للمولودِ له. واللّهُ أعْلَمُ.

التأمّل الثاني: في قولِه: ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾، فإنَّ ذِكْرَ المفعولِ به ﴿ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ مع أنّ هذا مفهومٌ من السياق، فيه تذكيرٌ لهنّ بدواعي الحنان والشفقة(١)، وأنّ هؤلاء الذين يحتاجون إلى الرضاعة هم أولاد أولئك المرضعات الذين فُطِرْنَ على حبّهم والشفقة عليهم، فكيف يُعْرِضْنَ عن إرضاعهم ؟.

التأمّل الثالث: في قولِه: ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾، فإنَّ هناك فرقاً بين الإكمال والإتمام، فالإكمالُ لإزالةِ نقصانِ العوارضِ بعد تمامِ الأصلِ، والإتمامُ لإزالةِ نُقْصانِ الأصلِ، كما سبق بيانه (٢).

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢/ ٤٣٠.

(٢) ص: ١٠٨.

فلماذا وَصَفَ الحولين بالكمال ، ووَصَفَ الرضاعةَ بالإتمام ؟

وَصَفَ الحولين بالكمالِ ؛ لأنّ (الحَوْلَ) لفظٌ يَحتَملُ عدمَ الإكمالِ ، فلو قيل : ﴿حَوْلَيْنِ﴾ مجرّداً من الصفةِ ﴿كَامِلَيْنِ﴾ لم يَدُلَّ على استكمالهما قطعاً[1] ؛ إذْ يمكنُ أنْ تقولَ : أقمتُ في مدينةِ الرياضِ حولين ، ولو لم تستكملْهما ، فجعلَ اللّهُ تعالى الحولين الكاملين حدّاً عند اختلافِ الأبوين في مدّةِ الإرضاعِ ، فلا يحقُّ للوالدة الامتناعُ عن إرضاعِ الولدِ قبلَ إكمالِ الحولين ، أمّا لو أرادَ الأبُ فطامَ ولدِه دونَ بلوغِ الحولين فله ذلك ، ما لم يكنْ في ذلك ضررٌ على الولدِ ، أو مُضارّةٌ للأمِّ .

ثُمَّ إنَّ وصفَ الحولين بالكمالِ تنبيهٌ على أنّه لا يجوز تجاوزُ ذلك ، وأنّه لا حُكمَ للإرضاعِ بعدهما .

أمّا استعمالُ الإتمامِ مع الرضاعةِ فلأنَّ الفطامَ يمكنُ أنْ يحصلَ قبلَ استغراقِ المدّةِ المعتادةِ ، ثُمَّ إنَّ الرضاعةَ لا يمكنُ أنْ تكملَ ؛ لأنَّ الطفلَ لو لم يُقْسَرْ على الفطامِ لشبَّ على حبِّ الرضاعِ ، كما قال أبو عبد اللّه محمّد بن سعيد البوصيريّ :

والنَّفسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ[2]

التأمّل الرابع: في قوله : ﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ لِمَ لمْ يقل : وعلى الوالدِ؟ .

(١) انظر : الكشّاف ١ / ٣٦٩ـ ٣٧٠ .

(٢) بردة المديح المباركة : ٦ .

قال العزّ بنُ عبد السلام: «الجوابُ أنَّ الولدَ ينفعُ أباه أكثرَ ممّا ينفعُ أمَّه؛ لأنَّ الولدَ يحملُ أباه في المحافلِ، ويدفعُ عنه في الحروبِ، إلىٰ غيرِ ذلك من النفعِ، ممّا لا يحصلُ للأمِّ، فأرادَ سبحانه أنْ يُنَبِّهَ بـ ﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ علىٰ العلّةِ التي لأجلها اُختُصَّتْ نفقةُ الولدِ بأبيه دونَ أمِّه، ولأنَ اللامَ تستعملُ في النفعِ، فيقالُ: شَهِدَ له، ومنه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وهي هنا مشعرةٌ بالنفعِ الحاصلِ من الولدِ»(١). انتهىٰ كلامه.

واستعمال لفظِ ﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ بدلاً من لفظِ: الوالدِ، أو الأبِ؛ ليدلَّ أيضاً علىٰ إعلامِ الأبِ بفضلِ اللّهِ عليه، حيث مَنَحَهُ الولدَ، وأعطاه إيّاه دون مَشَقّةٍ، ولا نَصَبٍ من الأبِ، فاللّه وحده هو المتفضّل به حين رزقه إيّاه، واللامُ في قوله: ﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ معناها شبه التمليك، فالولدُ شبهُ الملكِ لأبيه يتصرّفُ في مالِه وفي نفسه بما يختارُ غالباً، وكذلك الولدُ يكونُ ـ غالباً ـ مطيعاً لأبيه، ممتثلاً لما يأمرُ به، منفّذاً ما يوصي به. كذا قالَ أبو حيّانَ رحمه اللّه تعالىٰ(٢).

وأقول أيضاً: إنّ التعبير بـ ﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ للدلالة علىٰ أنّ النفقةَ واجبةٌ علىٰ مَنْ يَكْفُلُ الوليدَ في حالة وفاة أبيه، كجدّه، أو أخيه، أو عمّه، أو غير ذلك، فالتعبير بهذه اللفظة أشمل من التعبير بالأب.

واللّهُ أعلَمُ.

---

(١) الفوائد في مشكل القرآن: ١٠٠.

(٢) البحر المحيط: ٢/ ٥٠٠.

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾ [البقرة : ٢٣٥] .

الفعل (يَعْزِمُ) يتعدّىٰ بوساطة حرف الجّر (علىٰ)، أمّا تعديته بنفسه في هذه الآية، ونصبه ﴿ عُقْدَةَ ﴾ علىٰ أنّه مفعولٌ به، فلأنّه ضُمِّنَ معنىٰ فعلٍ آخرَ، هو (لا تَنْوُوا)، ويؤيّده قوله تعالىٰ بعد ذلك : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾، فيكون معنىٰ الآية : لا تعزِموا، ولا تَنْوُوا عقدة النكاح ـ وهي ما به يتمُّ ويصحُّ ـ حتّىٰ تنقضيَ العدّة (١) .

وقيل (٢) : إنّ قوله : ﴿ لَا تَعْزِمُوا ﴾ ضُمِّنَ معنىٰ (لا تعقدوا)، وقيل : إنّ الفعلَ بمعناه الأصليِّ، وقد حُذِفَ حرفُ الجرِّ الذي به تعدّىٰ الفعل، والتقدير : ولا تعزموا علىٰ عقدة النكاح، فهو كقول عنترةَ بنِ شدّاد العبسيّ :

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ (٣)

فقوله : (وأظلُّهُ) أصله : (وأظلُّ عليه)، فحَذَفَ حرفَ الجرِّ،

---

(١) تفسير الرازيّ : ٣/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٢) الكشّاف : ١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤ .

(٣) ديوان عنترة : ٢٤٩ .

وعدّىٰ الفعل بنفسه. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

سبق أن تحدّثتُ عن الفرق بين (إنْ) و﴿إذا﴾[1]، وفي قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ جاءتْ ﴿إن﴾ مع الخوفِ وصَلاتِه، و﴿إذا﴾ مع الأمْنِ وَذِكْرِه؛ لأنّ الخوفَ وصَلاتَهُ قليلا الحدوثِ، فناسَبَ أنْ يأتيَ شرطُها بـ﴿إن﴾ التي تدلّ علىٰ قلّةِ حدوثِ فعلِها وجوابِها، أمّا الأمْنُ وَصَلاتُهُ المعتادةُ فهما الأغلبُ، فاستعمل معهما ﴿إذا﴾ التي تدلّ علىٰ كثرةِ حصولِ فعلِها وجوابِه.

وأنبّهُ هنا علىٰ أنّ الكاف في قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ تفيد التعليل، فهي بمعنىٰ اللام، والمعنىٰ: فاذكروا اللّه؛ لتعليمه إيّاكم ما لم تكونوا تعلمونه، وهي مثل الكاف في قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

(١) ص ١٠٤.

أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

نحن نعلم أنّ جمع التكسير في اللغة العربية ينقسم من حيث دلالته العدديّة قسمين: جمع كثرة، وجمع قلّة.

وجمع القلة هو: ما دلّ على ما دون العشرة من العدد، وجمع الكثرة هو: ما دلّ على أكثرَ من ذلك.

وممّا يدل على القلّة ما جُمعَ بألفٍ وتاءٍ، إذا كان له جمعُ تكسير أيضاً[١]، كقولك: جَفْنَةٌ وَجَفَنَاتٌ وجِفانٌ.

وفي هذه الآية التي هي محلّ وقفتنا قال المولى ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾، فـ ﴿سَنَابِلَ﴾ جمع كثرة؛ لأنّها على وزن (فَعالِلَ)، فلِمَ عبَّرَ بصيغة منتهى الجموع عن العدد (سبعة) الذي حَقُّهُ أن يُعَبَّرَ عنه بجمع القلّة؟ أي: بـ(سنبلات)، كما في سورة (يوسف) حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف: ٤٣].

قيل في سرّ ذلك: «إنّ آية البقرة مبنيّةٌ على ما أَعَدَّ اللّه لِلْمُنْفِقِ في سبيله، وما يُضاعَفُ له من أجرِ إنفاقه، وإنّ ذلك ينتهي إلى سبعمئة ضعفٍ، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ قد يُفْهِمُ الزيادةَ على ما

---

(١) الكتاب: ٢/ ١٤١، المذكّر والمؤنّث لابن الأنباريّ: ١/ ٢٠٣.

نُصَّ عليه من العدد ، كما أشارت إليه آيات [١] وأحاديث [٢] ، فبناء هذه الآية على التكثير ، فناسَبَ ذلك وُرُودُ المفسَّرِ على ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظاً للغاية المقصودة ، ولم يكن ما وضعه للقليل في الغالب ليناسِبَ ما تُلْحَظُ فيه الغايةُ من التكثير .

أمّا آية (يوسف) فإنّما بناؤها على إخبار المَلِكِ عن رؤياه سبعَ سنبلات ، فلا طريقَ هنا لِلَحْظِ كثرةٍ ولا قلّةٍ ؛ لأنّه إخبارٌ برؤيا ، فَوَجْهُهُ الإتيانُ من أبنيةِ الجمعِ بما يناسِبُ المرئيَّ ، وهو قليل ؛ لأنّ ما دون العشرة قليلٌ ، فَلُحِظَ في آية (البقرة) ما بعده مّما يتضاعف إليه هذا العدد ، وليس في آية (يوسف) ما يلحظ ، فافترقَ القَصْدانِ ، وجاء كلٌّ على ما يجبُ ، ويناسِبُ ، واللّهُ أعْلَمُ » [٣] .

وأقول : إنّ سنبلةً فيها سبعمئة حبّةٍ ، مع ستّ مثيلاتٍ لها ؛ لتَبْدُو في عينِ الناظرِ كثيرةً ، فلعلّ هذا مّما ناسبِ معه التعبيرُ عنها بجمع الكثرة ، وهو ﴿ سَنَابِلَ ﴾ ، ومن سياق آية سورة (يوسف) يظهر أنّ كلَّ سنبلةٍ من السنبلات المذكورة فيها هي صغيرةٌ في حجمها ، قليلٌ حبُّها ، فناسب التعبيرُ عنها مع مثيلاتها بجمع القلّة : ﴿ سُنْبُلاتٍ ﴾ ، واللّه أعلم .

---

(١) البقرة : ٢٤٥ ، الحديد : ١١ ، التغابن : ١٧ .

(٢) كما في صحيح البخاريّ ـ رحمه اللّه ـ [٢ / ٢٢١] عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ أنّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : (مَنْ تَصَدّقَ بعدل تمرة من كسبٍ طيّبٍ ـ ولا يقبل اللّه إلا الطيّب ـ وإنّ اللّه يتقبّلها بيمينه ، ثمّ يربّيها لصاحبها كما يربّي أحدكم فلوّه ، حتّى تكون مثل الجبل) .

(٣) ملاك التأويل : ١ / ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٣].

إنّ ختامَ الآيةِ دائمُ التناسقِ مع مبدئها ومحتواها ، روي أنّ أعرابيّاً سَمعَ قارئاً يقرأ قول اللّه تعالىٰ : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨] ، فختمها القارئ بقوله : (واللّه غفور رحيم)، فقال الأعرابيّ : ما هذا كلامٌ فصيحٌ ! ، فقيل له : ليس التلاوةُ كذلك ، وإنّما هي : ﴿واللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، فقال : بَخٍ بَخٍ ، عَزَّ ، فَحكَمَ ، فَقَطَعَ [(١)].

وحُكيَ أنّ أعرابيّاً آخر سَمعَ قارئاً يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة: ٢٠٩]، فقرأها القارئ : (فاعلموا أنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ)، ولم يكن الأعرابيُّ يقرأ القرآن، فقال : إنّ هذا ليس بكلام اللّه ؛ لأنّ الحكيم لا يَذْكُرُ الغفرانَ عند الزَّلَلِ ؛ لأنّه إغراءٌ عليه [(٢)].

ولذلك في هذه الآية الكريمة التي هي محلّ النظرة لـمّا كانَ المقام مقامَ تهديدٍ لأولئك المتصدِّقين الذين يُتْبِعُوْنَ ما أنفقوا منّاً وأذًىٰ ، وهو أيضاً مقامُ إشعارٍ لهم بأنّ الكلامَ الطيب والاعتذارَ الحسنَ مع العفوِ عَمَّنْ أساءَ إليهم، خيرٌ من صدقاتِهم تلك، بيّنَ اللّهُ سبحانَه وتعالىٰ أنّه

---

(١) البحر المحيط : ٤/ ٢٥٥ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٤٠ .

غنيٌ عن الصدقاتِ، لنْ ينالَه منها شيءٌ، وإنّما النفعُ يعودُ عليهم، واللّهُ تعالىٰ مع غناه الكامل حليمٌ علىٰ المانِّ بالصدقات، حيثُ لم يُوقعْ عليه العقوبةَ التي يستحقّها لِمَنِّه، ولكنّه ـ تعالىٰ ـ حليمٌ يصفحُ مع عطائهِ الواسع عَمَّنْ يمُنُّ بمالِ اللّهِ الذي استَوْدَعَهُ إيّاه.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾ [البقرة: ٢٦٧].

لمّا كانَ المقامُ مقاماً لطلبِ الإنفاقِ من الطيّباتِ، واللّهَ غنيٌ عن الطيّبِ والخبيثِ من المالِ، فلا يقبلُ ـ عزّ وجلّ ـ الرديءَ من مالِ عبده، يُقدِّمُه عبدُهُ لنفسه، فاللّهُ أحقُّ مَنْ يُخْتَارُ له خيارُ الأشياءِ وأَنْفَسُها؛ لأنَّ قابلَ الرديءِ إمّا أنْ يقبلَه لحاجتِه إليه، واللّهُ غيرُ محتاجٍ لأحدٍ، وإمّا أنَّ نفسَهُ غيرُ كريمةٍ ولا شريفةٍ، واللّه هو الكريمُ الحميدُ، أي المحمودُ المستحقُّ للحمدِ كلِّه، فلا يقبلُ غيرَ الطَّيِّب، لمّا كان ذلك كذلك ناسَبَ ختامُ الآيةِ بقوله: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

حيث قال: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ وَلِذِكْرِ: ﴿دَيْنٍ﴾ فائدةٌ عظيمةٌ مع

إغناءِ الفعلِ ﴿تَدَايَنتُم﴾ عنها، ففائدتها لفظيّةٌ ومعنويّةٌ، فاللفظيّةُ ليرجعَ إليه الضميرُ في قوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾؛ لأنّه لو لم تُذكرْ تلك الكلمةُ لوجب أنْ يقالَ: (إذا تداينتم فاكتبوا الدين)، وهذا غيرُ حسنٍ، فما في الآية أحسنُ نظماً، قاله الزمخشريّ[(١)].

و قال الزركشيّ: «وهو ممنوعٌ؛ لأنّه كان يمكن أن يعودَ على المصدر المفهوم من ﴿تَدَايَنتُم﴾؛ لأنّه يدلُّ على الدَّيْنِ» [(٢)].

أمّا الفائدةُ المعنويّةُ فإنَّ قولَه: ﴿تَدَايَنتُم﴾ (مُفاعَلَةٌ) من (الدَّيْنِ)، ومن (الدِّينِ)، فمجيء قوله: ﴿بِدَيْنٍ﴾ ليدلَّ على أنّه مِنَ (الدَّيْنِ)، لا مِنَ (الدِّينِ) [(٣)]، وكذلك لو لم تُخَصَّصِ المُفاعَلَةُ بقوله: ﴿بِدَيْنٍ﴾ لجاز أنْ يُقْصَدَ به المجازاةُ بالمودّة، كما قال الراجز:

داينتُ أروى والديـونُ تقضّى

فَمَطَلَتْ بعضاً وأدَّتْ بعضا [(٤)]

وهذا النوع من الدَّينِ لا كتابةَ له، ولا شهودَ عليه [(٥)].

وله فائدةٌ أخرىٰ حيث تبيّنُ تنوّعَ الدينِ إلىٰ مؤجّلٍ وحالٍّ، وأرادَ هنا الدينَ المؤجّلَ؛ لأنّه قال: ﴿بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾.

وأمّا قوله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فوَصَفَ الأجلَ بالمسمّىٰ؛ ليُعلمَ أنَّ

---

(١) الكشّاف: ١/ ٤٠٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٣٩٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ديوان رؤبة بن العجّاج: ٧٩.
(٥) الكشّاف: ١/ ٤٠٢.

التأجيلَ لا بدَّ أنْ يكونَ وقتُه معلوماً ، كالتوقيت بالسّنةِ والشهرِ واليومِ، وليسَ معلّقاً على مجهول [١].

وبهذه المناسَبَةِ أنبِّهُ على أنَّ كثيراً من الناسِ يَخْلِطُون مصطلح (الاسم) بمصطلح (المسمّى)، فيسمّون كلَّ واحدٍ منهما باسم الآخر، فيقولُ أحدهُم: أنا أشتركُ مع فلانٍ بالمسمّى، أو غَيَّرَ فلانٌ مسمّاه إلى كذا، وهذا كلُّه خطأ، فليس الاسمُ هو المسمّى، ولا العكس[٢]، قال ابن السِّيدِ البَطَلْيُوسِيُّ: «ولو صحَّ أنّ يكونَ الاسمُ هو المسمّى لوجبَ أن يَرْوَى مَنْ قال: (ماءٌ)، ويَشْبعَ مَنْ قال: (طعامٌ)، ويَحْترقَ فمُ من قال: (نارٌ)[٣]، ويموتَ مَنْ قالَ: (سَمٌّ)» [٤].

فالمسمّى هو صاحبُ الاسم، فمثلاً: أداةُ الكتابةِ مُسَمّى، والقلمُ اسمُها. وهكذا.

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ

(١) الكشاف: ١/ ٤٠٢ .

(٢) التفسير القيّم: ٤٧٦ ـ ٤٧٧ .

(٣) قال الشاعر:

لو أنّ من قال ناراً أحرقتْ فَمَهُ ... لما تفوّه باسم النار مخلوقُ

انظر: التمثيل والمحاضرة: ٢٦٤ .

(٤) الاسم والمسمّى لابن السيد، تحقيق: أحمد فاروق، مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق: م ٤٧ ، ع٢ ، ص ٢٣٠ .

وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

في هذه الآية وقفتان:

الأولى: أنه قد يَظُنُّ ظانٌّ أنّ ﴿رَجُلَيْنِ﴾ في قوله: ﴿لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ تكرارٌ لضمير التثنية في: ﴿يَكُونَا﴾ حين تُعْرَبُ (يكون) ناقصةً، وألفُ التثنيةِ اسمُها، و ﴿رَجُلَيْنِ﴾ خبرها؛ لأنّ ألفَ التثنية راجعةٌ إلى قوله: ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، وهو بمعنى: رجلين، فكأنّه قال: فإن لم يكن الرجلان رجلين. . .، وهذا محالٌ، إذاً ما فائدة قوله: ﴿رَجُلَيْنِ﴾؟.

قد أجاب بعض العلماء بإجابات كثيرة، منها:

الأوّل: أنّ ألف التثنية راجعةٌ إلى قوله: ﴿شَهِيدَيْنِ﴾، وحينئذٍ لا يكون في الكلام تكرارٌ؛ لأنّ المعنى: فإنْ لم يكن الشهيدان رجلين، وهذا قول الأخفش(١).

الثاني: أنّ المقصودَ بقوله: ﴿رَجُلَيْنِ﴾ العددُ المجرّدُ؛ فالتقدير: فإن لم يكونا اثنين، وهذا الرأي نُقِلَ عن الأخفش أيضاً(٢).

---

(١) معاني القرآن: ١ / ٢٠٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٤٣٩.

الثـالث: أن تكون (يكون) تامّةً، وألفُ الاثنين فاعلَها، و﴿رَجُلَيْنِ﴾ حالاً، فكأنّ المعنىٰ: فإنْ لم يُوجَدِ الشهيدانِ حالَ كونِهما رجلين . . . [١].

والقول الأخير هو الراجح، وتكون الفائدة مِنْ ذِكْرِ ﴿رَجُلَيْنِ﴾ حينئذٍ كما قال الزركشيّ ـ رحمه اللّه ـ: «والذي يظهر في جواب السؤال هو أنّ ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ لمّا صحّ أن يُطلَقَ علىٰ المرأتين، بمعنىٰ: شخصين شهيدين، قَيَّدَهُ بقوله تعالىٰ: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾، ثمّ أعاد الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾ علىٰ الشهيدين المطلقين، وكان عَوْدُهُ عليهما أبلغَ؛ ليكون نفي الصفة عنهما كما كان إثباتها لهما، فيكون الشرط موجباً ونفياً علىٰ الشاهدين المطلقين؛ لأنّ قوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ كالشرط، كأنّه قال: إنْ كانا رجلين، وفي النظم علىٰ هذا الأسلوب من الارتباط وَجَرْيِ الكلامِ علىٰ نسقٍ واحدٍ ما لا خفاء به»[٢].

الوقفة الأخرى: أنّ ظاهر الأمر يقتضي أن يقال: (أن تضلّ إحداهما فتذكّرها الأخرىٰ)، فلماذا أعاد ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ ظاهرةً في موضع الإضمار؟

الجواب عن ذلك: أنّه لو أتىٰ بالضمير مكان الظاهر، فقال: (أن تضلّ إحداهما فتذكّرها الأخرىٰ)، لعاد الضمير علىٰ الضالّة، فكان المعنىٰ: أن تضلّ إحداهما، فتذكّرَ الضالّةَ الأخرىٰ، وذلك ليس هو

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٣٩.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٤٠.

المقصود، بل المراد أنّ الذاكرة تذكّر الناسية في أيّ زمان، قال ابن الحاجب: «لأنّها قد تكون الضالّةُ الآن في الشهادة هي الذاكرة فيها في زمانٍ آخرَ، فالمُذَكِّرَةُ هي الضالّةُ، فإذا قيل: (فتذكّرها الأخرىٰ)، لم يُفِدْ ذلك؛ لِتَعَيُّنِ عَوْدِ الضميرِ إلىٰ الضالّة، وإذا قيل: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ كان مبهماً في كلّ واحدةٍ منهما، فلو ضلّت إحداهما الآن، وذكّرتها الأخرىٰ، فَذَكَرَتْ، كان داخلاً، ثمّ لو انعكس الأمرُ والشهادةُ بعينها في وقتٍ آخرَ انْدَرَجَ أيضاً تحته؛ لوقوع قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ غيرَ مُعَيَّنٍ، ولو قيل: (فتذكّرها الأخرىٰ)، لم تستقم أن تكون مدرجةً تحته إلا [علىٰ] التقدير الأوّل، فَعُلِمَ أنّ العلّة هي التذكير من إحداهما للأخرىٰ، كيفما قُدِّرَ، وإن اختلفتْ، وهذا المعنىٰ لا يفيده إلا ما ذكرناه، فوجب لذلك أن يقال: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾»(١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

إنّ التعبير بـ﴿نَزَّلَ﴾ يختلف عن ﴿أَنزَلَ﴾ إذا اجتمعا، فهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا يمكن أن يجتمعا؛ فالتنزيل يقتضي نزول المنزَّل مفرّقاً ومنجّماً علىٰ أزمنةٍ متنوّعةٍ، والإنزال يكون بإنزال المُنْزَلِ كلّه جملةً واحدةً، لا تفريقَ فيها، ولا تنجيم.

(١) الأمالي النحويّة: ١/ ٤٣.

وأمّا إذا لم يجتمعا فيمكن التعبير بالتنزيل، ويُرادُ به الإنزالُ، ويَرِدُ التعبيرُ بالإنزال، ويُقْصَدُ به التنزيلُ، وفي هاتين الآيتين اجتمعا، فَوَرَدَ التعبيرُ عن نزول القرآن الكريم على رسولنا محمّد ﷺ بالتنزيل، فقال: ﴿نَزَّلَ﴾، وعن نزول الكتب السابقة بالإنزال، فقال: ﴿أَنزَلَ﴾، وتعليل ذلك ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ ما قاله أحمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ الزبير الغرناطيّ(١): «فقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مشيرٌ إلى تفصيل المنزَّل وتنجيمه بحسب الدعاوي، وأنّه لم ينزل دفعةً واحدةً، أمّا لفظ ﴿أنزل﴾ فلا يعطي ذلك إعطاءَ ﴿نزّلَ﴾، وإنْ كان محتملاً، وكذا جرى في أحوال هذه الكتب؛ فإنّ التوراة إنّما أوتيها موسى ﷺ جملةً واحدةً في وقتٍ واحدٍ، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] الآية، أي المجموع، وأمّا الكتاب العزيز فنُزِّلَ مقسّطاً من لدن ابتداء الوحي. . .». انتهى كلام الغرناطيّ رحمه اللّه.

وأقول: وأمّا قوله: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ فليس ناقضاً لهذه القاعدة؛ إذ علّل بعض العلماء التعبير عن ذلك بالإنزال بدل التنزيل بأنّ المقصودَ هنا إنزالُهُ إلى السماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقيل(٢): إنّ المراد بالفرقان في الآية نصرُ رسولنا ﷺ على أعدائه.

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: ١ / ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٢) كشف المعاني: ١٢٤.

وأقول: إنّ هذا القول الأخير أرجحُ عندي؛ إذ يؤيّده قوله تعالىٰ بعده: ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

ومما اجتمع فيه الفعلان، وتفرّقَ معناهما، قوله تعالىٰ في سورة (محمّد): ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، قال ابن الزبير الغرناطيّ[1]: «ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ المؤمنين هم الذين يودّون نزول السورة، وطلبهم نزولها إنّما هو على ما اعتادوه جارياً في غيرها من التنجيم وتفصيل النزول، فالملائم هنا عبارة التضعيف ـ أي: نُزِّلَتْ ـ، وقوله: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ إنّما المراد تحصيلها بجملتها بعد كمالها، وذلك مفهومٌ من سياق الكلام، والملائم ـ لما تَحَصَّلَ، وتَمَّ ـ عبارةُ الإنزال من غير تضعيف، فكلٌّ من الموضعين واردٌ على أنْسَبِ نظمٍ، والعكسُ غيرُ ملائمٍ، والله أعْلَمُ». انتهىٰ كلامه رحمه الله.

وإذا انفرد أحدهما بالذِّكْرِ ـ أعني: أَنْزَلَ، ونَزَّلَ ـ لم يكن ممنوعاً أنْ يَرِدَ أحدهما بمعنىٰ الآخر، فقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان: ٣٢] التنزيل فيه بمعنىٰ الإنزال؛ لأنّه قال: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وجاء التعبير عن الإنزال بالتنزيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

(١) ملاك التأويل: ٢/ ١٠٢٣ ـ ١٠٢٤.

[الأنعام: ٧]، فالمراد الإنزال جملةً واحدةً لدلالة قوله: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ ومثلها قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] ومعلومٌ أنّ التوراةَ أُنْزِلَتْ مُجْتَمِعَةً. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

إنّ الأصلَ في الأسماء إذا ذُكِرَت ابتداءً أنْ تكونَ ظاهرةً، فإذا ذُكِرَتْ بعدُ أُضْمِرَتْ استغناءً بالاسم الظاهر المتقدِّم، فتكرار الكلمة إطنابٌ، والإيجازُ يدعو إلىٰ ضدِّ ذلك، والإظهارُ يَحْسُنُ في موضعِهِ، كما هو الإضمارُ في موضعِهِ.

ولكنَّ الإظهارَ في موضع الإضمار أتىٰ في القرآن الكريم كثيراً مُحَقِّقاً فوائدَ عظيمةً وصلتْ به إلىٰ قمّة البلاغة، وتسنّمت به ذرىٰ الفصاحة وسنامها، ومن هذا الباب تلك الآية التي بين أيدينا، فتأمّلوا تكريره كلمةَ ﴿الْمُلْك﴾ حين قال: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾؛ لأنّه لو قال: (تؤتيه) لعادَ الضميرُ إلىٰ ﴿الْمُلْكِ﴾ في قوله: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، وهو مُلْكُ اللّه، قاله ابن الخشّاب[1]، ولأَوْهَمَ ذلك أنّ اللّهَ تعالىٰ يُعطي مُلْكَهُ كُلَّهُ مَنْ يشاءُ، وهذا غيرُ صحيحٍ، وغيرُ مرادٍ، بل المراد أنَّ اللّهَ

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٨٨.

يُعطي شيئاً قليلاً من مُلْكِه لبعضِ البشرِ، لا ينقصُ ذلك مهما كثر من مُلْكه ـ تعالىٰ ـ شيئاً، أمّا تكرارُ المُلْكِ مرةً ثالثةً في قوله: ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ﴾ فلتعددِ المالكين. واللّهُ أعلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾ [آل عمران: ٤٥].

أشكلَ علىٰ المفسرين الضميرُ المُذَكَّرُ في قوله: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ كيف يعود علىٰ المؤنَّثِ، وهو ﴿بِكَلِمَةٍ﴾؟ (١)، ولِمَ لمْ يقلْ: (بكلمةٍ منه اسمُها)؟.

والجوابُ علىٰ هذا الإشكالِ (٢): أنَّ المرادَ بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ هو عيسىٰ ابنُ مريمَ ـ عليه السلام ـ وهو مُذَكَّرٌ، فأعادَ الضميرَ علىٰ المؤنَّثِ مُذَكَّراً نظراً إلىٰ المراد منه، والعربُ في كلامها تُغَلِّبُ المُذَكَّرَ علىٰ المؤنَّثِ، والذي جَعَلَ ذلك الصنيعَ حسناً أنَّ قولَه: ﴿اسْمُهُ﴾ إعرابه مبتدأ، وخبرُه قولُه: ﴿الْمَسِيحُ﴾، وهو مُذَكَّرٌ، فَذَكَّرَ الضميرَ في المبتدأ؛ ليناسبَ الخبرَ، ولذلك: تقولُ: أهديتُكَ هديةً، هي قلمٌ، لكنْ أحسنُ منه أنْ تقولَ: أهديتُكَ هديةً، هو قلمٌ.

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ١ / ٤١١، إعراب القرآن للنحّاس: ١ / ٣٣٢.

(٢) انظر: حقائق التأويل في متشابه التنزيل للشريف الرضيّ: ١٠٠.

وكما أشكلتْ هذه الآيةُ على المُفَسِّرِينَ أشكلتْ أيضاً على النحاة[1]؛ لأنَّهم يقولون: إذا اجتمعَ اسمٌ ولقبٌ قُدِّمَ الاسمُ وجوباً، فتقولُ: هو محمّدُ بنُ عبدِالله الهاشميُّ ﷺ، ولا يصحُ أنْ تقولَ: هو الهاشميُّ محمّدُ بنُ عبدِالله ﷺ، كما يفعلُ إخوانُنا أهلُ المغربِ العربيِّ حين يقولون: الناصريُّ عليٌّ، وفي ظاهرِ هذه الآيةِ أنَّه قَدَّمَ اللقبَ، وهو ﴿الْمَسِيحُ﴾، على الاسمِ ﴿عِيسَى﴾، وقدْ حاولَ النحاةُ تخريجَ هذه الآيةِ على عِدّةِ تخريجاتٍ: أصحُّها أنَّ المسيحَ ليس لقباً لعيسى ـ عليه السلام ـ وإنّما هو اسمٌ له.

وأعجبُ كيفَ ذهبَ النحويّون في هذه الآيةِ كلَّ مذهبٍ، واللّهُ تعالى يقولُ: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ فهذا نصٌّ من اللّه تعالى على أنَّ المسيحَ اسمٌ لعيسى ـ عليه السلام ـ، فهل اسمُه مركبٌ كما يفعلُ كثيرٌ من المسلمين عرباً وغيرَ عربٍ؟ ربَّما يكونُ ذلكَ، لكنَّ الراجحَ عندي أنَّ لعيسى ـ عليه السلام ـ أكثرَ من اسم، كما كانَ لرسولِنا ﷺ أكثرُ من اسم، حيثُ كانَ يسمّى محمّداً، وأحمدَ، وطهَ، وغيرَها.

أمّا قولُه: ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فلهُ فائدةٌ عظيمةٌ، فمعَ أنَّ مريمَ لا تحتاجُ إلى أنْ تُخْبَرَ أنَّه ابنٌ لها؛ لعدم الشكِّ في بُنُوَّتِهِ لها، لكنّه مع ذلك نَصَّ عليها، وفائدة هذا النّصِّ أنَّ العُرْفَ جَرَىٰ على أنْ يُنْسَبَ الولدُ إلى أبيه لا إلى أمِّه، فَنِسْبَتُهُ إلى أمِّه إعلامٌ لها بأنه يُوْلَدُ من غيرِ أبٍ، وهذه خصيصةٌ يَخُصُّ اللّهُ تعالى بها مريمَ، بتطهيرها واصطفائها بهذه المكرمةِ

(١) البحر المحيط: ٣/ ١٥٤.

العظيمة، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ [آل عمران: ٤٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾ [آل عمران: ٩٩].

سبيلُ اللّهِ هو دينُ الإسلامِ، أمّا صَدُّ أهلِ الكتابِ عن سبيلِ اللّهِ فقد قيل فيه:

إنّهم يحتالون لصدّ مَنْ أرادَ الدخولَ في الإسلامِ عن ذلك، وهذا التأويلُ يصحُ عند تأويلِ ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بـمَنْ أرادَ الإيمانَ.

وأحسنُ من هذا التفسيرِ أنْ يقالَ: إنّهم يحاولون افتتانَ المسلمين بأن يثيروا ما بينهم من عداواتٍ جاهليّةٍ، كما كانَ اليهودُ يفعلون مع الأوسِ والخزرجِ، أو بأنْ يشكّكوا في دينِ الإسلامِ وبالرسول ﷺ إذْ كانوا يقولون: إنّ صفته ـ عليه السلام ـ ليست في كتابِهم، ولا تقدّمتِ البشارةُ به ـ عليه الصلاة والسلام ـ في كتابهم.

والذي أريدُ أنْ ألفتَ إليه الأنظار في هذه الآية هو قوله: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، فالضميرُ يعودُ على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، والسبيلُ يُذكّرُ ويُؤنّثُ، وهذه الآيةُ شاهدٌ على تأنيثه، ومثلُها قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، ومن التذكير قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف: ١٤٦]، والأصلُ أنْ يقالَ: (تبغونَ لها عوجاً)؛ لأنّ الفعلَ (بغى) غيرُ مُتَعَدٍّ بنفسه، لكنْ عُدلَ عنه إلى ما هو أبلغُ، فإنَّ المعنى مع تقديرِ حرفِ الجرِّ هو: تطلبون لها اعوجاجاً، فيكونُ ﴿عِوَجًا﴾ مفعولاً به، لكنْ ما وردَ في الآيةِ من حذفِ اللامِ، وجَعْلِ الضميرِ مفعولاً به، وجَعْلِ ﴿عِوَجًا﴾ حالاً أكملُ في المعنى، حيثُ إنَّهم يريدون أنْ تكونَ الطريقَةُ المستقيمةُ المشهودُ لها بالعدلِ العِوَجَ نفسَهُ، كما تقولُ: عمرُ عَدْلٌ؛ فهو أبلغُ من قولِك: عمرُ عادلٌ؛ ففي المثالِ الأولِ كأنَّ عمرَ صارَ العدلَ كلَّه، وهكذا شأنُ أهلِ الكتابِ يريدون من الإسلامِ أن يكونَ العوجَ كلَّهُ، لا أن يكونَ مُعْوَجّاً فقط.

واللّه أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ [آل عمران: ١١٠].

عدَّ بعض المفسرين والنحاةِ (كان) ههنا زائدةً[١]، وجعلَ المعنى: أنتم خيرُ أمةٍ أُخرِجَتْ للنّاس، وبعضُهم جعلها بمعنى (صار)، أي: صرتم خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس.

وهذان القولان غيرُ حسنين؛ فادعاءُ زيادتِها خطأٌ واضحٌ؛ لأنّ

(١) البحر المحيط: ٣/ ٣٠٠.

(كان) لا تزاد في أوّل الكلام [١]، وأمّا جعلُها بمعنىٰ (صار) فمعناها: أنّهم لم يكونوا خيرَ أمةٍ للنّاس، ولكنّهم صاروا فيما بعدُ، وهو صحيحٌ لو أُرِيدَ بهذه الأمّةِ العربُ، أمّا والمراد بها المسلمونَ فالمعنىٰ غيرُ مستقيم.

ولعلّ الصحيحَ ـ واللّه أعلم ـ أنَّ ﴿كان﴾ علىٰ معناها الأصليّ مع إفادةِ معنىٰ الدوام، أي: كنتم في سابق علم اللّه، أو يومَ أخذَ اللّهُ المواثيقَ علىٰ الذريّة، خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس، ولا تزالون كذلك، فتفيدُ ﴿كان﴾ هنا أنَّ خَيْرِيَّتَهُمْ علىٰ النّاس صفةٌ أصيلةٌ فيهم، لا عارضةٌ متجدِّدةٌ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قبل الإبحار بسفينة التأمّل في هذه الآية الكريمة يجدر بي أن أتناول آراء العلماء في القول بوقوع الزيادة في القرآن الكريم، فأقول:

اختلف العلماء في القول بوقوع الزيادة في القرآن الكريم، وفي تسميتها، سواءً وقعتْ بالحرف، أم بالفعل؛ فالبصريّون يجيزون وقوعها، ويسمّونها (زيادةً، أو لغواً)، والكوفيّون يجيزون أيضاً وقوعها، ويسمّونها (صِلَةً، أو حَشْواً).

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ٨٣.

والعلماء في القول بوقوع الزيادة في القرآن فريقان [١] :

فريقٌ ينفيه كالمبرّد وثعلب وابن السرّاج، قال الشريف الرضيّ [٢] : «وأقول: إنّ لأبي العبّاس المبرّد مذهباً في جملة الحروف المزيدة في القرآن، أنا أذهبُ إليه، وأتْبَعُ نَهْجَهُ فيه، وهو اعتقادُ أنّه ليس شيءٌ من الحروف جاء في القرآن إلا لمعنًى مفيدٍ، ولا يجوز أنْ يكونَ لَقًى مُطَّرَحاً، ولا خالياً من الفائدة صِفْراً، وذلك أنّ الزياداتِ والنقائصَ في الكلام إنّما يُضطرّ إليها، ويُحمَل عليها الشعرُ الذي هو مقيّدٌ بالأوزان والقوافي . . .

فأمّا إذا كان الكلامُ محلولَ العِقالِ، مخلوعَ العِذارِ، مُمكَّناً من الجري في مضماره، غيرَ محجوزٍ بينه وبين غاياته، فإنْ شاءَ صاحبُهُ أرسلَ عِنانَه، فخرجَ جامحاً، وإن شاء قَدَعَ لجامَهُ [أي: كَبَحَهُ]، فوَقَفَ جانحاً، لا يحصره أمدٌ دون أمدٍ، ولا يقف به حدٌّ دون حدٍّ، فلا تكون الزياداتُ الواقعةُ فيه إلا عِيّاً واستراحةً ولُغُوْباً وإلاحةً، وهذه منزلةٌ تَرَفَّعَ عنها كلامُ اللّه سبحانه الذي هو المُتَعَذِّرُ المُعْوِزُ، والممتنعُ المُعْجِزُ».

والفريق الثاني: يثبت الزيادةَ في القرآن الكريم، وهم أكثر المفسرين والنّحاة والفقهاء، وإنْ كَرِهَ اسمَها بعضُهُمْ، كابن هشام الذي يقول: «وينبغي أن يَتَجَنَّبَ المُعْرِبُ أنْ يقولَ في حرفٍ في كتاب اللّه تعالى: إنّه زائدٌ؛ لأنّه يسبقُ إلى الأذهانِ أنّ الزائد هو الذي لا معنى له، وكلامُ

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشيّ: ٣/ ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) حقائق التأويل في متشابه التنزيل: ١٦٥ ـ ١٦٦.

اللّه سبحانه منزّهٌ عن ذلك»[١].

وهذا الفريق صنفان:

صنفٌ يجعلُ وجودَ الزائد كالعدم، ولا شكَّ في أنّ هذا قولٌ فاسدٌ لا يصحّ، وهو الذي جعل النافين يشنِّعون على المثبتين إثباتَهم الزيادةَ في القرآن، كما فعل الشريف الرضيّ آنفاً؛ لأنّهم يعتقدون أنّ الزائد ليس له فائدةٌ في الإعراب ولا في المعنى، ولا شكّ في أنّ الحكم بوجود زيادة في القرآن الكريم على هذا التعريف لها ـ وهو: ما لا تأثيرَ للمزيد في الإعراب ولا في المعنى ـ غيرُ صحيح.

والصنف الثاني: يجعل الزائدَ غيرَ مؤثّر في الإعراب فقط، أمّا في المعنى فلا يكتفي بإثبات معنًى له، بل يجعل له معنًى زائداً في الجملة عليها لو خَلَتْ منه.

قال ابن يعيش: «وقد أنكر بعضهم وقوع هذه الأحرف زوائدَ لغير معنى؛ إذ ذلك يكون كالعبث، والتنزيلُ منزّهٌ عن مثل ذلك.

وليس يخلو إنكارهم لذلك من أنهم لم يجدوه في اللغة، أو لما ذكروه من المعنى، فإن كان الأول فقد جاء منه في التنزيل والشعر مالا يحصى. ، وإن كان الثاني فليس كما ظنوا؛ لأن قولنا: (زائد) ليس المراد أنه قد دخل لغير معنى البتة، بل يزيد لِضَرْب من التأكيد، والتأكيد معنى صحيح، قال سيبويه[٢] عقيب ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة:

(١) الإعراب عن قواعد الإعراب: ١٠٨.
(٢) الكتاب: ١/ ٩٢، ٢/ ٣٠٥.

١٣] ونظائره: فهو لغو من حيث إنها لم تُحْدِثْ شيئاً لم يكن قبل أن تجيء، من المعنىٰ سوىٰ تأكيد الكلام»(١).

ومّما سبق يتبيّنُ أنّ سبب الخلاف في إثبات وقوع الزيادة أو الصلة في كتاب اللّه تعالىٰ راجعٌ ـ ككثير من الأشياء المنفيّة عن القرآن الكريم كالمجاز مثلاً ـ إلىٰ الاختلاف في تعريف الزائد، فَمَنْ عرّفه بأنّه: (ما ليس له أثرٌ في الإعراب ولا المعنىٰ). نفىٰ وقوعه، وأمّا من عرّفه بأنّه: (ما لا أثر له في الإعراب، وله أثرٌ في المعنىٰ). أجاز وقوعه، وهو الصحيح، فمِمّا لا شكّ فيه أنّ الحرف الزائد لا يؤثّر في الإعراب، أمّا تأثيره في المعنىٰ فيتضح في الآيات التي قيل فيها بالزيادة، كهذه الآية التي بين أيدينا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإنّ ﴿ما﴾ في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ زائدةٌ، ومعنىٰ الآية: ما لنتَ لهم إلا برحمة عظيمة من اللّه(٢)، ولو لم تُزَدْ ﴿ما﴾ لجاز أن يكون اللين حاصلاً بسبب الرحمة وغيرها، أَمَا وقد زيدت فيه ﴿ما﴾ فقد نابت هنا عن نفي وإثبات، وأفادتِ الحَصْرَ، فَقَطَعَتْ بأنّ اللِيْنَ لم يكن إلا بسبب الرحمة، وهذا يدلّ علىٰ أنّ للزائد معنًىٰ زائداً، وأنّه ليس مُهْمَلَ المعنىٰ، ولذلك ردّ أبوحيانَ ـ رحمه اللّه ـ علىٰ الرازيّ إنكاره

---

(١) شرح المفصل: ٨/١٢٨-١٢٩.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٧٢.

جَعْلَ ﴿ما﴾ ههنا زائدةً، حيث كان الرازيّ يرىٰ أنّ دخول اللفظ المهملِ الوضعِ في كلام أحكم الحاكمين غيرُ جائز [١]، لكنّ المحقّقين يخالفونه في هذا، ومنهم أبوحيّانَ الذي خالفه قائلاً [٢]: «وما قاله المحقّقون صحيحٌ، لكنّ زيادة ﴿ما﴾ للتوكيد لا ينكره في أماكنه مَنْ له أدنىٰ تعلّقٍ بالعربيّة فضلاً عن مَنْ يتعاطىٰ تفسيرَ كلامِ اللّهِ، وليس ﴿ما﴾ في هذا المكان ممّا يتوهّمه أحدٌ مُهْمَلاً». انتهىٰ كلامه.

والرأي المتناقض للفريقين في هذه الآية يوضّح أن السبب في ذلك هو ما ذكرته آنفاً من أنّ سبب الاختلاف في الجواز وعدمه راجعٌ إلىٰ الاختلاف في المراد بالزيادة.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿المنّ﴾ صفةُ مدحٍ وصفةُ ذمٍّ، فهي في حقّ اللّه تعالىٰ مدحٌ، فَمَنُّ اللّهِ ابتداؤه وتفضلُه بالنعمِ العظيمة من غيرِ أنْ يَعْتَدَّ سبحانه وتعالىٰ بمقابلتها من خلقه بمثلها، فهو يُحْسِنُ إلىٰ مَنْ لا يستثيبُه، ولا يطلبُ منه الجزاءَ عليه، وهذا النوعُ لا يكون إلا بالأفعالِ، فلا يصاحبه مَنٌّ قوليٌّ، وهذا النوع خاصٌّ باللّه جلَّ وعلا.

---

(١) تفسير الرازيّ: ٩/ ٥١.

(٢) البحر المحيط: ٣/ ٤٠٧ـ٤٠٨.

ويكونُ المنُّ في حقِّ غيرِ اللّهِ تعالىٰ ذمّاً ؛ لأنّه القولُ أو الفعلُ المشعرُ بتعالي صاحبِ الفضلِ علىٰ المتفضَّلِ عليه بتعظيمِ إحسانه إليه، وفخره به، وتذكيره إيّاه، وأنْ يُبدئ فيه، ويعيدَ حتىٰ يفسدَهُ، ويُبغِّضَهُ إليه، ومن هذا النوعِ قولُه تعالىٰ : ﴿الَّذينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ في سَبيلِ اللَّه ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أنفقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وعوداً علىٰ بدءٍ أقول: إنَّ قولَه تعالىٰ في الآية الأولىٰ: ﴿رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ غايةٌ في روعةِ التعبير، فقولُه: ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يدلُّ علىٰ القربِ والخصوصِ الحقيقيّين؛ لأنَّ قولك: محمّدٌ من أَنْفُسِ المؤمنين، يدلُّ علىٰ أنَّه من خاصّتهم، وأنَّه قريبٌ جدّاً منهم، لا أنّه منتسبٌ إليهم انتساباً قدْ يكونُ مجازيّاً مراداً به التشريفُ، كقولِ الرسولِ ﷺ: (سلمانُ منَّا أهلَ البيت)[١]، فالرسولُ ﷺ من أقربِ المقرّبين إلىٰ المؤمنين، ولذلك لـمّا كانَ الحديثُ غيرَ خاصٍّ بالمؤمنين في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]، لم يقل فيها: (من أنفسهم)، وإنّما قال: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ الكلامَ عن العربِ عامّةً، لا عن المؤمنين خاصّةً، قال أحمدُ بنُ إبراهيمَ الغرناطيُّ[٢]: «إنَّ قولَك: فلانٌ من أَنْفُسِ القومِ، أوقعُ في القربِ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤ / ١ / ٥٩، والحاكم في المستدرك ٣ / ٥٩٨، والذهبيّ في سير أعلام النبلاء ١ / ٥٤٠، وقال عنه الذهبيّ: سنده ضعيف.

(٢) ملاك التأويل: ١ / ٣٢١ـ٣٢٢.

والخصوصِ من قولك: فلانٌ منهم؛ فإنَّ هذا قد يُرادُ للنوعيّة، فلا يَتَخَلَّصُ لتقريبِ المنزلةِ والشرفِ إلا بقرينة، أمَّا (من أنفسهم) فأخصُّ، فلا يفتقرُ إلىٰ قرينةٍ، ولذلك وردتْ حيثُ قُصِدَ التعريفُ بعظيمِ النعمةِ به ﷺ علىٰ أمّتِه، وجليلِ إشفاقِه، وحرصِه علىٰ نجاتِهم، ورأفتِه ورحمتِه بهم، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالىٰ في مَنْ كان علىٰ الضدِّ من حالِ المؤمنين المستجيبين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل: ١١٣] فتأمّلْ موقعَ قوله هنا: ﴿مِّنْهُمْ﴾ لمّا قَصَدَ أنّه إنعامٌ عليهم لم يُوَفَّقوا لمعرفةِ قدرِه، ولا للاستجابةِ المثمرةِ النجاة...».

* * *

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢].

عدّىٰ الفعلَ ﴿تَأْكُلُوا﴾ إلىٰ مفعولٍ ثانٍ هو ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾؛ لأنّه ضَمَّنَهُ معنىٰ فعلٍ آخرَ هو (يضمّ)، فالمراد به هنا (لا تضُمُّوا)(١).

ويكون معنىٰ الآية: ولا تأكلوا، ولا تضمّوا أموالَهم إلىٰ أموالِكم(٢)، ولو لم يُؤْتَ بـ ﴿إلىٰ﴾ ما كانَ النهيُ إلا عن الأكل فقط، وما دَخَلَ في المنهيّ عنه الضمُّ الذي قد يُوْقِعُ في الإنفاقِ من أموال اليتامىٰ لالتباس المنفِق بأنّها من أمواله، فهذا من النهي عن مقاربة

(١) تفسير الرازيّ: ٩/ ١٣٨.
(٢) الكشّاف: ١/ ٤٩٥.

المحذورات خشيةَ الوقوعِ فيها .

وههنا إشارةٌ لطيفةٌ إلىٰ قوله : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ ، فالنهي فيها إنّما هو عن مَسِّ مالِ اليتيم بأيِّ وجهٍ من الوجوهِ غيرِ الجائزة ، سواءٌ أكان بالأكل أم اللباسِ أم النكاحِ أم غيرها ، لكنْ خُصَّ الأكلُ بالتنبيه عليه ؛ لأنَّ العربَ كانت تكرهُ الإكثارَ من الأكل ، وتذمّ به ، قال الشاعر :

إذا ما الفتى لم يَبْغِ إلا لباسهُ وَمَطْعَمَهُ فالخيرُ منه بعيدُ (١)

وتَعُدُّ البطْنَةَ مِنَ البِهِيمِيَّةِ ، وتَعِيبُ علىٰ مَنِ اتخذها دَيْدَنَهُ ، فقالت : (فلانٌ عبدُ بطنهِ) (٢) وقال بعض الحكماء عن صاحب له : (عَظَّمَهُ في عيني صِغَرُ الدنيا في عينيه ؛ كان خارجاً من سلطان بطنه ؛ فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكْثِرُ إذا وجد) (٣) . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في بعض خطبه : (إياكم والبطنة ؛ فإنها مكسلةٌ عن العبادة ، مفسدةٌ للجسم ، مؤديةٌ للسقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم ؛ فإنه أبعدُ من السرف ، وأصحّ للبدن ، وأقوىٰ للعبادة ، وإنّ العبد لن يهلك حتىٰ يؤثر شهوته علىٰ دينه)(٤) ، وقال عبدالله بن الزبير الأسدي :

فلا تكونن كَمَنْ ألقتهُ بِطْنَتُهُ بين القرينين حتى ظلَّ مقرونا (٥)

---

(١) محاضرات الأدباء : ١٦٩ .

(٢) التمثيل والمحاضرة : ٣١٩ .

(٣) محاضرات الأدباء : ١٣٤ .

(٤) المجتنى لابن دريد : ٣٨ ، التذكرة الحمدونية : ١/ ١٢٤ .

(٥) شعره : ١٣٢ .

وكانت العرب تفخر بعدم الجشع في الأكل، قال الشنفرى:

وإن مُدّتِ الأيدي إلى الزاد لم أكنْ بأعجلهم إذ أجْشَعُ الناسِ أعجلُ(١)

ولذلك غضب الزبرقان بن بدر - رضي اللّه عنه -(٢) من قول الحطيئة:

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغيَتِها واقْعُدْ فإنّكَ أنتَ الطاعِمُ الكاسي(٣)

وقال آخر:

يا بني المنذرِ بنِ عَبدانَ والبِطْنَةُ مما يُسَفِّهُ الأحلاما(٤)

وقال معاوية بن أبي سفيان - رضي اللّه عنهما -: (البِطْنَةُ تأْفِنُ الفِطْنَةَ)(٥)، وقال عمرو بن العاص لمعاوية - رضي اللّه عنهما - يوم الحكمين: (أَكْثِرْ لهم من الطعام؛ فواللّه ما بَطِنَ قومٌ إلا فَقَدُوا بعضَ عقولِهِمْ)(٦).

وقال الشاعر:

أتانا ولم يعدله سحبانُ وائلٍ بياناً وعلماً بالذي هو قائلُ

فما زال عنه اللقمُ حتى كأنّه من العيِّ لمّا أن تكلّم باقلُ(٧)

---

(١) شرح لامية العجم: ٥٣.

(٢) الشعر والشعراء: ١/ ٣٢٨.

(٣) ديوانه: ٥٠.

(٤) اللسان: (بطن) ١٣/ ٥٣.

(٥) الزاهر لابن الأنباري: ١/ ٥٦٣، مجمع الأمثال: ١/ ١٠٦، أمالي ابن الشجري: ٢/ ٤٩٩.

(٦) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: ٤٠٩.

(٧) أمالي ابن الشجري: ٢/ ٤٩٩.

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: «ما شبعتُ منذ ست عشرة سنة؛ لأنّ الشبعَ يُثقِلُ البدن، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة»[١].

وليس كذلك سائرُ الملاذّ عند العرب؛ فإنّهم ربّما يتفاخرون بالإكثار من النكاح، ويعدّونه من زينة الدنيا، فكانت إيادُ تفخر على العرب، وتقول: منّا أجودُ الناس كعبُ بنُ مامةَ، ومنّا أشعرُ الناسِ أبو دواد، ومنّا أنكحُ الناسِ ابنُ ألغزَ[٢].

وقال النابغة الجعديّ رضي الله عنه:

فما وجدتْ فرقةٌ عربيةٌ   كفيلاً دنا منا أعزَّ وأنصرا

وأكثرَ منا ناكحاً لغريبةٍ   أصيبتْ سِباءً أو أرادتْ تخيّرا[٣]

فلمّا كانَ الأكلُ عندهم أقبحَ الملاذّ خُصَّ بالنهي عنه في الآية؛ لتنْفُرَ النفسُ منه بمقتضى طبعها المألوف، فيجرَّها ذلك إلى النفورِ من صرفِ مالِ اليتيم في سائرِ الملاذّ الأخرى[٤]. والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

---

(١) التذكرة الحمدونية: ١/ ٢٠٩.
(٢) الأغاني: ١٦/ ٤٨.
(٣) شعره: ٦٧.
(٤) انظر: الإنصاف فيما تضمنه الكشّاف من الاعتزال: ١/ ٤٩٥.

توطئة :

إنّ المتأمّلَ كتابَ اللّه تعالىٰ يجد فيه (كان) واردة علىٰ خمسة معانٍ[1]، هي :

المعنى الأول: (كانَ) التي تدلُّ علىٰ حصولِ ما دخلتْ عليه في الزمنِ الماضي ثُمَّ انقطاعِه.

وهذا هو الأصلُ في معانيها، وهي (كان) الناقصةُ التي ترفعُ المبتدأ، وتنصبُ الخبرَ، مثلُ قولك: كانَ المطرُ نازلاً، فنزولُ المطرِ كان في زمنٍ مضىٰ، وانقضىٰ، أمّا في وقتِ التكلّمِ فالمطرُ منقطعٌ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ** ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨]، وقولُه: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

المعنى الثاني: (كان) التي تدلُّ علىٰ الدوامِ، وعلىٰ استمرارِ مضمونِ خبرِها في جميعِ الأزمنَة، فلا يجوزُ أنْ تُجْعَلَ مّما حَصَلَ مضمونُ خبرِها في الزمن الماضي، ثُمَّ انقطعَ، ولو جاءتْ بلفظ الماضي فهي ترادفُ قولَك: (لم يَزَلْ)، وأكثرُ ما يكونُ هذا المعنىٰ في (كان) الداخلةِ علىٰ صفاتِ اللّه؛ لأنَّ صفاتِه مستمرّةٌ غيرُ منقطعةٍ، ومنْ هذا

---

(١) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٢٦١ ـ ٢٦٢، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ٥١٧ ـ ٥١٩.

النوع قولُ اللّه ـ تبارك وتعالىٰ ـ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، وقولُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وقولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]؛ فاللّه كان سميعاً بصيراً، وغفوراً رحيماً، ورقيباً، في الزمن الماضي، ولم يزل كذلك، وسيدومُ عليه.

وقد وردت (كان) الدالّةُ علىٰ الدوامِ في غير صفاتِ اللّه تعالىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)﴾ [النساء: ٢٢]، وقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾ [الإنسان: ٢٢]، ومنه قولُ الشاعر قيسِ بنِ الخَطيم:

وكنتُ امرءاً لا أسْمَعُ الدهرَ سُبَّةً أُسَبُّ بها إلا كَشَفْتُ غطاءها[1]

فقولُهُ: (الدهرَ) يدلُّ علىٰ إرادته بـ(كنتُ) الدوامَ.

المعنى الثالث: (كان) بمعنىٰ (صار)، أي: تحوَّلَ من حالٍ إلىٰ حالٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾ [القمر: ٣١]، أي: صاروا كهشيم المُحْتَظِرِ، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، أي: صارَ منهم؛ لأنّه قَبْلَ الأمرِ بالسجودِ لم يكنْ منهم، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فـ﴿كُنتَ

(١) ديوانه: ١٠.

عَلَيْهَا﴾ بمعنى: صرتَ عليها؛ لأنَّ تحويلَ القبلةِ هو الذي حَصَلَ فيه الامتحانُ، ومنه قولُ الشاعرِ عمرو بن أحمر:

بتَيْهاءَ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأنَّها قَطا الحَزْنِ قد كانتْ فِراخاً بُيُوضُها (١)

المعنى الرابع: (كان) الدالّةُ على الزمنِ الحاضرِ، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾** [النساء: ١٠٣]، وقوله: **﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾** [البقرة: ٢٣٢].

المعنى الخامس: (كان) الدالّةُ على الاستقبالِ، كقوله تعالى: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾** [الإنسان: ٧]، أي: سيكونُ شرُّه مستطيراً، وقوله: **﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ۝٣٦﴾** [الإسراء: ٣٦]، أي: سيُسأل عنه.

تلك معاني (كان) الداخلةِ على الجملةِ الاسميّةِ المكونةِ مّما أصلُهُ المبتدأُ والخبرُ.

وتستعملُ (كانَ) تامّةً كغيرها من الأفعالِ المتصرّفةِ، فتكونُ بمعنى (وُجِدَ، وحَصَلَ)، فترفعُ فاعلاً، ومنها في القرآن الكريم قولُهُ تعالى: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٩٣﴾** [البقرة: ١٩٣]، وقولُهُ: **﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ**

---

(١) ديوانه: ١١٩.

مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، أي: إنْ وُجِدَ ذو عسرة.

وعوداً إلىٰ آية سورة النساء التي هي موضوع النظرة نجد أن ﴿كان﴾ فيها تدلُّ علىٰ الدوام؛ فكيدُ الشيطانِ ضعيفٌ في كلّ زمن، ولا يصحُّ أن تبقىٰ ﴿كان﴾ علىٰ معناها الأصليِّ؛ لئلا يكونَ المعنىٰ: كانَ كيدُ الشيطانِ ضعيفاً في الزمن الماضي، أمّا الآن فهو قويٌّ.

وقيل: إنّ ﴿كان﴾ هنا بمعنىٰ (صار)، فالتقدير: صار كيدُ الشيطانِ ضعيفاً بعد الإسلام[1]. واللّه أعلم.

وقد وَسْوَسَ الشيطانُ إلىٰ أبي الحسين أحمد بن يحيىٰ بن إسحاق الراونديّ، فزيّنَ له قُوَّتَهُ؛ فادّعىٰ أنّ كيدَ الشيطانِ ليس ضعيفاً؛ وهو الذي قال اللّه تعالىٰ عنه: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٩] وقال: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [النمل: ٢٤]، فزعم ابن الراونديِّ أن مَنْ يستحوذ عليه وعلىٰ قلبه، ويصدّه عن دينه، كيف يكون ضعيفاً؟.

ومن المعلوم أنّ ابن الراونديّ زنديقٌ خبيثٌ[2] عارَضَ القرآنَ الكريمَ، وَطَعَنَ فيه، فَرَدَّ عليه كثيرٌ من العلماء.

وقد أجاب الفخرُ الرازيّ ـ رحمه اللّه ـ عن هذا الاعتراض: «أنّ

---

(١) البحر المحيط: ٣/ ٧١٢.

(٢) ما أصدق هذا الخبيث حين قال عن نفسه:

وكنتُ فتىً من جُنْد إبليس فارتمىٰ ... بيَ الحالُ حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنتُ أُحْسِنُ بعده ... طرائقَ فِسْقٍ ليس يُحْسِنُها بعدي

انظر: تفسير الرازي: ١٨/ ٩٤.

المراد بأنّ كَيْدَ الشيطانِ ضعيفٌ، أنّه لا يَقْدِرُ على أن يضرَّ، وإنّما يوسوسُ، ويدعو فقط، فإن اتُّبِعَ لَحِقَتِ المضرّةُ، وإلا فحالُهُ على ما كان، فهو بمنزلة فقيرٍ يوسوسُ لغنيٍّ في دفعِ مالِهِ إليه، وهو يقدرُ على الامتناع، فإن دَفَعَهُ إليه فليس ذلك لقوّةِ كيدِ الفقير، لكن لضعفِ رأيِ المالكِ»(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦)﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

تأمّل هاتين الآيتين العظيمتين تدرك أنّ اللّه تعالى جعل المنافقين شرّاً من شرّ الكافرين كآل فرعون ؛ لأنه جعلهم في الدرك الأسفل من النّار، وجعل أولئك في أشدّ العذاب حيث قال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر: ٤٦]؛ وذلك أنّهم جمعوا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، وبسبب أنّهم لـمّا كانوا يظهرون الإسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين، ثمّ يخبرون الكفّار بذلك، فكانت تتضاعف المحنةُ من هؤلاء المنافقين، فلهذا جعل اللّهُ عذابَهُمْ أَزْيَدَ من عذاب الكفّار(٢)، وأغْلَظَ في شروط

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٣٨٥ .

(٢) تفسير الرازي: ١١/ ٦٩ ـ ٧٠ .

توبتهم: التوبة، والإصلاح، والاعتصام بالله، وهو أن يكون غَرَضُهُ من التوبة وإصلاح العمل طَلَبَ مرضاةِ الله تعالى، لا طَلَبَ مصلحةِ الوقتِ؛ لأنّه لو كان مَطْلُوبُهُ جَلْبَ المنافعِ وَدَفْعَ المضارِّ لتغيّرَ عن التوبةِ وإصلاحِ العملِ سريعاً، أمّا إذا كان مَطْلُوبُهُ مرضاةَ اللهِ تعالى وسعادةَ الآخرةِ والاعتصامَ بدين الله بَقِيَ على هذه الطريقة، ولم يتغيّرْ عنها[1].

والشرط الرابع: إخلاص الدين لله، ولم يشترط ذلك على غيرهم؛ لأنّ المنافقين كانوا قد أفسدوا، وخانوا الله، ولم يخلصوا دينهم لله، بل نافقوا، والنفاقُ ذَنْبُ القلبِ، والإخلاصُ توبتُهُ، ثمّ قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: (فأولئك هم المؤمنون)[2]؛ لتكونَ مُحَصِّلَةُ أمرِهِمُ الشهادةَ الظاهريّةَ لهم بالإيمان فقط. والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾ [النساء: ١٧٦].

قد سبق الحديث عن استعمال (إنِ) الشرطيّة مع بعيد الحصول[3]، لكن قد يعترض معترضٌ بهذه الآية، فيقول: إنّ الله تعالى قال: ﴿إنِ

(١) تفسير الرازي: ١١/ ٧٠.
(٢) تأويل مشكل القرآن: ٧.
(٣) ص: ١٠٤.

امرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ والهلاك محقّقٌ، فهل (إنْ) تستعمل أيضاً في المؤكّد الوقوع ؟

أجاب ابن القيّم ـ رحمه الله ـ عن هذا الإشكال، فقال [(١)]: «التعليق ليس على مطلق الهلاك، بل على هلاكٍ مخصوصٍ، وهو هلاكٌ لا عَنْ ولدٍ»، فهو تعليق على شرطٍ قد يكون بعيد الوقوع حيث يموت ميتٌ ليس له ولدٌ، وله أختٌ، وكذلك سائر الشروط في الآية. والله أعلم.

وعن قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ قال أبو يعلى زكريّا بن يحيى بن خلاد: حدثني أبو عثمان المازنيّ، قال: سأل مروانُ بن سعيد المهلّبيّ أبا الحسن الأخفشَ عن قوله ـ جلّ وعزّ ـ: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ أليسَ خبرُ (كان) يفيدُ معنًى ليس في اسمها؟، قال: نعم[(٢)]، قال: فأخبرني عن: ﴿كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ أليسَ قد أفاد بقوله معنى ما أراد؟، فلم يحتجْ إلى الخبر؟، أي: أنّ الألف في ﴿كَانَتَا﴾ تفيد التثنية، فلأيّ معنًى فسَّرَ ضميرَ المثنّى بالاثنين؟ ونحن نعلم أنّه لا يجوز أن يقال: فإن كانتا ثلاثاً، ولا أن يقال: فإن كانتا خمساً.

فقال الأخفش: إنّما أراد: فإنْ كان مَنْ تَرَكَ اثنتين، ثمّ أضمر (مَنْ) على معناها، قال: فبإضماره (مَنْ) على معناها أفاد معنى ما أراد،

(١) بدائع الفوائد: ١ / ٤٨.

(٢) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: «الصواب الإجابة بـ(بلى)؛ لأن الإجابة بـ(نعم) إيجابٌ للنفي، وتقريرٌ له، وليس ذلك هو المراد هنا».

فأفادَ العددَ المجرّدَ من الصفة، أي: قد كان يجوز أن يقال: فإن كانتا صغيرتين فلهما كذا، أو: صالحتين فلهما كذا، وإن كانتا كبيرتين فلهما كذا، فلمّا قال: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ﴾ أفادَ الخبرُ أنّ فَرْضَ الثلثين للأختين تَعلَّقَ بمجرّد كونهما اثنتين فقط على أيّة صفة كانتا عليها مِنْ كِبَرٍ أو صِغَرٍ، أو صلاحٍ أو طلاحٍ، أو غنًى أو فقرٍ، فقد حَصَلَ من الخبر فائدةٌ لم تحصلْ من ضمير المثنّى[(١)].

قال أبو محمّد الحريريّ ـ رحمه اللّه ـ: «ولعمري لقد أبدع مروان في استنباط سؤاله، وأَحْسَنَ أبو الحسن في كشف إشكاله»[(٢)].

وقال ابن الحاجب ـ رحمه اللّه ـ: «وأولى من ذلك أن يقال: الضمير في ﴿كَانَتَا﴾ عائدٌ على الكلالة، والكلالة يكون واحداً واثنين وجماعة، فإذا أُخبِرَ باثنين حصلتْ به فائدة، ثمّ لمّا كان الضميرُ الذي في (كانت) العائدُ على الكلالة، هو في المعنى اثنين، صحّ تثنيته، فإذن تثنيته فرعٌ عن الإخبار باثنين؛ إذ لولاه لم يصحّ أنّه لم تستفد التثنية إلا من قولك: اثنين . . . .»[(٣)].

وقد نقل الزركشيّ ـ رحمه اللّه ـ عن ابن الضائع أبي الحسن عليّ بن محمّد الكتاميّ الإشبيليّ النحويّ أنّ المراد بالآية: (فإن كانتا اثنتين فصاعداً)، فعبّر بالأدنى عنه وعمّا فوقه[(٤)].

---

(١) مجالس العلماء: ٧٦ ـ ٧٧، درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ: ٣٦ ـ ٣٧، نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء: ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٢) درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ: ٣٧.
(٣) الأمالي النحويّة من القرآن الكريم: ١ / ٥٠.
(٤) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٤٣٩.

* * *

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾ [المائدة: ٣].

الإكمال يكون بإزالة النقص العارض، والإتمام يكون بإزالة بعض النقص في الأصل، وقد ورد في الآية إكمال الدين وإتمام النّعمة؛ فالنقص في الدين كان عارضاً، فزال بعد الإكمال، وأمّا نقصان النعمة فشيءٌ لا بدَّ منه، ولا يمكن أن تكمل نعمة، فإذا مَلَكَ الإنسانُ المالَ فقد يُحْرَمُ الصحَّةَ، وقديماً قيل: (ليس تكاد الدنيا تسقي صفواً إلا اعترض في صفائها أذىً باطنٌ)(١).

وقال ابن عبد ربه الأندلسيّ:

ألا إنّما الدنيا نَضارةُ أيكَةٍ إذا اخْضَرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ(٢)

وقال قيس بن الخطيم:

ومن عادةِ الأيامِ أنَّ خُطوبَها إذا سرَّ منها جانبٌ ساءَ جانبُ(٣)

ولذلك استعمل الإتمام مع النعمة في قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]. وقوله: ﴿وَيُتِمُّ

(١) المجتنى لابن دريد: ٦٢.
(٢) العقد الفريد: ٣/ ١٧٠.
(٣) ديوانه: ١٦٢.

نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]. وقوله: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

والشعراء لا تستعمل مع النعمة إلا الإتمام أيضاً، قال عدي بن الرقاع العاملي:

صلّى الإلهُ على امرئٍ ودعتُهُ وأتمَّ نعمتَهُ عليه وزادها(١)

وقال جرير:

أتمَّ الله نعمتَهُ عليكم وزاد اللهُ مُلْكَكُمُ تماما(٢)

وقال آخر:

رأيت يحيى أتمَّ اللهُ نعمتَهُ عليه يأتي الذي لم يأتِهِ أحدُ(٣)

وقال الأخطل:

بني أميّة نعماكم مُجلّلةٌ تمتْ فلا مِنَّةٌ فيها ولا كَدَرُ(٤)

فالإكمال في اللغة إذاً أعظم من الإتمام.

وقد وقف ابن القيّم ـ رحمه اللّه تعالى ـ أمام هذه الآية العظيمة

(١) ديوان شعره: ٩١.
(٢) ديوانه: ٥٠٥.
(٣) التذكرة الفخرية: ٤٦٦.
(٤) شعره: ١/ ٢٠٢.

وِقْفَةَ تأمّلٍ، فقال: «تأمّل حُسْنَ اقتران التمام بالنعمة، وَحُسْنَ اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم؛ إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه؛ إذ هو وليّها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمة حقّاً، وهم قابلوها.

وأتى في الكمال باللام المُؤْذِنَةِ بالاختصاص، وأنّه شيءٌ خُصُّوا به دون الأمم، وأتى في إتمام النعمة بـ ﴿على﴾ المؤذنة بالاستعلاء والشمول والإحاطة، وجاء بـ﴿أَتْمَمْتُ﴾ في مقابلة ﴿أكْمَلْتُ﴾، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ في مقابلة ﴿لَكُمْ﴾، و﴿نِعْمَتِي﴾ في مقابلة ﴿دِينَكُمْ﴾، وأكَّدَ ذلك، وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينًا﴾»[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

إنّ للنحو أثراً كبيراً في استنباط الأحكام الفقهيّة من أدلّة الكتاب والسنّة؛ لأنّهما بلسان عربيّ مبين، مبنيٍّ على قواعدَ نحويّةٍ وصرفيّةٍ، يجب على الفقيه حِذْقُها، ومعرفةُ أسرارها، قبل أن يباشرَ الإفتاء والاجتهاد، قال الرازيّ[2]: «اعلمْ أنّ معرفةَ اللّغةِ والنّحوِ والتصريفِ فرضُ كفايةٍ؛ لأنّ معرفةَ الأحكامِ الشرعيّةِ واجبةٌ بالإجماع، ومعرفة

---

(١) التفسير القيّم: ٢٢٩.

(٢) المحصول في علم الأصول: ١ / ٢٧٥.

الأحكام دونَ معرفةِ أدلّتها مستحيلٌ، فلا بدَّ من معرفة أدلّتها، والأدلّةُ راجعةٌ إلى الكتاب والسنّة، وهما واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم، فإذاً يتوقّفُ العلمُ بالأحكام على الأدلّة، ومعرفة الأدلّة تتوقّف على معرفة اللّغة والنّحوِ والتصريف، وما يتوقّف على الواجب المطلق ـ وهو مقدورٌ للمكلّف ـ فهو واجبٌ، فإذاً معرفةُ اللّغة والنّحو والتصريف واجبةٌ» انتهى كلامه.

ونظراً إلى اختلاف الآراء في بعض المسائل النحويّة اختلفت بعض الأحكام الفقهيّة، وقد ألّفَ بعض العلماء كتباً في هذا الشأن، ومن تلك الكتب كتاب (الكوكب الدرّيّ فيما يتخرّجُ على الأصول النّحويّة من الفروع الفقهيّة) لجمال الدين الإسنويّ.

وفي هذه الآية التي بين أيدينا يرد سؤالٌ هو: هل المرافقُ والكعبانِ داخلةٌ في الغَسْلِ؟

في جوابه قولان [1]:

المتأخرون من أصحاب مالك يرون أنَّ المرفقَ والكعبَ غيرُ داخلَين في وجوب الغَسْلِ؛ لأنّهم يرجّحون أنَّ ما بعدَ (إلى) غيرُ داخلٍ في حُكْمِ ما قبلها، كما سبق تفصيله [2].

وجمهورُ العلماءِ يرون وجوبَ إدخالِهما في الغَسْلَ؛ لأنهم يرجّحون أنَّ ما بعدَ (إلى) داخلٌ في حُكْمِ ما قبلها إذا كانَ من جنسه،

(١) أحكام القرآن لابن العربيّ: ٢ / ٥٦٧.
(٢) ص: ١٠١.

والمِرْفَقُ من جنسِ اليدِ، والكعبُ من جنسِ الرجلِ.

ومنْ أدلّةِ الجمهورِ أيضاً أنَّ (إلىٰ) قدْ تكونُ هنا بمعنىٰ (مَعَ)، وقدْ جاءتْ (إلىٰ) بمعنىٰ (مَعَ) في القرآنِ الكريمِ وغيره كثيراً، ومِنْ ذلك قولُهُ تعالىٰ: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي: مع اللّه، وقولُهُ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] أي: معها، وقالوا في الأمثال: (الذَوْدُ إلىٰ الذَوْدِ إبلٌ)(١) أي: معها.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلفَ العلماءُ في المقدارِ المطلوبِ مسْحُهُ من الرأسِ، بسببِ اختلافِهم في معنىٰ الباء في الآية، علىٰ عدّةِ أقوالٍ(٢)، منها:

القولُ الأولُ: قولُ الإمامِ مالكٍ وأحمدَ في أرجحِ ما رُوي عنه: مَسْحُ الرأسِ كلِّه؛ لأنَّ الباءَ عندهما صلةٌ، أي: زائدةٌ، حيث زيدتْ في المفعولِ به، فالتقديرُ: امسحوا رؤوسَكم، أو أَنَّ معنىٰ الباءِ الإلصاقُ، فالمسحُ لجميعِ الرأسِ، وهذا ما رجّحَه شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ ـ رحمه اللّه ـ حيثُ قالَ في الفتاوىٰ: «لو قالَ: فامسحوا رؤوسَكم أو وجوهَكم، لمْ تَدُلَّ علىٰ ما يَلْتَصقُ بالمسحِ، فإنّك تقولُ: مسحتُ رأسَ فلانٍ، وإنْ لم يكنْ بيدِك بَلَلٌ، فإذا قيل: فامسحوا برؤوسِكم وبوجوهِكم، ضُمِّنَ المسحُ معنىٰ الإلصاقِ، فأفادَ أنّكم تُلْصِقون

(١) انظر: كتاب الأمثال للقاسم بن سلام: ١٩٠، جمهرة الأمثال: ١ / ٣٧٥، مجمع الأمثال: ١ / ٢٧٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربيّ: ٢ / ٥٦٨.

برؤوسِكم وبوجوهِكم شيئاً بهذا المسح»[(١)].

القولُ الثاني: قولُ أبي حنيفةَ والشافعيِّ وهو أنَّ المجزي هو مسحُ بعضِ الشعرِ؛ لأنَّ الباءَ عندهما للتبعيضِ، فهي بمعنىٰ (مِنْ)، كقوله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين: ٢٨] أي: منها، بل قال الشافعيُّ: إنه يُجزئ مسحُ شعرةٍ واحدةٍ. واللّه أعلم.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة: ١٣].

إنّ (ما) في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ زائدة، وجاءت زيادتها لإفادة الحصر، فكأنّه قال: ما لعنّاهم إلا بسبب نقضهم ميثاقهم.

وتأملْ قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ تجده بياناً لقسوة قلوبهم؛ لأنّه لا قسوة أشدّ من الافتراء علىٰ اللّه وتغيير وحيه[(٢)]، والتعبير بالفعل المضارع ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يدلّ علىٰ استمرارهم في التحريف، لكنْ جاء التعبيرُ عن تصيير قلوبهم إلىٰ القسوة قبله، وعن النسيان بعده، جاء بالماضي: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ﴿وَنَسُوا﴾؛ لأنّهما قد حصلا، فلا يتجدّدان، فإذا حصلت القسوة والنسيان فلا يزولان إلا

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميّة: ٢١/ ١٢٤.
(٢) الكشّاف: ١/ ٦٠٠.

بمرقّقٍ وبمذكّرٍ(١).

وتدبّر قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فهو من البلاغة بمنزلة لا يمكن أن يبلغها فصيحٌ بليغٌ مُفَوَّهٌ؛ فهو عَبَّرَ بالفعل المضارع ﴿تَزَالُ﴾ الذي يدلّ على التجدّد والاستمرار، ثمّ أدخل عليه (لا) التي تدلّ على أنّ الخيانةَ سجيّةٌ فيهم وطبعٌ، فصارت جزءاً من مقوّمات حياتهم، كالطعام والشراب لهم ولغيرهم، فالمعنى: إنّ اللّه ما لعنَ اليهود إلا بسبب نقضهم الميثاق الذي أُخِذَ عليهم منذ عهد رسول اللّه موسى ﷺ، وَصَيَّرَ قلوبهم قاسيةً لا تشعر بذنب، ولا يردعها زاجرٌ، يُبَدِّلُونَ كلامَ اللّه، ويمتهنون الرذائلَ، حتّى صار من طبعهم امتهانُ الخيانةِ دون خوفٍ ولا وجلٍ.

واللّه أكبر، ما أبلغ كلامه!!!.

* * *

بعد أن نهى اللّه المؤمنين عن اتّخاذ اليهودِ والنصارى أولياء قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥٢، ٥٣].

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٦/ ١٤٣.

تأمّلوا قولَه تعالىٰ: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ حيث قالَ: ﴿يُسَارِعُونَ﴾، ولم يقل: ﴿يُسرِعُونَ﴾، وقال: ﴿فِيهِمْ﴾، ولم يقل: (إليهم)، ولهذا الأسلوبِ العظيمِ فوائدُ عظيمةٌ:

منها: أنّ (يُسارعُ) التي هي في أصلِ استعمالاتِها تدلُّ علىٰ المشاركةِ، استعملتْ ههنا بدلاً من (يُسْرِعُ)؛ للدلالةِ علىٰ مبالغةِ مرضىٰ القلوبِ من المسلمين في الإقبالِ علىٰ اليهودِ والنصارىٰ وموالاتِهم، وأنَّهم يتسابقون إلىٰ ذلك، أمّا قولُه: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ بدلاً من (يسارعون إليهم) فلأن الفعلَ ﴿يُسَارِعُونَ﴾ ضُمْنَ معنىٰ فعلٍ آخرَ، هو (يدخلون)؛ ليكونَ المعنىٰ: يسارعون بالدخول في الكفار والارتماء في أحضانهم، والمبالغةِ في موالاتهم، والاتصالِ بهم علىٰ وجهٍ أكثرَ مما سَمَحَ به الشرعُ.

ثمّ تأمّلوا كيف علّلَ اللّهُ ـ سبحانَه وتعالىٰ ـ موالاتَهم لهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، فمرضىٰ القلوبِ من المسلمين ليسوا بحاجةٍ إلىٰ اليهودِ والنصارىٰ في وقتِ الموالاةِ، لكنَّ ضعفَ إيمانهم ومرضَ قلوبهم جعلَهم يتهافتون عليهم؛ لعدم توكلهم علىٰ اللّهِ عزَّ وجلَّ، ورغبةً في مساعدتِهم إيّاهم، وإنَّ تنكير ﴿دَائِرَةٌ﴾ يدلُّ علىٰ هلعِ هؤلاء المرضىٰ، فهم يحتسبون الكفارَ لأيّ دائرةٍ، من حربٍ أو فقرٍ أو مرضٍ أو غيرها، وإنْ كانَ القريبُ من المرادِ هو الحربَ إلا أنَّ ما سواها داخلٌ في المعنىٰ؛ لإطلاقِ كلمة ﴿دَائِرَةٌ﴾.

ولأجلِ ذلك كانَ ردُّ المولىٰ ـ عزّ وجلّ ـ عليهم حاسماً حيث قال: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ﴾، وهذا وعدٌ من اللّه تعالىٰ لا يتخلّفُ؛ لأنّ (عسىٰ) في حقّ اللّهِ تعالىٰ تدلُّ علىٰ الوجوبِ، بعكس ما هي عليه في حقِّ العبادِ، فهي تدلُّ عندهم علىٰ الرجاءِ، قال أبوعبيدةَ: «عسىٰ اللّه: هي إيجابٌ من اللّه، وهي في القرآن كلُّها واجبةٌ، فجاءت علىٰ إحدىٰ لغتي العرب؛ لأنَّ (عسىٰ) في كلامهم رجاءٌ ويقينٌ»(١).

وقد أنكرَ ذلك التفريقَ الراغبُ الأصفهانيُّ حيث قال: «وكثيرٌ من المفسّرين فسّروا (لعل) و (عسىٰ) في القرآن باللازم، وقالوا: إنَّ الطمعَ والرجاءَ لا يصحُّ من اللّهِ، وفي هذا منهم قصورُ نظرٍ؛ وذاك أنَّ اللّهَ تعالىٰ إذا ذَكَرَ ذلك يذكرهُ ليكونَ الإنسانُ منه راجياً، لا لأنْ يكونَ هو تعالىٰ يرجو»(٢). انتهىٰ كلامه.

والصحيحُ قولُ أبي عبيدةَ؛ فإنَّ اللّهَ تعالىٰ ما وَعَدَ بشيء بـ(عسىٰ) إلا تحقّق وعده، ولا يُعْتَرضُ علىٰ ذلك بقولِه تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]؛ لأنَّ إبدالَ الزوجات لرسولِ اللّه ﷺ عُلِّقَ بشرطِ الطلاقِ لأمّهاتِ المؤمنين، وهذا الشرطُ قد جاءَ بـ(إنْ) التي تدلُّ علىٰ عدمِ اليقينِ من تحقّقِه، ومِنْ ثَمَّ لم يحصلْ ما عُلِّقَ عليه، فتخلّفَ.

---

(١) مجاز القرآن: ١/ ١٣٤. وانظر: العين: ٢/ ٢٠٠، واللسان (عسى): ١٥/ ٥٥.

(٢) المفردات: ٣٣٥.

وعوداً على بدء أقول: إنَّ اللّه َتعالىٰ قد أتىٰ في الآية التي بينَ أيدينا ﴿ بِالْفَتْحِ ﴾ معرَّفاً، وبـ ﴿ أَمْرٍ ﴾ مُنَكَّراً، وقدَّمَ الفتحَ علىٰ ذلك الأمرِ، وهذا الأسلوبُ الرائعُ سَبَبهُ ـ واللّه أعلم ـ أنَّ أوّلَ ما يتبادرُ إلىٰ أذهانِ المؤمنينَ من كسرٍ لشوكةِ أعدائِهم يكونُ بالفتحِ المعهودِ لديهم، فبدأَ به، ثُمَّ ثَنَّىٰ بقوله: ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾، وكلمةُ ﴿ أَمْرٍ ﴾ عامةٌ تشملُ كلَّ ما يخطرُ علىٰ البالِ، وما لا يخطرُ فيه، ثُمَّ إنَّ اللّه َتعالىٰ وصَفَ كلمةَ (أمر) بقوله: ﴿ مِّنْ عِندِهِ ﴾، وهذا في غايةِ الروعةِ والبيانِ، فالفتحُ يكونُ من اللّه تعالىٰ، لكنّه بأيدي المؤمنين، أمّا الآخرُ فمن عندِ اللّه وحدَه خالصاً، كإرسالِ الريحِ علىٰ الكفارِ، والخسفِ بهم، وإهلاكِهم بالطوفانِ والزلازلِ والأمراضِ وغيرِها.

وتأمّلوا قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ تجدوا التعبير بالإصباح علىٰ الخسارة غايةً في الروعة؛ فإنّ مَنْ به علةٌ حين تزداد عليه بالليل يرجو الفرج عند الصباح، فإذا انبلج صباحه عن اشتدادٍ لمرضه كانت خيبته أشدَّ وأنكىٰ، فاستعمل مع الإصباح الخسران، وقَرَنَ ذلك بالفاء التي تدلّ علىٰ التعقيب: ﴿ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾؛ لأنّ الخسران جُعِلَ لهم في الوقت الذي كانوا يرجون فيه الفرج (١).

* * *

قوله تعالىٰ عن عيسىٰ ـ عليه السلام ـ : ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ [المائدة: ١١٠].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٧١.

حيث نصب ﴿كَهْلاً﴾، وهي بعد عاطفٍ مسبوقٍ بمجرور، والسبب أنّ ﴿كَهْلاً﴾ ليستْ معطوفةً على المجرور ﴿الْمَهْدِ﴾، بل هي معطوفةٌ على متعلّق الجارّ والمجرور ﴿فِي الْمَهْدِ﴾، وهو في محلّ نصبٍ على الحال، فالتقدير: تكلم النّاس كائناً في المهد وكهلاً.

أمّا فائدة ذِكْرِ التكلّم في الكهولة ـ وهي ما بين الأربع والثلاثين سنة والخمسين[1] ـ مع أنّه ليس بِمُسْتَغْرَبٍ تَكَلُّمُ الكهلِ، وإنّما المستغربُ تكلّمُ الطفل في المهد، فالسبب ـ واللّهُ أعلمُ ـ أنّهم كانوا يقولون: إنّ مَنْ يتكلّم في المهد لا يعيش، ولا يمتدُّ به العُمُرُ، فكانت المعجزة أعظمَ حيثُ خولفتِ العادةُ، فعاش عيسى ـ عليه السلام ـ وتكلّمَ في حالِ كهولتِهِ[2].

ونقل الرازي عن الحسين بن الفضل البجليّ: «أنّ المراد بقوله: ﴿وكهلاً﴾ أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، ويكلّم الناس، ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نصٌّ في أنه يمكن أن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ سينزل إلى الأرض».

ومن المعلوم أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد رفع إلى السماء حين كان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وستة أشهر، وعلى هذا التقدير فهو ما بلغ الكهولة[3]. والله أعلم.

---

(١) القاموس المحيط: (كهل) ١٣٦٣.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٦٧.
(٣) التفسير الكبير: ٨/ ٤٦.

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١].

قال في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾، وفي غيرها قال: ﴿فَانظُرُوا﴾(١)، ومعلومٌ أنَّ (ثمَّ) تدلُّ على الترتيب مع التراخي، والفاءُ تدلُّ على التعقيبِ، والسِّرُّ في ذلك - والله أعلم - أنَّ الأمرَ بالسيرِ في هذه الآيةِ وقعَ في سياقِ الحديثِ عن قرونٍ غابرةٍ؛ إذ قالَ اللهُ تعالى قبلها: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦]، فلكثرةِ القرونِ، وإيغالِها في أزمنةٍ متطاولةٍ، ناسَبَ معه استعمالُ ﴿ثُمَّ﴾ التي تدلُّ على التراخي والبعدِ، أمّا في غيرها من الآيات فلم تُذْكَرْ فيه القرونُ، وإنّما ذُكرت العِبَرُ، كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ولهذا حسنت الفاء هنا دون الآية الأولى(٢).

وقال الخطيبُ الإسكافيُّ: «إنّ قوله: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ يدلُّ على أنَّ السيرَ يؤدّي إلى النظر، فيقعُ بوقوعه، وليس كذلك ﴿ثمَّ﴾، ألا ترى أنّ الفاءَ وقعت في الجزاء، ولم تقعْ فيه ﴿ثم﴾، فقوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ لم يَجْعَلِ

---

(١) آل عمران: ١٣٧، النحل: ٣٦، النمل: ٦٩، العنكبوت: ٢٠، الروم: ٤٢.

(٢) ملاك التأويل: ١/ ٤٢٣-٤٢٤، كشف المعاني: ١٥٦، فتح الرحمن: ١١٧.

النظرَ فيه واقعاً عقيب[1] السير، متعلِّقاً وجودُه بوجوده؛ لأنّه بعثٌ علىٰ سَيرٍ بعد سيرٍ؛ لما تقدم من الآية التي تدلّ علىٰ أنّه تعالىٰ حداهم علىٰ استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك؛ ليروا أثراً بعد أثر في ديار بعد ديار، قد عمَّ أهلَها بدمار. . . فدعا إلىٰ العلم بذلك بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفي ذلك ذهابُ أزمنةٍ كثيرةٍ ومددٍ طويلةٍ، تمنع النظرَ مِنْ ملاصقةِ السيرِ، كما قال في المواضع الأخر التي دخلتها الفاء؛ لِما قَصَدَ من معنىٰ التعقيبِ، واتصالِ النظرِ بالسيرِ؛ إذ ليس في شيء من الأماكن التي استعملتْ فيها الفاءُ ما في هذا المكان من البعث علىٰ استقراء الديار وتأمّلِ الآثار، فَجَعَلَ السيرَ في الأرض في هذا الموضع مأموراً به علىٰ حِدَةٍ، والنظرَ بعده مأموراً به علىٰ حِدَةٍ، وسائرُ الأماكن التي دخلتها الفاء عُلّقَ فيها وقوعُ النظرِ بوقوع السير؛ لأنّه لم يتقدمِ الآية ما يحدو علىٰ السير الذي حدا عليه فيما قبلَ هذه الآية، فلذلك خُصَّتْ بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد تراخي المهملة بين الفعلين. واللّهُ أعْلَمُ»[2].

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: «إثبات الياء لغة ضعيفة، واللغة الفصحى: (عَقب)، بحذف الياء، وإذا أثبتت الياءُ احتيج إلى تأويل؛ لأن العقيب هو المعاقب، كالرَقيب والأكيل والشريب والنديمَ».

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل: ١١١-١١٢ .

يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

(مَنْ) اسمٌ موصولٌ يصلح للمفرد والمثنى والجمع، ولذلك قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿**مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ**﴾ فجعل صلة (مَنْ) فِعْلَ الواحد ﴿**يَسْتَمِعُ**﴾، لكنّه قال في سورة يونس: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ** (٤٢)﴾ [يونس: ٤٢] فجعل صلة (مَنْ) فِعْلَ الجماعة ﴿**يَسْتَمِعُونَ**﴾.

وسببُ الاختلافِ في الأُسلوب بين الآيتين اختلافُ المراد بـ ﴿**مَنْ**﴾[1]؛ فآية الأنعام نزلت في نَفَرٍ قليلين من قريش، هم أبو سفيانَ والنضرُ بنُ الحارث وعتبةُ وشيبةُ وأميّةُ وأبيٌّ بن خلف، حيث كانوا يستمعون إلى النبي ﷺ، وهو يقرأ القرآن ليلاً، فيؤذونه، ويرجمونه، ويمنعونه من الصلاة خوفاً من أن يسمعه أحدٌ يتأثر به وبدعوته، فيدخلَ في الإسلام، فهم قليلو العدد، فَنُزِّلوا منزلةَ الواحدِ، فأعيد الضمير على لفظ ﴿**مَنْ**﴾، أي مفرَداً.

أمّا قوله: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ**﴾ فالمراد بـ ﴿**مَنْ**﴾ جميعُ الكفارِ الذين يَحْدُثُ منهم هذا، فيستمعون إلى القرآن الكريم، ولا ينتفعون بسماعه، فيكونُ حجّةً عليهم، فكأنّهم صُمٌّ لا يعقلون ما يستمعون إليه، فَرُوْعِيَتْ كثرةُ المقصودين، فخوطبوا بما يدلُّ على الجماعة.

---

(١) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: ١١٩، كشف المعاني في المتشابه من المثاني: ١٥٩.

وههنا تنبيهٌ تحسن الإشارة إليه وهو أنّ هناك فرقاً بين (سَمعَ) و(استمع)؛ ففي (استمع) زيادةٌ في المبنىٰ تدلّ علىٰ الزيادة في المعنىٰ، حيث إنّ الاستماع فيه قَصْدٌ وتَكَلُّفٌ، فتقول: سمعتُ بكاءَ الطفلِ؛ لأنّه قد يحصلُ دون قَصْدٍ ولا إرادةٍ، واستمعتُ إلىٰ تلاوة القرآن الكريم؛ لقصد الإرادة فيه والإنصات.

واستعمال الاستماع ههنا بحقّ الكفار ليس للدلالة علىٰ قصدهم ذلك، بل لأنَّ المسموعَ شاقٌّ عليهم، فهم يتكلّفون سماعه. واللّه أعلم.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

الدابّة: هي كلّ ما يدبُّ علىٰ الأرض[١]، فالدابّةُ غيرُ منفكّةٍ عن كونها في الأرض، والطائر: هو كلّ ما يطير بجناحين، فالطائر غير منفَكٍّ عن كونه طائراً بجناحيه[٢]، فما فائدة قوله: ﴿فِي الأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾؟.

قال الزمخشريّ: «معنىٰ ذلك زيادة التعميم والإحاطة، كأنّه قيل: وما من دابّةٍ قطُّ في جميع الأرضين السبع، وما من طائرٍ قطُّ في جوّ السماء من جميع ما يطير بجناحيه، إلا أممٌ أمثالكم، محفوظةٌ أحوالُها، غيرُ مهمَلٍ أمرُها.

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٧/ ٢١٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٢٥.

فإنْ قلتَ: فما الغرضُ في ذكر ذلك؟ قلتُ: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظٌ لما لَها وما عليها، مهيمنٌ على أحوالها، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وأنّ المكلّفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون مَنْ عداهم من سائر الحيوان» (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾ [الأنعام: ٦٠].

إنّ المتأمّل هذه الآيةَ يرى أنّ اللّه تعالى خصّ الوفاة بالليل مع أنّها تحدث في الليل والنهار، وأنّه خصّ العمل بالنهار مع أنّه يحدث في النهار والليل، والسرّ في ذلك ـ واللّه أعلم ـ أنّ أكثر أعمال الناس تحدث في النهار، وأمّا الوفاةُ فَخُصَّتْ بالليل؛ لأنّ كلّ نفس تنام يُعَدُّ نومُها موتاً، كما قال اللّه تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الزمر: ٤٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

---

(١) الكشّاف: ٢/ ١٧.

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ [الأنعام: ١٥١].

جعل سبب قتل الأولاد ما يعيش فيه الآباء من الفقر، ولذلك أخبر اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أنّه سيرزق الآباء، فقال: ﴿نحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ بعدهم رِزْقَهُ أولادَهم، فقال: ﴿وَإِيَّاهُمْ﴾، فكان رزقُهم أهمَّ عندهم من رِزْقِ أولادهم، فَقَدَّمَ الوعد برزقهم علىٰ الوعد برزق أولادهم؛ لأنّ الخطاب للفقراء، وكأنّ السياق يُشْعِرُ بتشفيع الأولاد في رَفْعِ فَقْرِ الآباء القاتلين، فكأنْ قد قيل لهم: إنّما ترزقون بهم، فلا تقتلوهم[(١)].

وجاء الترتيب بخلاف هذا في سورة الإسراء فقال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١)﴾ [الإسراء: ٣١]، فالخطاب في هذه الآية لأغنياء؛ لأنّ الخشيةَ خوفٌ من شيء لم يقع، فهم إنْ قتلوا أولادهم فذلك بسبب خوفهم من أن تؤدِّيَ كثرةُ الأولاد إلىٰ الفقر، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم هم، فهو حاصل قبلاً، ولذلك قدّم الوعد برزق الأولاد علىٰ الوعد برزق الآباء، فقال: ﴿نحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

ولله درُّ القائل:

كُلوا اليومَ من رزقِ الإلهِ وأبْشِروا فإنّ على الرحمن رزقَكُمُ غدا[(٢)]

(١) ملاك التأويل: ١ / ٤٦٩، كشف المعاني: ١٦٩، فتح الرحمن: ١٣١.

(٢) التمثيل والمحاضرة: ١٠.

ورُوِيَ أنّ أعرابيّاً من طيّئ كَثُرَ عياله، وقلَّ مالُهُ، ولسان حاله يقول كما قال خالد بن صفوان التميمي: (لَثلاثون من العيال في مالٍ أسرعُ من السوسِ في الصوفِ في الصيفِ)[1] فقال الأعرابي: سأنتجع خيبرَ؛ عسىٰ أن يُخفّفَ عنّي ثقل هؤلاء، وكأنه يرىٰ أنّ (قلة العيال أحد اليسارين)[2]، وخيبرُ مشهورةٌ بحمّاها التي يُضْرَبُ بها المثلُ، فيقال: (به الورىٰ، وحمّىٰ خيبرىٰ)[3]، فلمّا شارفها الأعرابيُّ قال:

قُلْتُ لِحُمَّى خَيْبَرَ اسْتَعِدِّي

هاكِ عِيالي فَاجْهَدِي وَجِدِّي

وباكِري بِصالِبٍ وَوِرْدِ

أعانَكِ اللّهُ على ذا الجُنْدِ

فلمّا دخلها حُمَّ، وحُمَّ حِمامُهُ، وعاش أيتامُهُ[4].

وقال الشاعر[5]:

توكّلْ على الرحمن في كلّ حاجةٍ أردتَ فإنَّ الله يقضي ويقدرُ

متى ما يُردْ ذو العرش أمراً بعبده يُصِبْهُ وما للعبد ما يتخيّرُ

وقد يهلكُ الإنسانُ من وجه أمنِهِ وينجو بإذن الله من حيثُ يحذرُ

(١) التمثيل والمحاضرة: ٣٧٩.

(٢) محاضرات الأدباء: ٢٠٠

(٣) مجمع الأمثال: ١ / ١٠٦.

(٤) المحكم والمحيط الأعظم: ٤/ ٢٣٧. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: ٤ / ١٢٠.

(٥) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: ١٥٣-١٥٤.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف: ٤].

في هذه الآيةِ من البلاغةِ والبيانِ ما يعجزُ عن رَسْمِه يراعةٌ يمسكها بَنانٌ، ويقصرُ عن مداهُ لسانُ إنسانٍ؛ فإنَّ قولَه: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ مرادٌ به: أردنا إهلاكها؛ بدليلِ ورودِ (فاءِ) التعقيبِ بعدَه، حيثُ قال: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾، وهذا مثلُ قولِه تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

والقريةُ ـ علىٰ القول الصحيحِ ـ تطلقُ علىٰ المنازلِ وعلىٰ أهلِها، فإذا أريد بها المنازلُ عادَ عليها الضميرُ مؤنّثاً، كقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وإذا أريدَ بها أهلُ المنازلِ عادَ الضميرُ عليها مُذَكَّراً مجموعاً، وقد جَمَعَتِ الآيةُ الاثنين، فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾، فغلّبَ المنازلَ علىٰ أهلِها مع إرادتهما معاً؛ لأنَّ طارقَ القريةِ ليلاً لا يحسُّ إلا بالمنازلِ؛ لهجعةِ أهلها، وتبدو المنازل أيضاً كالهاجعة؛ ولذلك لا أرىٰ تأويلَ ﴿بَيَاتًا﴾ بـ(بائتين) كما فعل الزمخشريّ[1]، وإنّما أرىٰ تأويلَها بـ(بائتة)؛ لتغليبِ المنازلِ علىٰ السكانِ، وأمّا في قولِه: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فقد أعادَ الضميرَ مُذَكَّراً مجموعاً؛ لأنَّ القيلولة ـ وهي نومُ نصفِ النهارِ ـ ليستْ شاملةً أكثرَ أهلِ القريةِ، ولا هي جالبة سكوناً

---

(١) الكشّاف: ٢/ ٦٦.

على القرية، عكس البيات الذي يلفُّ الديارَ بالسكونِ حتّى تبدوَ المنازلُ كالهاجعةِ أيضاً، أمّا في القيلولةِ فلا تبدو المنازل كالقائلة، فسبحانَ مَنْ هذا بيانُه !!!.

وقريبٌ من هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، فانظر كيف عبّر بالإهلاك، وأعاد الضمير مؤنثاً؛ لأنه واقع على المنازل وأهلها، لكن الإرجاع جعله خاصاً بأهل القرية؛ لأن المنازل يمكن إعادة إعمارها وسكناها، أما أهلها المهلكون فلا سبيل إلى إرجاعهم إليها. والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥]. أكّد السحرةُ جملة الكلام المعبّرة عنهم، فقالوا: ﴿ نكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾، فأتوا بضمير الفصل (نحن)، وجعلوا خبر ﴿ نكُونَ ﴾ اسماً معرّفاً بـ(أل): ﴿ الْمُلْقِينَ ﴾، ولم يؤكدوا الضميرَ الراجعَ إلى موسى عليه السلام، فقالوا: ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ ﴾ ولم يقولوا: (إمّا أنْ تلقي أنت)، والسرُّ في ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ السحرةَ أحبّوا التقدّمَ عليه بإلقاءِ سحرِهم؛ لظنّهم أنّهم سيأتون بشيء عظيمٍ يسيطرونَ به على أذهانِ الحاضرين، ويملكون به عقولَهم، ممّا يتعذّر به على موسى ـ عليه السلام ـ أن يرفع أثرَهُ عنهم، قال الزمخشريّ: «وقد سوّغ لهم موسى عليه السلام ما تراغبوا فيه ازدراءً لشأنهم وقلّةَ مبالاةٍ بهم، وثقةً بما كانوا

بصدده من التأييد السماويّ، وأنّ المعجزة لن يغلبها سحرٌ أبداً. ﴿سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، أروها بالحيل والشعوذة، وخيّلوا إليها ما الحقيقةُ بخلافه، كقوله تعالىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦]»[١]. والله أعلم.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢].

معلومٌ بداهةً أنّ العَشْرَ مع الثلاثين تكون أربعين، فما فائدة قوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؟

قيل: إنّه لـمّا قال: ﴿ثَلَاثِينَ﴾ ميّزها بقوله: ﴿لَيْلَةً﴾، لكنّه لـمّا قال: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ تركها دون تمييز، فاحتمل أن تكون عَشْرَ ساعاتٍ، فيكون المعنىٰ: واعدنا موسىٰ ثلاثين ليلةً وأتممناها بِعَشْر ساعاتٍ، فأزال الإيهام المتوقّع بقوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[٢].

وقيل: إنّ فائدةَ قوله: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ هو نَفْيُ الإلباسِ؛ لأنّ (العَشْرَ) لـمّا أتتْ بعد (الثلاثين) التي هي نصٌّ في المواعدة دَخَلَها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة، فأعاد ذِكْرَ (الأربعين) نفياً لهذا الاحتمال، وليُعْلَمَ أنّ جميعَ العدد للمواعدة[٣].

---

(١) الكشّاف: ٢ / ١٠٣.
(٢) انظر: البحر المحيط: ٥ / ١٦١.
(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٤٧٨.

أمّا سببُ تفريق العدد (الأربعين) بين (الثلاثين) و (العَشْرَ)، مع إمكان أن يقول ابتداءً: (أربعين ليلةً)، وكان قد قالها في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ﴾، فَنَقَلَ الزركشيّ[١] أنّ محمّد بن عليّ الخضر الغسّانيّ، المعروف بابن عساكر، أجاب في كتابه (التكميل والإفهام)، عن سبب ذلك « بأنّ (العشر) إنّما فُصِلَ من أولئك ليتحدّدَ قُرْبُ انقضاءِ المواعدةِ، ويكونَ فيه متأهباً مجتمعَ الرأي، حاضرَ الذهنِ ؛ لأنّه لو ذَكَرَ (الأربعين) أولاً لكانتْ متساويةً؛ فإذا جُعِلَ (العشر) فيها إتماماً لها استشعرتِ النَّفْسُ قُرْبَ التمامِ، وتَجَدَّدَ بذلك عزمٌ لم يتقدّم.

قال: وهذا شبيهٌ بالتلوّم الذي جعله الفقهاء في الآجال المضروبة في الأحكام، ويفصلونه من أيّامِ الأجلِ، ولا يجعلونها شيئاً واحداً، ولعلّهم استنبطوه من هذا».

وقيل[٢]: إنّ اللّه سبحانه وتعالىٰ أمَرَ موسىٰ عليه السلام ابتداءً بالصوم ثلاثين يوماً، وهو شهر ذي القعدة، فلمّا أتمّ الثلاثين أنْكَرَ خَلُوفَ فِيهِ، فَتَسَوَّكَ، فأوحىٰ اللّه إليه: (أما علمتَ أنّ خلوفَ فمِ الصائمِ عند اللّه أطيبُ من ريح المسك)، فأمره أن يزيد عليه عشرة أيّامٍ من ذي الحجّة لذلك.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٧٩.
(٢) تفسير الرازي: ١٤/ ١٨٤.

عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كيف عَرَّفَ المعروفَ والمنكرَ بـ (أل)؟ فهل كلُّ معروفٍ وكلُّ منكرٍ معروفان لدىٰ المتلقّين حتىٰ يُعرَّفا بأداة التعريف؟ أم أنَّ المعروفَ يكونُ معروفاً حينَ يأمُرُ به الشارعُ، والمنكرُ يكونُ منكراً حين ينهىٰ عنه ؟

الجوابُ عن ذلك[1]: أنّ المعروفَ والمنكرَ واضحان لكلّ ذي عقلٍ سليمٍ من المؤمنين والكافرين، فالمعروفُ هو ما تقبلُه العقولُ الراجحةُ، والنفوسُ السليمةُ إذا عُرِضَ عليها، والمنكرُ ما ترفضُهُ، وتأباه، وتنفرُ منه حين يُعْرَضُ عليها، وكلُّ ما أمرَ به رسولُ اللّه ﷺ تقبلُهُ الفطرةُ النقيّةُ، وترضاه، وكلُّ ما نهىٰ عنه ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ تنفرُ منه، وتأباه.

سُئِلَ أعرابيٌّ : بِمَ عرفت أنَّ محمداً ﷺ رسولٌ ؟ فقال : (ما أَمَرَ بشيءٍ فقالَ العقلُ : ليته نَهَىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء فقالَ العقلُ : ليته أَمَرَ به).

وقال المقوقس ملك مصر : (إني قد نظرتُ في أمر هذا النبيّ، فوجدته لا يأمرُ بمزهودٍ فيه، ولا ينهىٰ عن مرغوبٍ فيه)[2].

(١) انظر : تفسير التحرير والتنوير: ٩/ ١٣٥ .
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: ٣/ ٦٩١ .

ومثلُ هذا يُقالُ في تعريفِ الطّيباتِ والخبائثِ ، فالطّيبُ كانَ طيّباً قبلَ أنْ يُحْكَمَ بحِلّه ، والخبيثُ كان خبيثاً قبل أنَ يُحَرَّمَ، وكما ذكَرَ الأعرابيُّ كان تحليلُ الطيّباتِ وتحريمُ الخبائثِ من دلائلِ نبوته ﷺ، ولو لم يَكنْ طِيْبُ الطيّباتِ وخُبْثُ الخبائثِ معروفين لدى المخاطبين قبلُ لما كانَ ذلك علَماً من أعلامِ النبوةِ التي يُحتجُّ بها على أهلِ الكتابِ.

وحين نتأمّلُ كتابَ اللّه تعالى نجدُ أنَّ الطيباتِ لم تردْ فيه إلا مُعرَّفةً، إمّا بـ(أل) أو بالإضافة؛ لكونها معروفةً قبلَ الحكمِ عليها، ويُستثنى من ذلك الحكم آيةٌ واحدةٌ، هي قولُه تعالى: ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا** (١٦٠) ﴾ [النساء: ١٦٠] فتنكيرُها ـ واللّهُ أعلمُ ـ كان بسبب قلّتها، وهي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** (١٤٦) ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

* * *

قوله تعالى: ﴿ **وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** (٣) ﴾ [التوبة: ٣].

إن قلت: لِمَ رفعت كلمةُ ﴿رَسُولُهُ﴾ الثانية؟ فأقول: قيل[(١)]: إنّ الواوَ استئنافيّةٌ، و(رسول): مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الضمّة،

(١) البحر المحيط: ٥/ ٣٦٧.

وخبرُه محذوفٌ تقديرهُ: ورسولُه بريءٌ، وحُذِفَ الخبرُ لدلالة ما قبله عليه.

وقيل[١]: إنّ الواوَ عاطفةٌ، و(رسولٌ): معطوفٌ على الضمير المستتر في ﴿بَرِيءٌ﴾؛ لأنّه اسمٌ مشتقٌ يَحْتَمِلُ الضميرَ، والتقدير: أنَّ اللّه بريءٌ هو من المشركين ورسولُهُ، وقيل[٢]: إنّه معطوفٌ على محلِّ اسم ﴿أنّ﴾؛ لأنّ محلَه قبل دخول ﴿أنّ﴾ الرفعُ على الابتداء.

وقرأ يعقوب بن إسحاق الحضرميّ، وعبداللّه بنُ أبي إسحاقَ الحضرميّ، وعيسى بنُ عمرَ، وزيدُ بنُ عليٍّ، والحسن البصريّ، وروح ابن عبدالمؤمن الهذليّ: ﴿وَرَسُولَهُ﴾ بالنصب[٣]، فتكونُ الكلمةُ معطوفةً على اسم الجلالة ﴿اللّهَ﴾ الواقعِ اسماً لـ﴿أنّ﴾، وفي القراءتين تكون براءةُ اللّهِ ورسولِهِ من المشركين.

وممّا يحسُن أنْ أذكرَه بهذه المناسبة أنّه يروى أنَّ أعرابيّاً قَدِمَ في خلافة أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ المدينةَ المنورةَ، فقال: مَنْ يُقرئني شيئاً ممّا أنزل اللّه تعالى على رسوله محمدٍ ﷺ؟ فأقرأه رجلٌ سورةَ براءةَ، فقال فيها: ﴿أنَّ اللّهَ بريءٌ مّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ بالجرِّ، فقال الأعرابيُّ: أَوَ قد بَرِئَ اللّهُ من رسوله؟ إنْ يكنِ اللّهُ تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغتْ عمرَ ـ رضي اللّه عنه ـ

(١) الكشّاف: ٢ / ١٧٣.
(٢) إعراب القرآن للنحّاس: ٢ / ٤.
(٣) انظر:
إعراب القرآن للنحّاس: ٢ / ٥، الكشّاف: ٢ / ١٧٣، تفسير الرازي: ١٥ / ٢٢٣، التبيان للعكبريّ: ٢ / ٦٣٥، تفسير القرطبيّ: ٨ / ٧٠، البحر المحيط: ٥ / ٣٦٧، الإتحاف: ٢٤٠.

مقالةُ الأعرابيِّ، فدعاه، فقال: يا أعرابيُّ أتبرأ من رسول اللّه ﷺ؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين إنّي قَدِمْتُ المدينةَ، ولا عِلْمَ لي بالقرآن، فسألتُ: مَنْ يُقرئني؟، فأقرأني هذا سورة براءةَ، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ فقلت: أَوَ قد برئَ اللّه تعالىٰ من رسوله؟ إنْ يكنِ اللّه تعالىٰ بَرِئَ من رسوله فأنا أبرأُ منه.

فقال عمرُ: ليس هكذا يا أعرابيُّ، فقال الأعرابيُّ: كيف هي يا أميرَ المؤمنين؟ فقال عمرُ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، فقال الأعرابيُّ: وأنا واللّهِ أبرأ ممّن برئَ اللّهُ ورسولُهُ منهم، فأمر عمرُ حينئذ ألا يقرئَ القرآنَ إلا عالمٌ باللغة (١).

فتأمّلْ كيف انقلب المعنىٰ بسبب حركةِ إعرابٍ يسيرةٍ لا يُلقي كثيرٌ من الناس اليومَ لها بالاً، بل تجدهم يحركون ما يشاءون بما يشاءون.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: ٨٧].

الكلامُ في هذه الآية عن أولي الطَوْلِ الذين استأذنوا الرسولَ ﷺ في القعود، وقالوا كما أخبر اللّه تعالىٰ عنهم: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة: ٨٦]، فهم أصحابُ قدرةٍ علىٰ الجهادِ، ولديهم

(١) نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء: ٨، الصعقة الغضبيّة في الردّ على منكري العربيّة للطوفيّ: ٢٢٨ـ٢٢٩.

وفرةٌ في المالِ، وقوةٌ في النفس، لكنَّهم مالوا إلى الراحةِ، وأخلدوا إلى الدَّعَةِ، وأشفقوا من الحرِّ، وجهلوا أنَّ الراحةَ الحقَّةَ هي في متابعةِ الرسولِ ﷺ وتَحَمُّلِ تعبها، وأنَّ الدَّعَةَ الحقةَّ تكونُ في المسيرِ معه ﷺ وتحمُّلِ مشقّتِه، ولكنَّ هذا النظرَ البعيدَ لا يفقهُهُ كثيرٌ من الناسِ، ومنهم هؤلاء المتخلِّفون، فاستحقّوا أنْ يُوصفوا بأنَّهم لا يفقهون؛ لأنَّ عقولهم لم ترقَ بهم إلى التمييز بين الأمرين؛ ولذلك قالَ اللّه تعالى قبلها: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)﴾ [التوبة: ٨١].

وتأمّلوا ـ رحمني اللّه وإيّاكم ـ قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾ [التوبة: ٩٣].

ففي هذه الآية قال: ﴿فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، وفي الآية السابقة قال: ﴿فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾، والسبب في ذلك ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في قومٍ لا يعلمون ما أعدَّ اللّهُ تعالى لكلِّ ذي عملٍ خالصٍ لوجهِه من الأجرِ والمثوبةِ، ذلك الذي عَقَلَهُ الذين أتوا إلى رسولِ اللّه ﷺ ليحملَهم معه إلى الجهاد، فقال لهم: ﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، وحينئذٍ ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة: ٩٢]، أما هؤلاء المتخلّفون فحالهم تُشْعِرُ بجهلهم بما أعدَّهُ اللّهُ تعالى للمجاهدين

في سبيله من أجرٍ ومثوبةٍ، ولذلك ختمَ هذه الآيةَ بقوله: ﴿فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وههنا تنبيهٌ تجدرُ الإشارةُ إليه، وهو أنّه في آيةِ التوبةِ التي ذكرتُها أولاً قال: ﴿وطُبِعَ علَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وفي الثانية قال: ﴿وطَبَعَ اللَّهُ علَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فالأولىٰ مَبْنِيَّةٌ للمجهول، والثانيةُ مَبْنِيَّةٌ للمعلوم، والسِّرُّ في ذلك ـ واللّه أعلم ـ أنَّ الآيةَ الأولىٰ سُبِقَتْ بقوله: ﴿وإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ببناء الفعل ﴿أنزل﴾ للمجهولِ، فناسَبَ أنْ يُبنىٰ ﴿طُبِعَ﴾ للمجهول أيضاً(٢).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾ [التوبة: ١١١].

قَدَّمَ في هذه الآية الكريمة الأنفسَ علىٰ الأموالِ، وإن كان في غيرها من الآيت قَدَّمَ الأموال على الأنفس كثيراً، والسرُّ في ذلك ـ واللّهُ أعلمُ ـ كما قال ابن القيّم ـ رحمه اللّه ـ: «لأنّها هي المشتراة في الحقيقة، وهي مَوْرِدُ العَقْدِ، وهي السلعة التي استامها ربُّها، وطَلَبَ شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنّتَهُ، فكانت هي

(١) انظر: كشف المعاني: ١٩٨.
(٢) انظر: ملاك التأويل: ١/ ٥٩٧.

المقصودةَ بعقد الشراء، والأموالُ تَبَعٌ لها، فإذا مَلَكَها مشتريها مَلَكَ مالَها؛ فإنّ العبد وما يملكه لسيِّده، ليس له فيه شيءٌ، فالمالك الحقُّ إذا مَلَكَ النفسَ مَلَكَ أموالَها ومتعلَّقاتِها، فَحَسُنَ تقديم النفس على المال في هذه الآية حُسْناً لا مَزِيدَ عليه»[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣)﴾ [يونس: ٤٣].

جعل صلة ﴿مَنْ﴾ فِعْلَ الواحد ﴿يَنظُرُ﴾ مع أنّ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)﴾ [يونس: ٤٢]، وكان السياق اللفظيّ يقضي بأنْ يقال: (ينظرون)؛ لأنّهم كثيرون كالمستمعين، لكن يجاب عن ذلك بأنْ يقال: إنّ المستمعين لمّا كانوا محجوجين بما يسمعونه من كتاب اللّه تعالى كانوا هم الأكثرين في الحِجاج، وليس كذلك المنظور إليه؛ لأنّ الآيات المرئيّة بالعين التي أُيِّدَ بها رسولنا ﷺ لم تكن بكثرة آيات القرآن الكريم التي سمعها المشركون، ولذا عاد الضمير مفرداً على ﴿مَنْ﴾ مع النظر، ومجموعاً مع الاستماع.

وتأمّل الآيتين تدرك دلالتهما على تفضيل السمع على البصر حين جعل مع الصمم فقدان العقل، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا

---

(١) بدائع الفوائد: ١ / ٧٨ـ٧٩.

يعقلون ﴾، ولم يجعل مع العمىٰ إلا فقدان النظر ، فقال : ﴿ **أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون** ﴾ (١) .

❊ ❊ ❊

قوله تعالىٰ : ﴿ **ويقولون متىٰ هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٨) قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون (٤٩)** ﴾ [يونس : ٤٨ ، ٤٩] .

هذه الآية شاهدٌ آخر علىٰ الفرق بين استعمال ﴿ **إنْ** ﴾ واستعمال ﴿ **إذا** ﴾ ، فالكفّارُ يستبعدون صدقَ الرسول ﷺ والمؤمنين بقيام الساعةِ والفصلِ بين الخلائق ، ولذلك استعملوا (إنِ) الدالّة علىٰ استبعاد حصول الشيء ، فقالوا : ﴿ **ويقولون متىٰ هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٨)** ﴾ ، ولم يقولوا : (إذا كنتم صادقين) ، فكأنّهم يقولون لهم : أنتم غير صادقين ، أمّا عند الله تعالىٰ وعند رسوله ﷺ وعند المؤمنين فالأمر متحقّق الوقوع ، ولذلك استعمل ﴿ **إذا** ﴾ ، فقال : ﴿ **إذا جاء أجلهم فلا يستئخرون ساعة ولا يستقدمون (٤٩)** ﴾ .

وقال الله في الآية الأولىٰ : ﴿ **ضرا ولا نفعا** ﴾ ، ولكنّه قال في سورة الأعراف : ﴿ **قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون (١٨٨)** ﴾ ، فقدّم في سورة (يونس) الضرَّ علىٰ النفع ، وعكس ذلك في

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ٧ .

سورة (الأعراف)، والسرُّ في ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ ما في سورة الأعراف من تقديم النفع على الضرِّ جاء في سياق الكلام عن قيام الساعة، وهذا موقف يرجو فيه كلُّ إنسانٍ النفعَ، ويخشى الضرَّ، ويتمنّى فيه تعجيلَ الثوابِ، والسلامةَ من العقابِ؛ لذلك قدّم النفع، أمّا في سورة (يونس) فإنّه جاء في سياق الردّ على استعجال الكفّار عذاب الله تعالى وما يتوعّدهم به الرسول ﷺ من الضرِّ، استهانةً منهم وتكذيباً، فتقديم الضّر على النفع لأنّه هو المطلوب لمجازاة الكفّار، وهو ما يحقّق رغبتهم المبنيّة على الاستهزاء والسخرية(١). والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

قال عن السفينة: ﴿احْمِلْ فِيهَا﴾ فعدّى الفعلَ بـ(في)، لكنّه عداه بـ(على) في سورة (المؤمنون) وفي سورة (غافر)، حيث قال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، والأصلُ في الفعلِ (حَمَلَ) أن يُعدّى بـ(على)، أمّا قولُهُ: ﴿احْمِلْ فِيهَا﴾ فلأنَّ المقصود سفينةُ نوحٍ عليه السلام، وقد كانت مُطْبَقَةً مغطّاةً، فناسبت التعدية بـ(في) الدالّة على الظرفية، أما في آية (المؤمنون) فالمقصودُ كلُّ سفينةٍ، والمحمولون همُ الناسُ الذين

(١) انظر:
ملاك التأويل: ١ / ٥٧٧ ـ ٥٧٨، كشف المعاني: ١٨٨، فتح الرحمن: ١٥٣ ـ ١٥٤.

يكونون عادةً في أعلاها ، فناسبت التعديةُ بـ(على) .

وقيل : إنّه قد غُلِّبَ غيرُ الآدميِّين في الحديث عن سفينةِ نوحٍ عليه السلام ؛ لأنّهم أكثرُ من الآدميّين، وكانت السفينة ثلاث طبقات، فكانت الحيواناتُ والحشراتُ والطيورُ في الطبقة السفلى من السفينة، أي في داخلها، وكانت الوسطى للطعام، أمّا الآدميّونَ ففي أعلاها، كذا ذكر أبو حيّان رحمه اللّه(١)، فغُلِّبتْ (في) الدالّةُ على الظرفيّةِ على (على) الدالّةِ على الاستعلاء . واللّه أعلم .

* * *

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف : ٤] .

إنّ المتدبِّر لسورة (يوسف) يبكي قلبه قبل عينه على ما فيها من ابتلاءٍ وامتحانٍ ليوسف وأبيه يعقوب ـ عليهما السلامُ ـ تجرّعاهما من أقرب الناس إليهما، ويبهره أسلوب عرض القصّة ؛ فهو أسلوب أذْهَلَ أهل مكّة الذين كانت تعجبهم أقاصيص الروم والفرس حين كان النضر بن الحارث يفاخر بها رسولنا محمّداً ﷺ، ويقول لقومه : (أنا ـ واللّه ـ أحسنُ حديثاً من محمّد، فهلمَّ أحدِّثكم أحْسَنَ من حديثه)، فأنزل اللّه تعالى على رسوله ﷺ هذه السورة التي حوت أرقى الأساليب، فتأخذ بسويداء القلب ؛ لأنّها كما قال سيّد قطب ـ رحمه اللّه ـ : « تمثّل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفنِّي للقصّة، ذلك الأداء

(١) البحر المحيط : ٦ / ١٥٢ .

الصادق الرائع بصدقه العميق، وواقعيّته السليمة، المنهج الذي لا يهمل خلجة بشريّة واقعيّة واحدة، وفي الوقت ذاته لا ينشئ مستنقعاً من الوحل، يسمّيه (الواقعيّة)، كالمستنقع الذي أنشأته الواقعيّة الغربيّة الجاهليّة»[(١)]. انتهى كلامه رحمه الله.

وما قرأتُ هذه السورة يوماً إلا أحسستُ بقلبي يكاد يخرق صدري ممّا أطلع عليه، وأتفكّر فيه من جمال لغويّ في آياتها، والسورة جديرة بدراسة الإعجاز القرآنيّ فيها.

وبين أيدينا وقفة تأمّلٍ للآية الرابعة من السورة، إذ نعلم أنّ الكواكبَ والشمسَ والقمرَ غيرُ عاقلةٍ، وكان الأنسبُ في الكلام البشريّ أن يقال: (رأيتها لي ساجدة)، ولكنّه عَدَلَ عن ذلك، وأعاد عليها ضمير العاقلين، وجَمَعَ الحالَ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالماً، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾؛ لأنّه لمّا وَصَفَ النجوم بالطاعة والسجود ـ وهي من أفعال العقلاء ـ نَزَّلَها منزلَتَهم[(٢)].

ثُمَّ تأمّلوا تكرار الرؤيا حيث قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، وذلك ليدلّ على حقّيقة رؤياه وتيقُّنِه منها، وأنّها ليست أضغاث أحلام، كما أنّ تقديم الجار والمجرور ﴿لِي﴾ على عامله ﴿سَاجِدِينَ﴾ إنّما هو لإظهار العناية والاهتمام بالدلالة على التخصيص، فكأنّه قال: رأيتهم ساجدين لي ليس لغيري[(٣)]، ولذلك بادره أبوه قائلاً: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]؛ لعلمه

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ١٩٥٢.
(٢) تفسير الطبريّ: ٧/ ١٤٩.
(٣) روح المعاني: ١٢/ ١٨٩.

بصدق رؤيا ابنه، وأنه سوف يُحْسَدُ على فضل الله عليه من أقرب الناس إليه؛ لعظم ما اختصه الله به.

وممّا هو جدير بالإشارة إليه أنّ اللغة العربيّة تطلق (الرؤيا) على الأحلام، و (الرؤية) على ما يراه المرء ببصره أو بعلمه.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ [يوسف: ٢٣].

(راوَدَ) على وزن (فاعَلَ)، والأصل في هذه الصيغة أنْ تدلّ على المشاركة، والمراودة هي المطالبة برفقٍ مرّةً تِلْوَ مرّةٍ، وهي في هذه الآية إمّا على معناها الأصليّ إذا نُظِرَ إلى تكرار المرأة المحاولة معه، وممانعته من ذلك، «كأنّ المعنى: خادعته عن نفسه، أي: فعلتْ ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه، ويأخذه منه، وهو عبارة عن التحمّل لمواقعته إيّاها»(١)، فصارت المراودة كأنّها صادرةٌ من الطرفين، أو أنّ المشاركة غيرُ واردةٍ ولا مرادةٌ هنا، فتكون (راوَدَ) مثل: سافَرَ، وعايَنَ، وعافى، ودايَنَ، وباعَدَ، وجاوَزَ، وغيرها ممّا لا يدلّ على المشاركة، قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ(٢): «وهي مُفاعَلَةٌ من واحدٍ، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطبيب، ونظائرها، ممّا يكون من أحد

(١) الكشّاف: ٢ / ٣١٠.
(٢) تفسيره: ٤ / ٢٦٤.

الجانبين الفعلُ، ومن الآخر سببُهُ، فإنّ هذه الأفعال، وإن كانت صادرةً عن أحد الجانبين، لكنْ لمّا كانت أسبابها صادرةً عن الجانب الآخر جُعِلَتْ كأنّها صادرةٌ عنهما، وهذا بابٌ لطيفُ المسلكِ، مبنيٌّ على اعتبارٍ دقيقٍ، تحقيقه أنّ سبب الشيء يُقام مُقامَهُ، ويطلق عليه اسمه، كما في قولهم: (كما تدينُ تدانُ) [1]، أي: كما تَجْزِي تُجْزَى؛ فإنّ فِعْلَ البادئ، وإن لم يكن جزاءً لكنّه لكونه سبباً للجزاء، أُطلِقَ عليه اسمُهُ، . . . وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام، نَزَّلَ صُدُورَها عن محالها بمنزلة صدور مسبّباتها التي هي تلك الأفعال، فبنى الصيغة على ذلك، وروعي جانبُ الحقيقة، بأن أُسْنِدَ الفعلُ إلى الفاعل، وأُوقعَ على صاحب السبب».

وتأمّلوا ـ رحمني اللّهُ وإيّاكم ـ قوله: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ فلمْ يُسَمِّ المرأة، وإنّما أتى باسم الموصول، وجَعَلَ صلتَهُ قوله: ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾، وهذا له فوائدُ كثيرةٌ: منها إظهارُ عِفَّةِ يوسف ـ عليه السلام ـ وكمال نزاهته؛ فإنّ عدمَ ميلِهِ إليها، وعدمَ استجابتِهِ لطلبها، مع كونهما في بيتٍ واحدٍ بعيدَيْنِ عن الشبهة، ومع دوام مشاهدته لمحاسنها، وكونه تحت ملكها، كلٌّ أولئك يدلّ على بلوغه ـ عليه السلام ـ أعلى معارج العفّة والنزاهة، قال صاحب كتاب (الفوائد المشوق) [2]: «وقد ذكر اللّه سبحانه وتعالى عن يوسف الصدّيق ﷺ من العفاف أعظمَ ما يكون؛ فإنّ الداعي الذي اجتمع في حقّه لم يجتمع في حقّ غيره؛ فإنّه ﷺ كان

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال ٢/ ١٣٩، مجمع الأمثال ٢/ ١٥٥، تمثال الأمثال ٢/ ٥٢٨.

(٢) ص ٧٨ـ ٧٩.

شاباً، والشبابُ مركبُ الشهوة، وكان عَزَباً، ليس عنده ما يعوّضُهُ، وكان غريباً عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرّب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك، والعبد لا يأنف مّما يأنف منه الحرّ، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوىٰ من داعي مَنْ ليس كذلك، وكانتْ هي المُطالِبَةَ، فيزول بذلك كلفة تعرّض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبةَ التامّةَ والمراودةَ التي يزول معها ظنُّ الامتحانِ والاختبارِ لتعلمَ عفافَهُ من فجورِهِ، وكانت في محلّ سلطانها وبيتها، بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل علىٰ بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كلّه عفّ للّه، ولم يطعها، وقدّم حقّ اللّه وحقّ سيدها علىٰ ذلك كلّه، وهذا أمرٌ لو ابتلي به سواه لم يُعلم كيف تكون حاله».

كما أنّ من فوائد هذا التعبير الدلالةَ علىٰ جرأتها وقوّة شكيمتها، بأن سَعَتْ إلىٰ فتىٰ ربا في بيتها، وعاش في كنفها، تطلب منه حراماً.

أمّا قوله تعالىٰ: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فلم يسبق للعرب استعمالُ هذه الكناية الرائعة عن طلب المواقعة والجماع، فهو من مبتكرات القرآن العظيم، وتعديةُ الفعل بـ ﴿عن﴾ للدلالة علىٰ أنّ معنىٰ المراودة هنا: محاولةُ أنْ يجاوز الفتىٰ عفافه، وتمكينه إيّاها من نفسه، فكأنّها تراوده عن أنْ يُسْلِمَ إليها إرادتَهُ وحُكْمَهُ في نفسه (١).

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٢ / ٢٥٠.

وأخيرا تأمّلوا قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾، فالصرفيّون يقولون(١): التضعيف في هذا الفعل للدلالة على تكثير المفعول، أي للدلالة على كثرة الأبواب، ولكنّي لا أرى ذلك، بل أرى أنّ المراد أغلقت الأبواب إغلاقاً مُحْكَماً بشدّة وقوّة تدعوان إلى الطمأنينة، أمّا تكثير المفعول به ـ وهو الأبواب ـ فليس ناشئاً عن الفعل، بل هو غير وارد؛ لأنّ جمع الباب على الأبواب يدلّ على القلّة؛ ويؤيّده أنّه قد رُوِيَ أنّ أبوابَ البيتِ لم تكن تجاوز العشرة ـ وهو ما تدلّ عليه جموع الكثرة ـ، بل كانت سبعة فقط(٢)، ولو كانت أكثر من ذلك لربما قال: (بِيْبانٌ)، وهذا يدلّ على أنّ تضعيف الفعل دالٌّ على إحكام الفعل، لا على كثرة المفعول. والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: ٢٥].

في هذه الآية وقفتان:

الوقفة الأولى: قوله: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ حيث لم تَنْسُبْ إرادةَ السوءِ صراحةً إلى يوسف عليه السلام، بل أتتْ بلفظ دالٍّ على العموم، وهو الاسم الموصول: (مَنْ)، وهو ما يدخل فيه يوسف

---

(١) الأصول في النحو: ١/ ١٢٣، المفصل: ٢٨١.
(٢) الكشّاف: ٢/ ٣١٠.

وغيره؛ لأنّها (لـمّا شاهدتْ من يوسف ـ عليه السلام ـ أنّه استعصم منها مع أنّه كان في عنفوان العمر، وكمال القوّة، ونهاية الشهوة، عَظُمَ اعتقادها في طهارته ونزاهته، فاستحيت أن تقول: إنّ يوسف ـ عليه السلام ـ قصدني بالسوء، وما وجدتْ من نفسها أن ترميه بهذا الكذب)(١).

ثمّ إنّ المرأة لم تَصِمْهُ بطلب الفاحشة على سبيل التصريح، بل ذكرتْ كلاماً مجملاً، وقد يُظَنُّ أنّه تعريضٌ منها بأنّه أراد أن يضربها، ويدفعها عن نفسه، وكان ذلك بالنسبة إليها جارياً مجرى السوء، فلعلّها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها، وفي ظاهر الأمر كانت توهم أنّه قصدها بما لا ينبغي(٢).

الوقفة الأخرى: في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ملمحان لطيفان:

أحدهما: تقديم طلب سجنه على إيقاع العذاب عليه.

والآخر: التعبير عن طلب السجن بالمصدر المؤوّل: ﴿أَن يُسْجَنَ﴾ بخلاف إيقاع العذاب الذي عبّر عنه بالمصدر الصريح: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد بَيَّنَ الإمام الفخر الرازيّ ـ رحمه الله ـ وجهي هذين الملمحين، فذكر «أنّ حبّها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع، وذلك أنّها بدأت بذكر السجن، وأخّرتْ ذكر العذاب؛ لأنّ

(١) مفاتيح الغيب: ١٨/ ٩٨.
(٢) المصدر السابق: ١٨/ ٩٨، ٩٩.

المُحِبّ لا يسعىٰ في إيلام المحبوب، وأيضاً أنّها لم تذكر أنّ يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرتْ ذلك ذكْراً كلّيّاً صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء.

وأيضاً قالت: ﴿إِلاَّ أَن يُسْجَنَ﴾، والمراد أن يسجن يوماً أو أقلّ، علىٰ سبيل التخفيف، فأمّا الحبس الدائم فإنّه لا يعبّر عنه بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يُجْعَلَ من المسجونين، ألا ترىٰ أنّ فرعون هكذا قال حين تهدّد موسىٰ عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]»[١].

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: ٣٠].

حَوَتْ هذه الآية من معالم الجمال اللغويّ ما يَعْجَزُ اليراعُ عن وصفه، وما يَحارُ العقلُ ببراعته[٢]؛ فإنّ قوله تعالىٰ: ﴿نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يدلُّ علىٰ مدىٰ انتشار هذا الخبر بين النساء، فوصف النسوة بكونهن متفرّقاتٍ في المدينة، مع ما تدلّ عليه كلمة ﴿الْمَدِينَةِ﴾ من سَعَةٍ وكِبَرٍ، كلُّ أولئك يشعر بكثرة ما تتحدَّثُ به النساء عن ذلك الخبر العجيب.

ثمّ إنّ قوله: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ دون تسميتها، أو الكناية عنها كما

(١) مفاتيح الغيب: ١٨/٩٨.

(٢) انظر: التفسير القيّم: ٣١٤-٣١٥.

حصل في الآية السابقة حيث قال: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ يشعر باستهجان هؤلاء النسوةِ هذا العملَ؛ لوقوعه من إمرأة ذات زوج، فصدور المراودة من مثلها أقبحُ من صدورها ممن لا زوجَ لها، مع اشتراكهما في القبح، ثُمَّ إنّ إضافة المرأة إلىٰ العزيز زيادةٌ بالتشنيع عليها؛ لأنّ زوجَها عزيزُ مصرَ وكبيرُها، فكيف تجرؤ علىٰ تدنيس كرامته ومكانته؟.

ومن معالم الجمال اللغويّ في هذه الآية قوله: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾، فإضافة (فتىٰ) إلىٰ ضمير المرأة مبالغةٌ في التقبيح لها؛ إذ المُراوَدُ مملوكٌ لها، لا رجلٌ حرٌّ، والحرائرُ تَسْتَنْكِفُ عن النظر إلىٰ العبيد، فكيف بمراودتهم؟.

ثُمَّ إنّ استعمال الفعل المضارع ﴿تُرَاوِدُ﴾ بدلَ الماضي كما في الآية السابقة ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ يدلُّ علىٰ عِلْمِ هؤلاء النسوة بأنّ المرأة مستمرّةٌ في مراودة الفتىٰ في الماضي والحاضر، ويدلّ علىٰ ذلك أنّها أجابَتْهُنّ فيما بعد بقولها: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ [يوسف: ٣٢].

أمّا قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ فهو في غاية الروعة التعبيريّة الجماليّة؛ فإنّ شغافَ القلبِ حجابُهُ، فكأنّ حُبَّ هذا الفتىٰ قد مزّقَ حجابَ قلبِها، ووَصَلَ إلىٰ فؤادها، أو أنّ حُبَّهُ أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب، فاشتغل بحبّه، وصار حجاباً بينه وبين كلّ ما سوىٰ هذه المحبّة، فلا تعقل صاحبة هذا القلب سواه، ولايخطر ببالها غيره.

قال ابن القيّم ـ رحمه الله ـ[(١)]: «إنّهن جَمَعْنَ لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المُفرِطِ والطلب المُفْرِطِ، فلم تقتصد في حبّها، ولا في طلبها، أمّا العشق فقولهنّ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي: وَصَلَ حبُّهُ إلىٰ شغاف قلبها، وأمّا الطلب المفرط فقولهنّ: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾، والمراودة: الطلبُ مرّةً بعد مرّةٍ، فنسبوها إلىٰ شدّة العشق وشدّة الحرص على الفاحشة». والله أعلم.

وبهذه المناسبة أقول: يروىٰ أن رجلاً قال لنبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ: إني أحبّك يا صفيّ الله، فقال: هل أُتيتُ إلا من محبة الناس لي؛ أحبني أبي، فحسدني إخوتي، حتىٰ ألقوني في الجبّ، وأحبتني امرأة العزيز، فلبثت بضع سنين في السجن، فلستُ أحبُّ أن يحبني إلا ربي[(٢)]. واللّهُ أَعْلَمُ.

ومن النوادر اللطيفة أنه حين مات الشاعر كثيّر بن عبدالرحمن، غلب النساء علىٰ جنازته، يبكينه، ويذكرن محبوبته عزّة في ندبتهنّ له، فقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: افرجوا لي عن جنازة كثيّر؛ لأرفعها، فجعل يضرب النساء بكمّه، ويقول: تنحّين يا صواحبات يوسف. فانتدبت له امرأة منهن، فقالت: يابن رسول الله لقد صدقتَ؛ إنا لصواحبات يوسف، وقد كنّا له خيراً منكم له، فقال أبو جعفر لبعض مواليه: احتفظ بها حتىٰ تجيئني بها إذا

(١) التفسير القيّم: ٣١٥.
(٢) التمثيل والمحاضرة: ١٤.

انصرفنا.

فلما انصرف أُتي بتلك المرأة كأنّها شرارة النار، فقال لها محمد بن علي: أنت القائلة إنّكنّ ليوسف خيرٌ منّا؟ قالت: نعم! تؤّمنني غضبكَ يا بن رسول الله؟ قال: أنت آمنةٌ من غضبي، فأبيني. قالت: نحن يابن رسول الله دعوناه إلى اللذات من المطعم والمشرب، والتمتع والتنعم، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجبّ، وبعتموه بأبخس الأثمان، وحبستموه في السجن، فأيّنا كان عليه أحنى، وبه أرأفُ؟ فقال محمد ابن علي: للّه درّك! ولن تُغالَبَ امرأةٌ إلا غَلَبَتْ.

ثم قال لها: ألك بعلٌ؟ قالت: لي من الرجال مَنْ أنا بعلُهُ. فقال أبو جعفر: صدقتِ؛ مثْلُكِ مَنْ تملكُ بعلَها، ولا يملكها.

فلما انصرفت قال رجلٌ من القوم: هذه زينب بنت معيَقب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾**﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩].

قال ابن الجواليقيّ: «ولا تفرّقُ عوامُّ النّاسِ بين (العام) و(السَّنَةِ)، ويجعلونهما بمعنًى واحدٍ، فيقولون: سافرَ في وقتٍ من السَّنَةِ، أي:

---

(١) الأغاني: ٩/ ٣٨-٣٩.

وقتَ كـان إلىٰ مـثله ذلك، وهو غـلطٌ، والصـوابُ مـا أُخـبِـرتُ به عن أحمـد بن يحيىٰ أنّه قـال: (السَّنَةُ) من أيّ يومٍ عددتَهُ إلىٰ مثله. و(العامُ) لا يكون إلا شتاءً وصيفاً، وليس السَّنَةُ والعـامُ مشتقّين من شيء، فإذا عـددتَ من اليوم إلىٰ مثله فهو سَنَةٌ، يدخلُ فيه نصفُ الشتـاء ونصفُ الصيف، والعامُ لا يكون إلا صيفاً وشتاءً . . . فالعامُ أخصُّ من السَّنَةِ، فعلىٰ هذا تقول: كلُّ (عامٍ) سَنَةٌ، وليس كلُّ (سَنَةٍ) عاماً»[1].

وقال الراغب الأصفهانيّ في كتابه (المفردات)[2]: «وأكثر ما تستعملُ السَّنَةُ في الحَوْلِ الذي فيه الجَدْبُ، يقال: أسنتَ القومُ، أصابتهم السَّنَةُ»، وقال في موضعٍ آخر[3]: «العامُ كالسَّنَةِ، لكن كثيراً ما تُسْتَعْمَلُ السَّنَةُ في الحَوْلِ الذي يكون فيه الشدّةُ أو الجَدْبُ، ولهذا يعبّرُ عن الجَدْبِ بالسَّنَةِ، والعام بما فيه الرخاء والخِصْبُ».

وقد سار أكثر المفسّرين[4] علىٰ التفريق بينهما من حيث القَحْطُ والخِصْبُ، واستشهدوا علىٰ ذلك بأحاديث، منها ما رواه مسلمٌ ـ رحمه الله ـ عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: (. . . وإنّي سألتُ ربّي لأمّتي أن لا يهلكها بسنةٍ بعامّةٍ)[5].

وأقول: أوضح منه في الاستشهاد ما رواه مسلمٌ ـ رحمه الله ـ عن

(١) تاج العروس للزبيديّ: ٨/ ٤١٣ .
(٢) ص: ٢٤٥ .
(٣) المفردات: ٣٥٤ .
(٤) تفسير أبي السعود: ٤ / ٢٣٨ .
(٥) صحيح مسلم: ٣/ ٢٢١٥ .

أبي هريرة أنّ رسول اللّه ﷺ قال : (ليست السَّنَةُ بأن لا تُمطروا، ولكنّ السَّنَةَ أن تُمطروا، وتمطروا، ولا تُنبتُ الأرضُ شيئاً)[١]؛ لأنّ رسول اللّه ﷺ سار في تعريفه للسَّنَةِ على ما يعرفه أصحابه رضي اللّه عنهم، ثمّ بيّنَ لهم التعريف الصحيح لها.

ولكنْ فرّقَ بينهما أبو هلال العسكريّ من جوانب أخرى، فقال[٢]: «الفرق بين (العام) و(السَّنَة) أنّ العامَ جمعُ أيّامٍ، والسَّنَةَ جمعُ شهورٍ، ألا ترى أنّه لمّا كان يُقال: أيّامُ الزنْجِ، قيل: عامُ الزنْجِ، ولمّا لم يُقَل: شهورُ الزنْجِ، لم يُقَلْ: سنة الزنْجِ.

ويجوز أن يقال: (العام) يفيد كونه وقتاً لشيء، و(السَّنَةُ) لا تفيد ذلك، ولهذا يقال: عامُ الفيل، ولا يقال: سنة الفيل، ويقال في التاريخ: سنة مئةٍ، وسنة خمسين، ولا يقال: عام مئة، وعام خمسين؛ إذ ليس وقتاً لشيء ممّا ذُكِرَ من هذا العددِ، ومع هذا فإنّ العامَ هو السَّنَةُ، والسَّنَةَ هي العامُ، وإن اقتضى كلُّ واحدٍ منهما ما لا يقتضيه الآخر ممّا ذكرناه، كما أنّ الكلَّ هو الجَمْعُ، والجَمْعَ هو الكلُّ، وإن كان الكلُّ إحاطةً بالأبعاض، والجَمْعُ إحاطةً بالأجزاء».

ويرى السهيليّ ـ رحمه اللّه ـ أنّ الفرق بينهما أنّ (العام) يطلق على ذي الشهور القمريّة، وأمّا (السنة) فتطلق على ذات الشهور الشمسيّة[٣].

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ٢٢٢٨.
(٢) الفروق اللغويّة: ٢٢٤.
(٣) الروض الأنف: ٢/ ٥٧ ـ ٥٩.

وعوداً إلى الآيات التي هي محلّ هذه النظرة نجد المولى ـ عزّ وجلّ ـ قال: ﴿سَبْعَ سنينَ﴾، ثمّ قال: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾، ففي الأولى استعمل السنين، ثمّ استعمل العام، فما السرّ في ذلك؟.

قال السهيليّ ـ رحمه الله ـ[1]: «قال: ﴿سِنِينَ﴾، ولم يقل: (أعواماً)، والسَّنَةُ والعامُ ـ وإنِ اتّسعتِ العربُ فيهما، واستعملتْ كلَّ واحدٍ منهما مكانَ الآخرِ اتّساعاً ـ ولكنَّ بينهما في حكم البلاغة والعلم بتنزيل الكلام فرقاً، فَخُذْهُ:

أولاً: من الاشتقاق؛ فإنّ السَّنَةَ من: سَنا، يَسْنُو، إذا دار حول البئر، والدابّة: هي السانية، فكذلك السَّنَةُ: دورةٌ من دورات الشمس، وقد تسمّى السَّنَةُ (دارا)؛ ففي الخبر: (إنّ بين آدم ونوحٍ ألفَ دارا)، أي: ألف سَنَةٍ، هذا أصل الاسم، ومن ثم قالوا: أكلتْهم السَّنَةُ، فسمّوا شدّة القحط سنةً، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ومن ثمّ قيل: أسنتَ القومُ، إذا أقحطوا..؛ لأنّ الجُدُوبَةَ والخِصْبَ معتبرٌ بالشتاء والصيف، وحسابُ العجم إنّما هو بالسنين الشمسيّة، بها يؤرّخون......

وانظرْ بعد هذا إلى قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، ولم يقل: (أعواماً)، ففيه شاهدٌ لما تقدّم، غير أنه قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾، ولم يقل: سنة، عدولاً عن اللفظ المشترك؛ فإنّ السنة قد يعبّر

---

(١) الروض الأنف: ٢/ ٥٧ ـ ٥٨.

بهـا عن الشـدّة والأزمـة، كمـا تقدّم، فلو قـال: (سَنَةٌ) لذهب الوهم إليها؛ لأنَّ العامَ أقلُّ أيّاماً من السنة، وإنّما دلّتِ الرؤيا على سبعِ سنينَ شدادٍ، وإذا انقضى العدد فليس بعد الشدّة إلا رخاءٌ، وليس في الرؤيا مـا يدلّ على مـدّة ذلك الرخـاء، ولا يمكن أن يكون أقلّ من عـامٍ، والزيادة على العام مشكوكٌ فيها، ولا تقتضيها الرؤيا، فَحُكِمَ بالأقلِّ، وتُرِكَ ما يقع فيه الشكُّ من الزيادة على العام، فهاتان فائدتان في اللفظ بالعام في هذا الموطن».

ثمّ وجّهَ السهيليّ ـ رحمه الله ـ بعض الآيات، فقال[1]: «وأمّا قـوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]، فإنّما ذكر السنين، وهي أطول من الأعـوام؛ لأنّه مـخبـرٌ عن اكتـهالِ الإنسـانِ، وتمامِ قـوّتهِ، واستوائهِ، فلفظ السنين أولى بهذا الموطن؛ لأنّها أكملُ من الأعوام.

وفـائدة أخرى: أنّه خبـرٌ عن السنّ، والسنُّ معتبـرٌ بالسنين؛ لأنّ أصل السنّ في الحيوان لا يُعْتَبَرُ إلا بالسَّنَةِ الشمسيّة؛ لأنَّ النتاجَ والحملَ يكون بالربيع والصيف، حتّى قيل: (رِبعيّ) للبكِيرِ، و(صيفيّ) للمُؤخَّرِ . . . . . ، فلمّا قيل في الفصيل ونحوه: ابنُ سَنَةٍ، وابنُ سنتين، قيل ذلك في الآدميّين، وإن كان أصله في الماشية.

وأمّا قـوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤][2]، فلأنّه قال

(١) الروض الأنف: ٢/ ٥٨ـ٥٩ .

(٢) في المطبوع من كتاب الروض الأنف: (وحمله وفصاله في عامين)، ولا آية في القرآن بهذا النصّ، بل هناك قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] .

سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فالرضاع من الأحكام الشرعيّة، وقد قصرنا فيها على الحساب بالأهلّة.

وكذلك قوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧]، ولم يقل: سنة؛ لأنّه يعني شهر المحرّم وربيع إلى آخر العام، ولم يكونوا يحسبون بأيلول، ولا بتشرين، ولا بينير، وهي الشهور الشمسيّة.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] إخبارٌ منه لمحمّد ﷺ وأمّته، وحسابهم بالأعوام والأهلّة كما وقّتَ لهم سبحانه.

وقوله سبحانه في قصّة نوح: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت: ١٤]، قيل: إنّما ذكر أولاً السنين؛ لأنّه كان في شدائدَ مُدَّتَهُ كُلَّها إلا خمسين عاماً منذ جاءه الفرج، وأتاه الغوث، ويجوز أن يكون الله سبحانه عَلِمَ أنّ عُمُرَهُ كان ألْفاً إلا أنّ الخمسين منها كانتْ أعواماً، فيكون عمره ألفَ سنة، ينقص منها ما بين السنين الشمسيّة والقمريّة في الخمسين خاصّة؛ لأنّ خمسين عاماً بحساب الأهلّة أقلّ من خمسين سنة شمسيّة بنحو عامٍ ونصف، فإن كان الله سبحانه قد عَلِمَ هذا مِنْ عُمُرِهِ، فاللفظُ موافقٌ لهذا المعنى، وإلا ففي القول الأوّل مقنعٌ، والله أعلم بما أراد.

فتأمّل هذا؛ فإنّ العلم بتنزيل الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها يفتح لك باباً من العلم بإعجاز القرآن.

وابْنِ هذا الأصلَ تَعْرِفِ المعنى في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ

خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧]، وأنّه كلامٌ وَرَدَ في مَعْرِضِ التكثيرِ والتفخيمِ لطولِ ذلك اليومِ، والسَّنَةُ أطولُ من العامِ، كما تقدَّم، فلفظها أليقُ بهذا المقام».

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦].

كرَّرَ كلمتي ﴿وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وذلك لأسباب:

أمّا تكرار كلمةِ ﴿وعاء﴾ فإنّه لو قال: (ثُمَّ استخرجها منه) لأوهمَ الكلامُ أنّه استخرجها من أخيه؛ لأنّه أقربُ مذكورٍ، قال ابنُ الحاجبِ في أماليه[1]: «فيصيرُ كأنَّ الأخَ كانَ مُباشَراً بطلبِ خروجِ الوعاءِ، ولم يكنِ الأمرُ كذلك؛ لما في المباشَرةِ من الأذىٰ الذي تأباهُ النفوسُ الأبيّةُ، فأُعِيدَ بلفظِ الظاهرِ؛ لنفي هذا التوّهمِ».

وأمّا تكرارُ كلمةِ ﴿أخيه﴾ فإنَّه لو قال: (ثُمَّ استخرجها من وعائه) لأوهمَ الكلامُ أنَّ يوسفَ ـ عليه السلام ـ استخرجها من وعائه هو ـ أي من وعاءِ يوسفَ ـ؛ لأنّ الأصل في الضمير أن يعود علىٰ أقرب مذكور، وهو يوسف[2].

---

(١) الأمالي النحويّة: ١/ ١٠٢ـ١٠٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٩٠.

ثُمَّ إنَّ تكرارَ هذه الكلمةِ فيه تأكيدٌ على منزلةِ الأخِ في قلبِ يوسفَ عليه السلام. واللَّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾ [يوسف: ٨٠].

يروىٰ أنّ أعرابيّاً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية، فقال: (أشهدُ أنّ مخلوقاً لا يقدر علىٰ مثلِ هذا الكلام)[(١)]؛ فالاستفعال هنا ﴿اسْتَيْأَسُوا﴾ يدلّ علىٰ شدّة قنوط إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ بعد تكرار محاولاتهم بأن يأخذ يوسف أحدهم مكان أخيهم الذي عاهدوا أباهم علىٰ الحفاظ عليه، قال أبو السعود ـ رحمه اللّه ـ: « ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ أي: يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشدّ يأسٍ بدلالة صيغة الاستفعال، وإنّما حَصَلَتْ لهم هذه المرتبةُ من اليأسِ؛ لما شاهدوه من عوذه باللّه ممّا طلبوه، الدالِّ علىٰ كون ذلك عنده في أقصىٰ مراتب الكراهة، وأنّه ممّا يجب أن يُحْتَرَزَ عنه، ويُعاذَ منه باللّه عزّ وجلّ، ومن تسميته ظلماً بقوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)﴾.

﴿خَلَصُوا﴾: اعتزلوا، وانفردوا عن النّاس، ﴿نَجِيًّا﴾ أي: ذوي

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ١ / ٦٤.

نجوىٰ، علىٰ أن يكون بمعنىٰ النجوىٰ والتناجي، أو: فوجاً نجيّاً، علىٰ أن يكون بمعنىٰ المناجي، كالعشير والسمير بمعنىٰ المُعاشَرِ والمُسامَرِ».

وأظنُّ أنَّ سببَ سجودِ الأعرابيِّ هو ما يدلّ عليه قوله: ﴿خلصُوا نَجيّاً﴾ من مبالغتهم في الاعتزال والانفراد عن النّاس، وتحاشيهم أن يسمعَ أحدٌ كلامَهُمْ، ومع ذلك أطلع اللّه تعالىٰ نبيّه محمّداً ﷺ علىٰ محاوراتهم، حيث قال: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨].

فقد أضيفَ اليومُ إلىٰ ﴿الْوَقْتِ﴾، والظاهرُ أنَّهما بمعنىٰ واحدٍ، فكأنّه قال: (إلىٰ وقتِ الوقتِ المعلومِ)، فأضيفَ الشيءُ إلىٰ نفسِهِ، وقد صحَّ ذلك؛ لأنَّ ﴿الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الذي أُضيفَ إليه ﴿يَوْمِ﴾ يرادُ به النفخُ في الصور، أو القيامةُ، فكأنّه قال: يوم النفخِ في الصور، أو: يوم القيامة، فالوقتُ المعلومُ أصبح علماً علىٰ النفخ أو القيامةِ، فلم تكنِ الإضافةُ ههنا من إضافةِ الشيء إلىٰ نفسِهِ الممنوعةِ في اللغة (١).

(١) الأمالي النحويّة: ١/ ٦٩.

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤].

حكي أنَّ بعضَ الأعرابِ لما سمعَ هذه الآية سَجَدَ ، فلما سُئلَ عن سببِ سجودِه قال : «سجدتُ لفصاحة هذا الكلام»(١) . ونقل أبو حيّان عن أبي عبيدة عن رؤبة قوله : «ما في القرآن أغرب من قوله : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾»(٢) .

فقوله : ﴿فَاصْدَعْ﴾ بمعنىٰ : امضِ فيه ، وأَظْهِرْهُ ، واجْهَرْ به ، قالَ ابنُ أبي الإصبع في كتابه (بديع القرآن) (٣) : «المعنىٰ : صَرِّحْ بجميعِ ما أوحي إليك ، وبَلِّغْ كُلَّ ما أُمِرْتَ ببيانِه ، وإنْ شقَّ بعضُ ذلك علىٰ بعضِ القلوبِ ، فَانْصَدَعَتْ ، والمشابهةُ بينهما فيما يؤثِّره التصديعُ في القلوب ، فيظهرُ أثرُ ذلك علىٰ ظاهرِ الوجوهِ من التَّقَبُّضِ والانبساطِ ، ويلوحُ عليها من علاماتِ الإنكارِ أو الاستبشارِ ، كما يظهرُ علىٰ ظاهرِ الزجاجةِ المصدوعةِ من المطروقةِ في باطنها ، فانظرْ إلىٰ جليلِ هذه الاستعارةِ ، وإلىٰ عظيمِ إيجازِها ، وما انطوتْ عليه من المعاني الكثيرة» . انتهىٰ كلامه .

فالصَّدْعُ علىٰ هذا القولِ يكونُ من الرسولِ ﷺ لقلوبِ الكفّارِ بما

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ١/ ٦٤ .
(٢) البحر المحيط : ٦/ ٤٩٨ .
(٣) ص : ٢٢ .

أوحىٰ اللّٰهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّه ﷺ .

ثُمَّ تأمّلوا ـ رحمني اللّٰهُ وإيّاكم ـ في تَخصيصِ الآية للمصدوعِ به بالأوامرِ فقط، حيثُ قالَ اللّٰهُ تعالىٰ: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾، ولمْ يقلْ: (وبما تُنهىٰ)؛ لأنّه لمّا حذفَ الجارَ والمجرورَ بعدَ قولِه: ﴿تُؤْمَرُ﴾، حيث أصلُ الكلامِ: (بما تؤمرُ به)، صارَ اللفظُ دالاً علىٰ الأوامرِ والنواهي؛ لأنَّ أوامرَ اللّٰهِ تعالىٰ لنبيّه ﷺ كانتْ تقضي بأنْ يأمرَ الكافرين باتّباعِ الدينِ الجديدِ، وينهاهم عن عبادةِ الأصنامِ، والطلبُ من الرسولِ ﷺ بتبليغِ الكفارِ أوامرَ اللّٰهِ تعالىٰ ونواهيه كلَّها أوامرُ للرسول ـ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ ـ، ولأجلِ ذلك حَسُنَ حذفُ الجارِ والمجرورِ، فلم يَقُلْ: (بما تؤمر به)؛ إذ لو قيلَ ذلك لوجبَ أنْ يقَال: (وبما تُنْهىٰ عنه)، وما يُنْهىٰ الإنسانُ عنه لا يليقُ به الجهرُ. واللّٰه أعلم.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٨].

عادةُ العربِ في كلامها أنْ تُؤَخِّرَ الأهمَّ للامتنانِ به إذا كانَ المقامُ مقامَ تَعْدادٍ للفضائلِ والمكارمِ، لكنَّ ظاهرَ هذه الآيةِ يوحي بتقديمِ الأهمِّ، حيثُ قَدّمَ الخيلَ علىٰ البغال، والبغالَ علىٰ الحميرِ، فَلِمَ جاء الكلام في هذه الآية علىٰ خلاف النسق المعروف عند العرب؟

الجوابُ عن ذلك: أنَّ الآيةَ سارتْ علىٰ القاعدةِ، ولم تشذَّ عنها،

فالحميرُ أهمُّ من الخيلِ والبغالِ، والبغالُ أهمُّ من الخيلِ؛ نظراً إلى أنَّ معظمَ الناسِ يستفيدون من الحميرِ حيث يقدرون عليها، ولا يقدرون على الخيل، ويستطيع كثيرٌ من الناسِ الحصولَ على البغالِ أكثرَ من استطاعتِهم الحصولَ على الخيلِ، ومن هنا يتضحُ أنَّ الآيةَ لم تخالفْ سَنَنَ العربِ في كلامها. والله أعلم.

والمتأمّل لقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ يجد تنويعاً بالأسلوب؛ فالركوبُ والزينةُ علّتان لخلقِ هذه الدوابِ، لكنَّهُ عَبَّرَ عن الركوبِ بالفعلِ، وَعَبَّرَ عن الزينةِ بالاسمِ المنصوبِ، ويُعَلِّلُ النحاةُ ذلك بقولهم: إنَّ الزينةَ مفعولٌ لأجله، من الفعلِ في الآية السابقة على هذه الآية: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] حيث اتّحدَ المصدرُ مع العاملِ بالفاعلِ، ففاعلُ الخلقِ والتزيينِ هو اللّهُ تعالى، ولذلك استوفى المصدرُ شروطَ النصبِ على المفعولِ لأجله، فنُصِبَتْ ﴿زِينَةً﴾، أمّا الركوبُ فَفاعِلُهُ المخاطبون، فانتفى شرطٌ من شروطِ نصبِ المفعولِ لأجلِه بعدمِ اتّحاده مع عامِله بالفاعلِ، فجُرَّ باللامِ(١)، وهذا هو التعليلُ اللفظي لسياق الكلام.

وللزمخشريّ تعليلٌ آخر حيث قال: «فإن قلتَ: فهلا وَرَدَ المعطوفُ والمعطوفُ عليه مِنْ سَنَنٍ واحدٍ، قلتُ: لأنّ الركوب فعلُ المخاطبين، وأمّا الزينة ففعلُ الزائن، وهو الخالق»(٢).

---

(١) الكشّاف: ٢/ ٤٠٢.

(٢) المصدر السابق.

أمّا التعليلُ المنظورُ فيه إلى المعنى فهو أنْ يُقالَ : إنَ المقصدَ الأساسَ من خلقِ هذه الدوابِّ هو الركوبُ، وهو يتجدّدُ مرّةً بعد أخرى، وغيرُ ثابتٍ، ولذلك عبّرَ عنه بالفعلِ، وجرّه باللامِ المفيدةِ للتعليلِ، أمّا الزينةُ فهي تابعةٌ لأهمِّ الغرضين، وهو الركوبُ، فجَعَلَها تبعاً، وعبّرَ عنها بالاسمِ الذي يدلُّ على الثبوتِ والدوامِ؛ لأنَّ الزينةَ غيرُ متجدّدة .

وأخيراً تأمّلْ قوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ تجد الإعجاز عينه؛ فالعربُ حين نزولِ القرآنِ الكريم لم تعرفْ غيرَ وسائلِ النقلِ المذكورةِ في الآيات، أمّا وسائلُ النقلِ الأخرى فأشار اللّه تعالى إليها إشارة بقوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾، ولذلك لا تعجَبْ حينَ تقرأُ بعض التفاسيرِ القديمةِ فتجدَها لا تقطعُ بمرادِ اللّهِ تعالى بهذه الآية؛ لأنَّ هؤلاء المفسرين لم يروا غيرَ تلك الوسائل المعهودةِ لديهم . واللّه أعلم .

* * *

قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦] .

إذا تأمّل القارئ قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ فقد يبدو له أنّ قوله : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ﴾ مغنٍ عن قوله : ﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾؛ لأنّ ﴿ خَرَّ ﴾ و ﴿ عَلَيْهِمُ ﴾ و ﴿ السَّقْفُ ﴾ كلّها تدلّ على حصول الخرِّ من فوقهم؛ فالخرّ لا يكون إلا فيما سقط من العُلْوِ إلى الأسفل، و (على) في أصل استعمالها تدلّ على وقوع الشيء من أعلى إلى أسفل،

والسقف أصله أن يكون في العُلْوِ.

لكنّ المتدبّر لهذه الآية يدرك أنّ لقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ فائدةً جليلةً؛ إذ دلّتْ على الفوقيّة الحقيقيّة، فالسقف قد وقع عليهم، وكانوا تحته، فهلكوا، وما أفلتوا[(١)]، ولولا ذِكْرُ ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ لَتُوُهِّمَ غيرُ ذلك؛ لأنّ (على) ليستْ قطعيّةً في الدلالة على العلو، بل قد تكون هنا «بمعنى (عن)، أي: خرّ عن كفرهم بالله، كما تقول: اشتكى فلانٌ عن دواءٍ شَرِبَهُ، أي: من أجل كفرهم، أو بمعنى (اللام)، أي: فخرّ لهم»[(٢)]، وذكر ابن جنّي أنّ (على) قد تخرج عن الاستعمال في العلو إلى الاستعمال في الأفعال الشاقّة المستثقلة «على [حدِّ] قولِ مَنْ يقول: قد سرنا عشراً، وبقيتْ علينا ليلتان، وقد حفظتُ القرآن، وبقيتْ عليّ منه سورتان، وقد صمنا عشرين، وبقي علينا عشرٌ، وكذلك يقال في الاعتداد على الإنسان بذنوبه وقبيح أفعاله: قد أخربَ عليَّ ضيعتي، وموّتَ عليَّ عواملي، وأبطلَ عليَّ انتفاعي، فعلى هذا لو قيلَ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾، ولم يقل: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ لجاز أن يُظنَّ به أنّه كقولك: قد خرّبتُ عليهم دارَهُمْ، وقد أهلكتُ عليهم مواشيَهُمْ وغلاتِهِمْ، وقد تلفتْ عليهم تجارتُهُمْ، فإذا قال: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ زال ذلك المعنى المحتمل، وصار معناه أنّه سقط وهم من تحته»[(٣)]، ويؤيّد ذلك أنّه

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٤٣، ٣/ ٦٧.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٤٢.

(٣) الخصائص: ٢/ ٢٧٠ـ٢٧١.

يقال: سقط عليه موضع كذا، إذا كان يملكه، وإن لم يكن من فوقه، بل تحته [١].

كما أنّه ليس كلّ سقفٍ يكون من فوقٍ؛ «فإنّ كثيراً من السقوف يكون أرضاً لقومٍ، وسقفاً لآخرين»[٢]، فرفع احتمال أن يكون السقف تحتهم بقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾. والله أعلم.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١].

حيث قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ مع أنّ قوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ دالٌّ علىٰ التثنيةِ، فما فائدةُ الوصفِ بقوله: ﴿اثْنَيْنِ﴾ ؟

للعلماءِ في ذلك أقوالٌ متعدّدةٌ، من أحسنها قولُ أحمدَ بنِ الحسينِ ابنِ الخبّازِ الإربليِّ ـ رحمه الله ـ: «إنَّ فائدتَها توكيدُ النهي عن الإشراكِ بالله سبحانه؛ وذلك لأنَّ العبرةَ في النهي عن اتخاذ الإلهين إنّما هو لمحضِ كونِهما اثنين فقط، ولو وُصِفَ ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ بغيرِ ذلك من الصفاتِ كقوله: (لاتتخذوا إلهين عاجزين) لأشعرَ بأنّ القادرَيْنِ يجوزُ أنْ يُتَّخَذا، فمعنىٰ التثنيةِ شاملٌ لجميع الصفاتِ، فسبحانَ مَنْ دَقَّتْ حكمتُهُ في كلِّ شيء !!!»[٣].

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٤٣.
(٢) المصدر السابق: ٣/ ٦٧.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

وقيل: إنَّه لو قال: ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ﴾ فقط، دونَ الصفةِ، لاحتملَ النَّهي عن الجمع بينهما، فلا مانعَ من اتِّخاذِ كلٍّ واحدٍ منهما منفرداً.

واحتمل النهيَ عن الاقتصارِ عليهما، فلا مانعَ من اتّخاذِ آلهةٍ ثلاثةٍ فأكثر، ولنفي هذين الاحتمالين أتىٰ بقوله: ﴿اثْنَيْنِ﴾؛ ليتوجَّهَ النفيُ إلىٰ التعدّدِ نفسِه والعددِ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

يستشهدُ أهلُ اللغةِ بهذه الآيةِ علىٰ حذفِ العاطفِ والمعطوفِ، ويجعلونَ التقدير: (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ والبرد)[١]، فإذا سئلوا عن سرّ حذف (البرد) قالوا: إنَّ الخطابَ للعربِ، وبلادُ العربِ حارّةٌ، والوقايةُ عندهم من الحرّ أولىٰ وأهمُّ؛ لأنّه في حرارته أشدُّ من البرد في برودته[٢].

والصحيحُ أنَّ الوقايةَ من البردِ ذكرها اللّهُ تعالىٰ في الآية التي قبلَ هذه الآية[٣] حيث قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا

(١) البسيط في شرح جمل الزّجّاجيّ: ١/ ٤١٣، مغني اللبيب: ٣٥.
(٢) الكشّاف: ٢/ ٤٢٣.
(٣) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ١١٨.

وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل: ٨٠]؛ فالصوفُ والوَبَرُ والشَّعَرُ لا تلبسُ في الصيف، فأغنىٰ ذكرها سابقاً عن إعادتها.

وذكر ابن هشامٍ ـ رحمه اللّه ـ [(١)] أنّ عدم ذكره كان اكتفاءً بقوله في أوّل السورة عن الأنعام: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾. واللّه أعلم.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٥].

قيّدَ إيفاءَ الكيلِ بقوله: ﴿ إِذَا كِلْتُمْ ﴾، ولم يفعلْ ذلك مع الوزنِ، ولذلك فائدةٌ جليلةٌ [(٢)]، فالكيلُ إمّا أنْ يكيلَهُ الإنسانُ، أو يكتالَهُ، فالأوّلُ بيعٌ، وهو الذي يقعُ فيه البخسُ والتطفيفُ، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٣]، والثاني، وهو الاكتيالُ، شراءٌ لا حاجةَ إلىٰ الأمرِ بإيفائه؛ لأنّ المشتريَ سيكونُ حريصاً علىٰ ذلك دونَ أن يُوصىٰ به، قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين: ٢]، بل إنَّ المشتريَ مأمورٌ بأن يتسامحَ عندَ الكيلِ له.

ولو لمْ يُقيِّدْ ذلك بقوله: ﴿ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ لأوهمَ أنَّ الإيفاء مطلوبٌ في الكيل والاكتيالِ، لكنَّه لمّا قُيِّدَ بالشرطِ أَفْهَمَ أنَّ المقصودَ وقتُ الكيلِ، لا وقتُ الاكتيالِ، وقال أبو حيّانَ: «إنَّ المرادَ ألا يتأخرَ الإيفاءُ، بأنْ يكيلَ

---

(١) مغني اللبيب: ٨٢٠.

(٢) تفسير أبي السعود: ٥/ ١٧١.

به بنقصانٍ ما، ثُمَّ يُوفِيَهُ بعدُ، فلا يتأخرُ الإيفاءُ عن وقت الكيل».

أمّا عدم تقييدِ الوزنِ بـ(إذا وزنتم)، فلعلّ الاكتفاءَ بتقييد كونِ الوزنِ بالقسطاسِ المستقيم يُغْني عن ذِكْرِ الشرطِ؛ لأنَّهُ إذا وُزِنَ بالميزانِ المستقيم لا يُتَصوَّرُ الجورُ غالباً، بخلافِ الكيلِ فإنّه كثيراً ما يقعُ التطفيفُ مع استقامةِ الآلةِ، كذا قالَ أبو السعودِ[1]. واللّه أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدْ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

في هذه الآية من البدائع ما لا يحيط به بيانٌ، فتأمّل كيف أراد اللّه عزّ وجلّ «أن يعرّفنا لُطْفَهُ للفتية، وَحِفْظَهُ إيّاهم في المَهْجَعِ، واختيارَهُ لهم أصلحَ المواضعِ للرُّقودِ، فَأعْلَمَنا أنه بَوّأَهُمْ في مقنأةِ الجبلِ[2]، مستقبلاً بناتِ نعشٍ، فالشمسُ تزورُّ عنه، وتستدبره طالعةً وجاريةً وغاربةً، ولا تدخل عليهم، فتؤذيهم بحرِّها، وتلفحهم بسمومها، وتغيِّرُ ألوانهم، وتبلي ثيابهم، وأنّهم في فجوة من الكهف ـ أي متّسعٍ منه ـ، ينالهم فيه نسيمُ الريح وبردها، وينفي عنهم

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ١٧١.
(٢) المقنأة: هو المكان الذي لا تقع عليه الشمس، بأن يكون بابه جهة الشمال.
انظر: الصحاح: ١/ ٦٦، الروض الأنف: ٢/ ٥٥.

غُمّةَ الغار وكربه»(١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: ١٨].

ظَنُّ الناظرِ إلىٰ أصحابِ الكهفِ أنّهم أيقاظٌ يتجدّدُ عندما يعيدُ النظرَ إليهم مرّةً بعد أخرىٰ، ويرىٰ من هيئتهم وحالهم ما يدلُّ علىٰ ذلك، ولتجدُّدِ الظنِّ والحسبانِ عنده عُبِّرَ عنه بالجملة الفعليّة: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾، ولثبوتِ رقودهم ودوامه وعدمِ استيقاظهم منه عُبِّرَ بالجملةِ الاسميّةِ، وهي قوله: ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

وفي هذه الآية أيضاً جملةٌ فعليّةٌ، وأخرىٰ اسميّةٌ، حيث عَبَّرَ عن تقليبِ أصحابِ الكهفِ يميناً وشمالاً بالجملةِ الفعليّةِ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾(٢)؛ لتكرارِ حصولِه مرّةً بعد مرّةٍ منعاً من تآكلِ

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ٩.

(٢) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف:
«لاحظت نكتتين في قوله: ﴿ونقلّبهم﴾:
الأولى: أن التقليب من الله تعالى لهؤلاء الفتية الرقود، والعهد بالنائم أن يتقلّب في الفراش دون أن يقلّبه أحد، لكن لما كان نوم هؤلاء على غير السنن المألوف؛ إذ كان خارقاً للعادة في كل مظاهره، ناسب إسناده إلى الله تعالى، لا إليهم.
ومثل هذه الصيغة في القرآن يحتمل أحياناً أن يكون المباشر للفعل هم الملائكة، وإسناده إلى الله تعالى باعتبار أمره به وتقديره له جل وعلا.
الثانية: يستفاد من صيغة الفعل: ﴿نقلّبهم﴾ الكثرة والتكرار؛ وذلك ناشىء عن طول المدة التي لبثوها في الكهف المستديمة؛ لدوام تقليبهم يميناً وشمالاً. والله أعلم». ا. هـ.

أجسادهم، وعَبَّرَ عن بَسْطِ الكلبِ ذراعيه؛ لثبوته ودوامه، بقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي بالجملةِ الاسميّةِ التي تدلُّ على ذلك.

أمّا قولُه: ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فالمراد: الجهة ذات اليمين، والجهة ذات الشمال، والإتيان بـ﴿ذَاتَ﴾ التي هي بمعنى (صاحبةٍ)، دونَ أنْ يقولَ: (ونقلبهم يميناً وشمالاً)؛ لأنَّ المقصودَ أَيْمانُهُمْ وشمائلُهُمْ، ولو جاءتْ منكَّرةً لما تحدّدتْ. واللّه أعلم.

أمّا تكرارُ كلمةِ ﴿ذَاتَ﴾ حيثُ قالَ: ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ مع إمكانِ أنْ يقالَ في غيرِ القرآنِ الكريم: (قلَّبتُه ذاتَ اليمين والشمال)؛ فلأنَ المدّةَ بين التقليبين طويلةٌ حتّى قالَ بعضُ المفسِّرين: إنّها سَنَةٌ[1]، وقال مجاهد: تسعُ سَنواتٍ[2]. واللّه أعلم.

وأخيراً تأمّلوا تكرارَ كلمةِ ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. فتكرارُ الجار والمجرور ﴿مِنْهُمْ﴾ للدلالة على هولِ منظرهم، وللتأكيد على أنَّ الرعبَ يكونُ بسبب رؤيتهم على تلك الحالة لا بسبب وحشة المكان الذي هم فيه. واللّه أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي

(١) الكشّاف: ٢/ ٤٧٥.
(٢) تفسير الرازي: ٢١/ ٨٦.

الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الكهف: ٦١].

نَسَبَ النسيان إلىٰ موسىٰ ـ عليه السلامُ ـ وفتاه، مع أنّ الناسي هو الفتىٰ، فأشرك موسىٰ ـ عليه السلامُ ـ فيه؛ لسكوته وعدم سؤاله عنه[1].

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧٧].

حيث كرَّر كلمةَ ﴿أَهْلَ﴾، فقال: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ بعد قوله: ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾؛ لأنّه لو قال: (استطعماهم) ـ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ ـ لعادَ الضميرُ على ﴿أَهْلَ﴾ الأولىٰ، فيكونُ مدلولُهُ مدلولَ الأوّلِ، وهذا غيرُ ممكنٍ؛ لأنَّ ﴿أَهْلَ﴾ الأولىٰ يرادُ بها جميعَ أهلِ القريةِ، فالمقصودُ بالإتيان الوصولُ إليهم، كما يقولُ القائلُ: أتيتُ أهلَ مِصْرَ، وهو يقصدُ أنّه وصلَ إليهم، أمّا ﴿أَهْلَ﴾ الثانية فقد وقعتْ معمولاً للفعلِ ﴿اسْتَطْعَمَا﴾، وهو فعلٌ خاصٌّ، فلو قال: (استطعماهم) لتوهّمَ السامعُ أو القارئ أنّهما طافا على جميعِ بيوتِ القريةِ، يسألانهم طعاماً، فلم يطعموهم، وهذا بعيدٌ، فالاستطعامُ إنّما يكونُ لمن يَنْزِلُ الضيفُ

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٤.

قريباً من ديارهم، ولأجل ذلك أعادَ كلمةَ ﴿أَهْلَ﴾ مرّةً أخرىٰ[١].

ثُمَّ إنَّها من الناحيةِ الإعرابيّةِ لا تستقيمُ إلا كما وَرَدَتْ في القرآن الكريم؛ فجملةُ ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ جواب للشرط: (إذا)، وحينئذ إما أن يقول: (أهلَ قرية استطعماهم) فتخلو الجملةُ من ضميرٍ يعودُ علىٰ القرية، ولو أتىٰ بضميرٍ يعودُ إلىٰ القريةِ، فقال: (أهل قرية استطعماها)، لنَسَبَ الاستطعامَ إلىٰ القريةِ، وهذا غيرُ جائز. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

بعد قوله: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٨].

(تَسْطِيعُ) أخفُّ مِنْ (تَسْتَطِيعُ) قال العباس بن الأحنف:

أشكو إليكِ الذي بي يا معذّبتي وما أقاسي وما أسطيعُ أنْ أصِفا[٢]

وقال عبيد بن الأبرص:

كأنّ صباً جاءتْ بريحِ لطيمةٍ من المسك لا تُسْطاعُ بالثمن الغالي[٣]

فالزيادة في المبنىٰ تدلّ علىٰ الزيادة في المعنىٰ، وفي هاتين الآيتين «قَابَلَ الأَثْقَلَ بالأثقلِ، والأَخَفَّ بالأخفِّ، كما قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن

(١) الأمالي النحويّة: ١ / ١٠٨.

(٢) ديوانه: ٢٠٦.

(٣) ديوانه: ١١٢.

يَظْهَرُوهُ﴾، وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧]، وهو أشقُّ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنًى. والله أعلم»[١]

وقد يقول قائلٌ: إنّ هذا واضحٌ في الآية الأخيرة، فكيف هو في الآيتين الأوليين؟

فأقول: لـمّا كان موسى ـ عليه السلام ـ غيرَ عارفٍ بأسباب أعمال العبد الصالح الغريبة: خَرْقِ السفينةِ، وقَتْلِ الغلامِ، وبناءِ الجدارِ دونَ أجرةٍ، كان يرى تلك الأعمال بالغة الفظاعة والغرابة، ناسَبَ أنْ يُخاطِبَهُ العبدُ الصالحُ بما يلائم حالَهُ، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، فلمّا أبدى له أسبابها قال له: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، أي: إنّ الأمر أيسرُ مِمّا كنتَ تظنّ. والله أعلم[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦].

لم ترد في القرآن الكريم كلمة (الصوم) مراداً بها الصيام الشرعيّ المعروف، وهو الإمساكُ عن الطعام والشراب والجماع، وإنّما وردت فيه مراداً بها الصَّمْتُ، كما في هذه الآية.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٠٠.

(٢) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف: «وأضيف عليه: أن العبد الصالح لما كان مع موسى -عليه السلام- في نهاية المطاف على حال فراق ومفاصلة، كان التعبير بالأخف بعد الشرح المفصل أكثر مناسبة للمقام. والله أعلم».

وأمّا الصوم الشرعيّ فقد عُبِّرَ عنه في القرآن الكريم بالصيام ، كقوله تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة : ١٨٣]. واللّهُ أعلَمُ .

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم : ٢٩] .

لا يصحُّ أن تكونَ ﴿ كَانَ ﴾ ههنا ناقصةً بمعنىٰ : حَصَلَ ذلك في الزمن الماضي ، وانقطع ، فتكون مثل قولنا : كانَ القمرُ طالعاً ؛ لأنَّ ﴿ كَانَ ﴾ في الآية لو كانت علىٰ معناها الأصليِّ لما كانتْ لعيسىٰ ابن مريم ـ عليه السّلامُ ـ فيه معجزةٌ ؛ لأنَّ قولَ قومه يكونُ بعد أن كَبِرَ ، وصار رجلاً ، وليس هذا هو المراد ، بل إنَّ سؤالَ قومه حَصَلَ وعيسىٰ ـ عليه السّلامُ ـ في المهد ، حيث مَنْ هو في سِنِّه لا يتكلَّمُ ، ومع ذلك تكلَّم عيسىٰ عليه السّلامُ ، ولذلك فـ ﴿ كَانَ ﴾ في الآية تامّةٌ بمعنىٰ (وُجِدَ) ، ويكون (صبيّاً) حالاً .

وقيل : إنَّ ﴿ كَانَ ﴾ في الآية زائدةٌ [1] ، والتقديرُ : كيفَ نُكَلِّمُ مَنْ في المهد صبيّاً ، وزيدت ﴿ كَانَ ﴾ ههنا للتوكيد ، فيكون المعنىٰ : كيف نكلّم مَنْ تأكّدَ استقرارُهُ في المهد صبيّاً ؟ ، ولو لم تُقَدَّرْ ﴿ كَانَ ﴾ زائدةً

(١) مجاز القرآن : ٢/ ٧ ، معاني القرآن وإعرابه : ٣/ ٣٢٨ .

ولا تامّةً لانتفت المعجزةُ عن عيسىٰ عليه السّلامُ؛ لأنَّ كلَّ رجلٍ يمكن أن يُقال عنه: كانَ فلانٌ في المهد صبياً، أي: كان، ثُمَّ صار رجلاً. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ عن يحيىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)﴾ [مريم: ١٥]، وقوله تعالىٰ علىٰ لسان عيسىٰ ـ عليه السّلام ـ: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم: ٣٣].

فإنّ تحيّة يحيىٰ ـ عليه السّلامُ ـ بُدِئتْ بالسلام نكرةً، حيث قال: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ﴾، أمّا تحيّةُ عيسىٰ ـ عليه السّلامُ ـ فقد بدئت بالسلام معرفةً، حيث قال: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ﴾، والسرُّ في ذلك ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ أنّ السلامَ دعاءٌ وطلبٌ، والعربُ في ألفاظِ الدعاءِ والطلبِ تأتي بها نكرةً، فتقول: ويلٌ له، وسقياً لك ورعياً؛ لأنّ ألفاظَ الدعاء تجري مجرىٰ النُطقِ بالفعل، والفعلُ بمعنىٰ النكرة، فـ(سلامٌ عليكم) بمعنىٰ: سلّمكم اللّه، و(سقياً لك) بمعنىٰ: سقاكَ اللّه، وهكذا، فالأصلُ في التحيّة أن تكون بلفظ النكرة، إلا أنّنا نجد أنَّ تحيّة عيسىٰ ـ عليه السّلامُ ـ بدئت بالمعرفة، ولذلك فوائدُ منها: أنّ السلامَ اسمٌ من أسماء اللّه، فذِكْرُهُ يشعرُ بذكر اللّه سبحانه وتعالىٰ، ويشعرُ أيضاً بطلب معنىٰ السلامة منه؛ لأنّك متىٰ ذكرت اسماً من أسماء اللّه فقد تعرّضت لطلب المعنىٰ

الذي اشْتُقَّ ذلك الاسم منه، ويشعرُ أيضاً بعموم التحيّة، وأنّها غيرُ مقصورةٍ، فأنت ترىٰ أنّه ليس قولُك: (سلامٌ عليك) ـ أي: سلامٌ منّي ـ بمنزلة قولك: (السلامُ) في العموم، كذا قال أبو القاسم السهيليّ في كتابه (نتائج الفكر في النحو)(١).

وهذا إذا كانت التحيّة من الإنسان، أمّا إذا كانت من اللّه تعالىٰ كتحيّته ليحيىٰ ـ عليه السّلامُ ـ فليستْ بحاجةٍ إلىٰ التعريف؛ لعدمِ قَصْدِ التبرّكِ، ولا التعرُّضِ، ولا الطلبِ، ولا العمومِ في التحيّة منه ومن غيره، كما يَقْصِدُ العبدُ، فسلامٌ من اللّه تعالىٰ كافٍ من كلّ سلام، ومغنٍ عن كلّ تحيّة، ومُرْبٍ علىٰ كلّ أمنية(٢).

وأُحِبُّ هنا أن أشير إلىٰ أنّ علىٰ الكاتب والمتحدّث أن يبدءا كلامهما بقول: (سلامٌ من اللّه عليكم)، فيبدءا بالنكرة، ويختماه بقول: (والسلام عليكم)؛ بالمعرفة، والسرّ في ذلك أنّ هناك إجماعاً من العلماء علىٰ ابتداء الكتابة والحديث بالسلام نكرةً، واختتامهما به معرفةً(٣)، ذَكَرَ ذلك السهيليُّ أيضاً، وذكر في تعليله(٤): «أنّها مُشْعِرَةٌ بالعموم، والكاتبُ مؤكِّدٌ لخصوص نفسه بالتسليم، مُشْعِرٌ بسلامة ودِّهِ للمكتوب إليه، لا سيّما عند افتتاح الكلام؛ ليستشعرَ المكتوبُ إليه الأُنْسَ والسلامةَ من الكاتب علىٰ الخصوص، من غير التفات إلىٰ طلب

(١) ص ٤١٥.
(٢) نتائج الفكر في النحو: ٤١٦.
(٣) صناعة الكتاب: ١٧٥.
(٤) نتائج الفكر في النحو: ٤١٧ ـ ٤١٨.

العموم، وهذا المعنى كلُّه إنّما يحصل بإسقاط (الألف واللام).

فإذا ختَمَ الرساله قال: (والسلامُ عليك) مُعرَّفاً؛ وذلك لثلاث فوائد:

إحداها: أنّ الخصوص بسلام الكاتب قد حصل في أوّل الكتاب، ووقع الأُنْسُ به، فكان العمومُ هنا أبلغَ في الدعاء؛ فإنّه لا يخصّ نَفْسَهُ، بل يجمع له سلامَهُ وسلامَ غيرِه.

والفائدة الثانية: أنْ يَخْتِمَ باسمٍ من أسماء اللّه تعالى، كما فَعَلَ في الصلاة؛ طلباً للأجر، وتبرُّكاً بالذِّكْرِ، واكتفى في أوّل الرسالة بـ(بسم اللّه الرحمن الرحيم)، وَحَسْبُكَ به ذِكْراً.

والفائدة الثالثة بديعةٌ جداً، وهي: أنّ (الواوَ) العاطفةَ تُوْجِبُ بناءَ الكلام على ما تقدَّمَ . . . فأشعرتِ الواوُ بعطف فصلٍ على فصلٍ من الكتاب، فلمّا فرغ منها قال: (والسلام)، يريد: وبعد هذا كلِّه (السلام عليك)».

و في الآيتين السابقتين قَيَّدَ السلام على يحيى وعيسى ـ عليهما السلامُ ـ بيومَي ولادتهما ويومَي موتهما ويومِ بعثهما، فما السرُّ في ذلك؟

قال ابنُ القيّم ـ رحمه اللّه تعالى ـ: «إنَّ طلبَ السلامةِ يتأكّد في المواضعَ التي هي مظانُّ العَطَبِ ومواطنُ الوحشة، وكلّما كانَ الموضعُ مظنّةَ ذلك تأكّد طلبُ السلامةِ، وتعلّقتْ بها الهمّةُ، فذُكِرَتْ هذه

المواطنُ الثلاثةُ؛ لأنّ السلامةَ فيها آكدُ، وطلبَها أهمُّ، والنفسَ عليها أحرصُ؛ لأنّ العبدَ فيها قد انتقل من دارٍ كان مستقراً فيها، مُوطِّنَ النفسِ على صحبتِها وسكناها إلىٰ دارٍ هو فيها معرّضٌ للآفات والمحن والبلاء»(١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم: ٦٩].

الشيعةُ: الفِرقةُ التي شايعَ بعضُها بعضاً، وتابَعَهُ، ومنهم الأشياعُ، وهم التَّبَعُ، قال ابنُ القيّم ـ رحمه اللّه تعالىٰ ـ عن لفظ الشيعة: «وغالبُ ما يُستعملُ في الذمِّ، ولعلّه لم يردْ إلا كذلك، كهذه الآية، وكقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥٤]؛ وذلك ـ واللّهُ أعلَمُ ـ لما في لفظ الشيعةِ من الشياعِ والإشاعةِ التي هي ضِدُّ الائتلافِ والاجتماعِ، ولهذا لا يُطلقُ لفظُ الشِّيَعِ إلا على فرقِ الضلالِ؛ لِتفرُّقِهِمْ واختلافِهِمْ». انتهىٰ كلامُ ابن القيم رحمه اللّه(٢).

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ١٦٨.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٥٥، بدائع التفسير: ٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

وأقول: إنَّ لفظَ الشيعةِ ليس مخصوصاً بالذمّ، بل هو غالبٌ فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣].

واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

إن كلام الله لا يماثله كلام؛ فهو أبلغ من أن يبارىٰ، وأسمىٰ من أن يجارىٰ، هل أنعمنا النظر في هذه الآية العظيمة؟: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أيكون المراد: أحببتُكَ؟ أم: جعلتُ الناسَ يُحِبُّونَكَ؟ أم: أنزلتُ القبولَ لك في الأرض؟

وأقول: ما تفكرتُ في القرآن الكريم، وتدبرتُ آياته، إلا رثيتُ لحال مترجمي معانيه إلىٰ اللغات الأخرىٰ؛ لأنهم لا يملكون إلا أن ينقلوا إليها معنىً واحداً فقط، وآياتُ الله في كثير من الأحايين تدلُّ علىٰ أكثر من معنىً، ألم يختلف المفسرون في المراد بهذه الآية؟

قال ابن عطية ـ رحمه الله ـ:

«. . . ثم أخبر تعالىٰ موسىٰ أنه ألقىٰ عليه محبة منه، فقال بعض الناس: أراد محبةَ آسيةَ؛ لأنها كانت من الله، وكانت سببَ حياته، وقالت فرقة: أراد القبول الذي يضعه الله في الأرض لخيار عباده،

وكان حظ موسىٰ منه في غاية الوفر، وقالت فرقة: أعطاه جمالاً يُحِبُّهُ به كل من رآه، وقالت فرقة: أعطاه ملاحة العينين. . .»(١).

وأقول: تدبروا قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، تجدوا أنه استعمل الإلقاء، ونكَّرَ المحبة، وخصصها بكونها منه عز وجل، فلم يقل: (وأحببتك)، ولا: (جعلت الناس يحبونك)، ولا: (ألقيت عليك المحبة)؛ وذلك ـ والله أعلم ـ ليشمل كل الصور المتوقعة، وهذا من إعجاز كلام الله جل جلاله، قال أبو حيان التوحيدي ـ تجاوز الله عنه ـ: «وسمعتُ ابن سمعون الصوفيّ يقول: ما يقف البشر علىٰ بعد غور قول الله تعالىٰ لكليمه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾؛ فإن في هاتين الكلمتين ما لا يُبْلَغُ كُنْهُهُ، ولا يُنالُ آخِرُهُ، ولو أنّ أرقَّ الناس لساناً، وألطفَهم بياناً، أراد أن يتوسط حقيقة هذا القول، لم يستطع، وعاد حَسِيراً، ونكص بهيراً، وبقي عاجزاً.

ثم قال: اللهم حَبِّبْ بعضنا إلىٰ بعض، واجمعْ شملنا إلىٰ رضاك عنّا، مع إحسانك إلينا؛ إنك أهلُ ذلك، والجوادُ به»(٢).

ونقل أبو حيان أنه قيل: «إذا أحبَّ الله عبداً ألقىٰ مَوَدَّتَهُ علىٰ الماء، فلم يشرب منه أحدٌ إلا أحبّه، وإذا أبغض الله عبداً ألقىٰ بُغْضَهُ علىٰ الماء، فلم يشرب منه أحدٌ إلا أبغضه»(٢).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١١/ ٧٥.

(٢) الصداقة والصديق: ٢١٢.

وجماع الأمر كله ما رواه الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: (إذا أحب الله العبد نادىٰ جبريل: إنّ الله يُحبُّ فلاناً فأحبِبْهُ، فيحبُّهُ جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إنّ الله يُحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّهُ أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)(١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١].

الصلبُ يكون علىٰ جذوع النخل، لا فيها، فـ(صَلَبَ) يتعدّىٰ بحرف الجرِّ: (علىٰ)، لا بـ(في)؛ لأنّ (في) تفيد الظرفيّة، أمّا (علىٰ) فتفيد الاستعلاء الذي لا يريده فرعون لهم، بل هدفه إذلالهم، ومجيءُ ﴿في﴾ ههنا لأنّ الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور، فكما يقال: قُبِرَ الميْتُ في قبره، يقال: صُلِبَ المصلوبُ في الجذع.

وقيل: إنّما آثَرَ استعمالَ ﴿في﴾ للإشعار بسهولة صلبهم، وأنّه لا يكلّفه عناءً ولا مشقةً، بخلاف ما لو استعمل (علىٰ) التي تدلّ علىٰ ارتفاعٍ يُحْتَاجُ فيه إلىٰ تحرّكٍ وصعودٍ إلىٰ فوقٍ.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: ٤/ ٧٩.

وذكر أبوحيّانَ رأياً آخر، قال [١]: «وقيل: نَقَرَ فرعونُ الخشبَ، وصَلَّبَهُمْ في داخله، فصار ظرفاً لهم حقيقةً حتّىٰ يموتوا فيه جوعاً وعطشاً».

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: ٨٠].

قوله: ﴿الأَيْمَنَ﴾ بالنصب صفةٌ لـ ﴿جَانِبَ﴾، فالطورُ واحدٌ، وله أكثرُ من جانبٍ، ولو جرَّ قارئ: ﴿الأيمن﴾ لصارَ صفةً للطور، وهذا خطأ؛ فالطور واحدٌ، وليس هناكَ طورٌ أيمنُ، وآخرُ أيسرُ، ولا إشكالَ في قوله تعال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]؛ لأنَّ الموصوفَ مجرورٌ، لكنَّه يظلُّ صفةً لجانبٍ، ووصفُ الجانبِ بالأيمنِ تشريفٌ لموسىٰ ـ عليه السّلامُ ـ لاشتقاقِهِ من اليُمْنِ.

وتأمّلوا قولَ اللّه تعالىٰ في آيةٍ أخرىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، وهذا خطابٌ لرسولنا ﷺ، فلمْ يَقُلْ ههنا: (بالجانبِ الأيمنِ) تشريفاً لرسولِ اللّه ـ ﷺ أنْ يَصفهُ بما قَدْ يُوهِمَ أنّه يَنْفي عنه كونَهُ بالجانبِ الأيمنِ، المشتقِّ من اليُمْنِ، أو يسلب عنه لفظاً مشتقّاً من اليُمْنِ، أو مشاركاً لمادّته، فأبدلَ بها ﴿الْغَرْبِيِّ﴾ [٢]. فاللّه أكبرُ! ما أعظمَ هذا البيانَ!!!.

---

(١) البحر المحيط: ٧/ ٣٥٨.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٦٦.

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٦] .

تأمّل سياق هذه الآية العظيمة الواردة للتهديد والوعيد والتهويل تجده جاء بأسلوب بديع ، حيث ورد الضدُّ فيها من عكسه ؛ فالكافرون يدعون بالويل والثبور ، ويبادرون بالاعتراف بظلمهم أنفسهم ؛ بسبب احتمالٍ غيرِ مؤكّدٍ لأقلّ القليل من عذابٍ ؛ عُبِّرَ عنه بـ :

١ ـ (إنْ) التي تدلّ علىٰ الشكّ والاحتمال ، لا علىٰ اليقين والقطع والثبوت .

٢ ـ (المسّ) وهو الإصابة الخفيفة .

٣ ـ (النفحة) وهي القليل من الشيء .

٤ ـ ﴿ مِنْ ﴾ الدالة علىٰ التبعيض .

٥ ـ (العذاب) الذي هو أخفّ من النكال .

٦ ـ ﴿ رَبِّكَ ﴾ الذي يدلّ علىٰ الشفقة [١] .

إنّ من سيكون هذا واقعه عند أوّل نفحة تمسّه من بعض عذاب ربّ رحيم كيف سيصبر علىٰ أنكال لدىٰ الجبّار ، وجحيم يقيم أبداً في الدرك الأسفل منها ؟ ، إنّه لحريّ به أن يبادر إلىٰ ما ينجيه منه .

---

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز للنورسيّ : ٣٦ .

* * *

قوله تعالىٰ: عن إبراهيم ـ عليه السّلامُ ـ وقومه: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٨].

ففي سورة (الأنبياء) قال: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾، وفي (الصافات) قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾، والعلّة في ذلك ـ واللّهُ أعلَمُ ـ أنّ اللّه تعالىٰ أَخْبَرَ في سورة (الأنبياء) عن إبراهيم ـ عليه السّلامُ ـ أنّه تحدّىٰ قومه بالكيد لأصنامهم، وأنّ قومه قابلوا التحدي بمثله، فأرادوا كيده بإحراقه، فألقوه في النار، فنجّاه اللّه تعالىٰ منها، فَرَبِحَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ تكسيرَ أصنامهم ونجاتَه من النار، وخَسِرَ قَوْمُهُ أصنامَهم وعدمَ بلوغهم مرادهم من رميه بالنار، فناسَبَ التعبيرُ بـ﴿ الأَخْسَرِينَ ﴾؛ لأنّ «الخاسر عندنا مَنْ فَقَدَ ما بيده من مالٍ أو سببٍ كان يعتمده لدنياه ومعاشه، أو محاولة فسدتْ عليه، فساءتْ حاله لذلك، ومهما استحكمتْ حاله في ذلك كان أخْسَرَ»(١).

أمّا في سورة (الصافات) فأخبر اللّه تعالىٰ عن قيامهم بتشييد بناءٍ عالٍ، ورفعِهم إبراهيم ـ عليه السّلامُ ـ فوقه ليرموا به من هناك إلىٰ النار التي أجّجوها، فلمّا علوا ذلك البناء، ورموه منه إلىٰ أسفلَ عادوا هم الأسفلين؛ لهلاكهم في الدنيا وسفول أمرهم في الآخرة،

---

(١) ملاك التأويل: ٢/ ٨٤١.

حيث أعلى الله تعالى إبراهيم ـ عليه السّلامُ ـ عليهم ، فناسَبَ التعبيرُ عنهم بـ﴿ الأَسْفَلِينَ ﴾(١) .

* * *

قوله تعالى عن زلزلة الساعة : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج : ٢].

الأصل في تاء التأنيث أن يؤتى بها للفرق بين المذكّر والمؤنّث(٢) ، فيقال : مسلمٌ ومسلمةٌ ، فإذا كان الوصف خاصّاً بالمؤنّث لا يشترك معه المذكّر فيه لم تدخل عليه التاء(٣) ، مثل : حائض ، وطالق ، وعانس ، ومرضع ، وحامل ، فلا يقال : حائضة ، ولا طالقة ، ولا عانسة ، ولا مرضعة ؛ لأنّ المقصود : ذات حيض ، وذات طلاق ، وذات عنوسة ، وذات إرضاع ، وذات حمل(٤) .

ولكن في هذه الآية الكريمة قال : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ، والسبب في ذلك أنّ المقصود بالمرضعة هنا التي هي في حال الإرضاع مُلْقِمَةٌ ثديَها صبيَّها ، والمرأة في هذه الحال تكون أشدَّ شفقةً وعطفاً ومحبّةً لولدها الذي ترضعه ، فذهولُها عنه يكون لهول ما فوجئت به ، وشدّةِ فزعِها من زلزلة الساعة ، ويؤيّده قوله : ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ ، فهي لم تفعل

(١) فتح الرحمن : ٢٧٠ ـ ٢٧١ .
(٢) البديع في علم العربيّة : ٢/ ٤٩ .
(٣) المذكر والمؤنث لابن الأنباريّ : ١/ ١٥١ .
(٤) الكتاب : ٢/ ٩١ .

ذلك إلا لأمر هو أعظم عندها من الاشتغال بالإرضاع.

أمّا كلمة (مرضع) فلا تغني عن ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ في حصول المراد؛ لأنّ المرضعَ هي المهيّئة للإرضاع، ولو لم تكنْ مُباشِرةً للإرضاع في ذلك الوقت، وهذه قد تذهل عن رضيعها إذا كانت غيرَ مُباشِرةٍ للرضاعة في حينه، ومثله لفظ (الحائض)، فقد روتْ عائشة ـ رضي الله عنها وعن والدها ـ قول النبيّ ﷺ: (لايقبل الله صلاة حائض إلا بخمار)[1]، فليس المراد بالحائض هنا التي في حالة حيض؛ لأنّ هذه لا يقبل الله صلاتها لا بخمار ولا دونه؛ إذ لا صلاة عليها، وإنّما المراد بالحائض هنا البالغةُ سنَّ الحيضِ.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ فقد قال ابن القيّم ـ رحمه الله تعالى ـ [2]: «تأمّل ـ رحمك الله ـ السرَّ البديع في عدوله سبحانه عن (كلُّ حاملٍ)، [أي عن أن يقول: (وتضع كلُّ حامل)]، إلى قوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾؛ فإنّ الحامل قد تطلق على المهيّأة للحمل، وعلى مَنْ هي في أوّل حملها ومباديه، فإذا قيل: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ لم يكن إلا لِمَنْ قد ظهر حملها، وَصَلحَ للوضع كاملاً، أو سَقْطاً، كما يقال: ذات ولد... فأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع».

---

(١) مسند أحمد: ٦/ ١٥٠، ٢١٨، ٢٥٩، سنن الترمذيّ: ٢/ ٢١٥، سنن ابن ماجه: ١/ ٢١٥.

(٢) بدائع الفوائد: ٤/ ٢١.

وهكذا يتّضح مدىٰ شدّة زلزلة الساعة؛ فإنّ «شفقة الأمّ علىٰ الابن أشدُّ من شفقة الأب، فشفقتها علىٰ الرضيع أشدُّ من شفقتها علىٰ غيره، وكلّ ذلك يدلُّ بدلالة الأَوْلىٰ علىٰ ذهول غيرها من النساء والرجال، وقد حصل من هذه الكناية دلالةٌ علىٰ جميع لوازم شدّة الهول، وليس يلزم في الكناية أن يصرّح بجميع اللوازم؛ لأنّ دلالة الكناية عقليّةٌ، وليستْ لفظيّةً»(١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥].

فعدّىٰ فعلَ الإرادةِ بالباء، وحقُّهُ أن يتعدّىٰ بنفسه، ولكنه عُدِّيَ بها لتضمُّنه معنىٰ (يَهُمُّ)، فصار المعنىٰ ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ: ومَنْ يُرِدْ، أو يَهُمَّ فيه بإلحاد بظلم نُذِقْهُ من عذاب أليم.

وهو أبلغ من إرادةِ الإرادةِ فقط؛ لأنّ استحقاقَ العذاب صار عند الإرادة أو الهَمِّ بها.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٣٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٧ / ١٨٠.

يرىٰ بعض العلماء أنّ الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ شرطٌ لغوٌ (١)، زاعمين أنّه لا يصحّ إكراهُ الإماء على الزنىٰ إن أردن التحصّن أو لم يردنه، وهذه العلّةُ صحيحةٌ لو كانتْ هي وحدها سبب الشرط، لكنّ الصحيح أنّ للشرط فائدةً عظيمةً، وأنّ استعمال (إنْ) دون (إذا) له فائدة أخرىٰ.

ولكن قبل بيان ذلك أذكر سبب نزول الآية، فقد روىٰ مسلمٌ في صحيحه(٢) عن جابر ـ رضي اللّه عنه ـ (أنّ جاريةً لعبداللّه بن أبيّ ابن سلول يُقال لها: مُسيكةُ، وأخرىٰ يُقال لها: أُميمةُ، فكان يُكْرِههما على الزنىٰ، فشكتا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فأنزل اللّه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾).

وقال مقاتل: نزلت في ستّ جوارٍ لعبداللّه بن أُبيّ كان يكرههنّ على الزنىٰ، ويأخذ أجورهنّ، وهنّ: معاذة، ومسيكة، وأميمة، وعمرة، وأرْوىٰ، وقتيلة، فجاءتْ إحداهنّ ذات يومٍ بدينار، وجاءتْ أخرىٰ بِبُرْدٍ، فقال لهما: ارجعا، فازنيا، فقالتا: واللّه لا نفعل؛ قد جاءنا اللّه بالإسلام، وحرّم الزنىٰ، فأتيا رسول اللّه ﷺ، وشكتا إليه، فأنزل اللّه تعالىٰ هذه الآية (٣).

أمّا فائدة الشرط ابتداءً ففيه زيادةُ تقبيحٍ لحالهم، وتشنيعٍ عليهم؛

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٤١.
(٢) صحيح مسلم: ٣/ ٢٣١٠، رقم الحديث (٣٠٢٩).
(٣) أسباب النزول للواحديّ: ٣٢٦ـ٣٢٧.

بسبب ما كانوا عليه من القبائح مما لا يخفى على ذي بصيرةٍ، حيث كانوا يكرهون فتياتهم على البغاء، وهنّ يردنَ التعفّفَ عنه مع وفور شهوتهنّ الآمرة بالفجور؛ فهنّ فتياتٌ، ومع قصورهنّ في معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطي مثل هذه الرذائل؛ فهنّ إماءٌ رقيقاتٌ، وإنّ مَنْ له أدنى مروءةٍ لا يكاد يرضى بفجور مَنْ يحويه حَرَمُهُ من إمائه، فضلاً عن أن يأمرهنّ به، أو يُكْرِهُهُنّ عليه، لا سيّما عند إرادتهنّ التعفّفَ[(١)].

قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ[(١)]: « فتأمّلْ، ودعْ عنك ما قيل من أنّ ذلك لأنّ الإكراه لا يتأتّى إلا مع إرادة التحصّن، وما قيل من أنه إنْ جُعِلَ شرطاً للنهي، لا يلزم من عدمه جواز الإكراه؛ لجواز أن يكون ارتفاع النهي لامتناع المنهي عنه، فإنّهما بمعزلٍ من التحقيق».

وأمّا فائدة استعمال ﴿إن﴾ الشرطيّة دون (إذا) فهي الدلالة على التشنيع في النهي عن إكراه الإماء على البغاء عند مجرّد احتمال إرادتهنّ التحصّن، ولو استعمل (إذا)، وقال: ﴿إذا أردن تحصنً﴾، لأشعر ذلك بأنّه لا يتعيّن إلا عند التحقّق من إرادتهنّ ذلك، قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ[(١)]: « وإيثار كلمة ﴿إن﴾ على (إذا) مع تحقّق الإرادة في مورد النصّ حتماً للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصّن في حيّز التردّد والشكّ، فكيف إذا كانت محقّقة الوقوع، كما

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٧٣.

هو الواقع، وتعليله بأنّ الإرادة المذكورة منهنّ في حيّز الشاذّ النادر مع خلوّه عن الجدوىٰ بالكلّيّة، يأباه اعتبار تحقّقها إباءً ظاهراً».

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء: ٩٤].

لم يقل: (فكُبُّوا)، وإنّما كَرَّرَ الكلمةَ دليلاً على التكريرِ في المعنىٰ، كأنَّ الواحدَ منهم إذا أُلْقِيَ في جهنّمَ يَنْكَبُّ مرَّةً بعد أخرىٰ حتّىٰ يستقرَّ في قعرها[١].

قال عبيد بن الأبرص:

ولّوا وهنَّ يَجُلْنَ في آثارهم   شَلَلاً وبالطناهُمُ فتكبكبوا[٢]

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

حين يتحدث المفسرون عن قوله عز وجل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ يقولون: إنه «يعني: تبسم شارعاً في الضحك، يعني: أنه قد تجاوز حدّ التبسَّمِ إلىٰ الضحكِ»[٣].

---

(١) الكشّاف: ٣/ ١١٩، البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٤ـ٣٥.
(٢) ديوانه: ٧.
(٣) تفسير الفخر الرازي: ٢٤/ ١٦١.

ثم يتحدثون عن ضحك الأنبياء، وأنه لا يجاوز التبسُّمَ[١]، ولكنّي أرىٰ أنّ سبب الجمع في الآية بين التبسُّمِ والضحكِ إنما هو لأن التبسُّمَ وحده لا يدل علىٰ أنّه ناشئ عن الرضا والسرور، وهما المرادان بالآية الكريمة، فنبيّ الله سليمان ـ عليه السلام ـ مسرورٌ بما سمعه من قول النملة، وبما أنعم الله عليه من فهم لغة النمل، ولو عبّر عن ذلك بالتبسُّم وحدَهُ لم يَفِ بالغرض؛ لأنّ التبسّم قد يكون تعبيراً عن الغضب، وليس عن السرور، قال عنترة بن شداد:

لما رآني قد قصدتُ أريدُهُ　أبْدَى نواجذه لغير تبسّمِ[٢]

وقال الآخر:

ولربّما ابتسمَ اللبيبُ من الأذى　وفؤادُهُ من حَرِّهِ يتأوَّهُ[٣]

وكذا الضحك وحده لا يفي بالغرض؛ لأنه ربما لا يدل على سرور، قال الشاعر:

وربما ضَحِكَ المكروبُ من عجبٍ　السنُّ تضحكُ والأحشاءُ تضطرمُ[٤]

ولذلك كان لزاماً الجمعُ بينهما للدلالة على المراد، قال زياد الأعجم:

مِراراً ما دنوتُ إليه إلا　تَبَسَّمَ ضاحكاً وثَنى الوِسادا[٥]

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٤٢.
(٢) ديوانه: ٢١٢.
(٣) مقالات الأدباء ومناظرات النجباء: ١٢٩.
(٤) محاضرات الأدباء: ١٢٣.
(٥) شعره: ٦٦.

وقال أوس بن حجر:

نواعمُ ما يضحكنَ إلا تبسُّماً إلى اللهوِ قد مالتْ بهنَّ السوالفُ(١)

وقد نبّه على ذلك السراج الوراق حين قال:

قد تُشْبهُ الحالةُ الأخرى وبينهما إذا تأمّلتَ فَرْقٌ عن سواكَ خَفي

فربما صَفَّقَ المسرورُ من طَرَبٍ وربما صَفَّقَ المحزونُ من أسَفِ(٢)

* * *

قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** ⑧⓪﴾ [النمل: ٨٠].

التولية غير الإدبار؛ فالتولية في الأصل: الإقبال، ومنه قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [البقرة: ١٤٤]، لكنّها إذا أُطلقتْ دون ذكرٍ لمفعولها أريدَ بها أن يولّيَ الشيءَ ظهرَهُ.

وأمّا الإدبار فهو أن يهرب منه، فليس كلّ مولٍّ مدبراً، ولا كلُّ مدبرٍ مولّياً، وفي هذه الآية العظيمة أكّد المولى ـ عزّ وجلّ ـ عدم انتفاع الكفّار بدعوة الرسول ﷺ ثلاث مرّات: فشبّههم بالصمّ، والأصمّ لو كان مُقبلاً لم يسمعْ، وأكّد سوء حالهم بأن جعلهم مولّين، والأصمُّ إذا

(١) ديوانه: ٦٣.

(٢) الغيث المسجم في شرح لامية العجم: ٢/ ٣٤٢.

ولّىٰ كان أبعد له من السماع ، ثمّ زاده تأكيداً بأن جعلهم مدبرين ، والأصمّ المولّي إذا أدبر كان أشدّ ؛ لبعده عن السماع . والله أعلم [١] .

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] .

ففي هذه الآية الكريمة قدّمَ كلمةَ ﴿ رَجُلٌ ﴾ علىٰ الجارِّ والمجرورِ ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ ، فقال : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ ، وفي سورة (يس) قال تعالىٰ : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس : ٢٠] ، فقدّم الجارَّ والمجرورَ ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ علىٰ الفاعل ﴿ رَجُلٌ ﴾ ، ولكلٍّ من الحالتين فائدةٌ بليغةٌ [٢] :

وسبب ذلك أنّه في آيةِ (القصصِ) جاء الفاعلُ ، وهو ﴿ رَجُلٌ ﴾ مقدَّماً علىٰ الجارّ والمجرور ﴿ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ حسبَ الأصلِ ، ولكونِ ﴿ رَجُلٌ ﴾ نكرةً وَصَفَهُ بأنّه قادمٌ من أقصىٰ المدينة ، فموسىٰ لا يَعرِفُ عنه شيئاً إلا أنّه قادمٌ من مكانٍ بعيدٍ ليعلمه ما كانَ فيه الكفارُ من ائتمارٍ به .

أمّا في آية (يس) فالمرادُ تقريعُ أصحابِ القريةِ الذين كفروا بالمرسلين ، وكذّبوهم ، وتبكيتُهم علىٰ استمرارهِم في الكفرِ مع ما شاهدوه من الآيات المعجزةِ ، ومنْ مظاهرِ توبيخهم وتقريعهم أنْ يأتيَ

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٤٠٣ .
(٢) ملاك التأويل : ٢ / ٩٠٤ـ٩٠٧ .

من أقصى المدينة، من ذلك المكانِ البعيدِ الذي لم يشهدِ المعجزاتِ، ولم تُتْلَ فيه الآياتُ، أن يأتيَ هذا الرجلُ الذي لم يحضرْ جميعَ ما حضره الكفارُ، ولم يسمعْ مثلَ ما استمعوه، ولم يَرَ من المعجزاتِ ما رأوه، ومع ذلك يؤمنُ هو، وهم يكفرون، ويدعو هو إلى الإيمان، ويتنادون هم بالكفر، فنظراً إلى أهميّةِ بُعْدِهِ عن مواطن الدعوة قُدِّمَ بيانُ مكانه على ذكره هو. واللّهُ أعْلَمُ.

وبهذه المناسبةِ أنبِّهُ على أنَّ قولَ كثيرٍ من الناسِ عن الأمرِ الذي يُشَمُّ من ورائه مكيدةٌ وائتمارٌ بشّرٍ: (هذا الأمرُ فيه (إنَّ)) أنّه مأخوذٌ من آية القصصِ: ﴿إنَّ المَلأَ يأتَمِرُونَ بِكَ﴾، وممّا يروى في ذلك أنّ محمودَ بنَ صالحِ بنِ مرداسٍ صاحبَ حلب أمرَ كاتبَه أبا نصرٍ محمّدَ بن الحسينِ بن عليٍّ النحّاسَ الحلبيَّ أَنْ يكتبَ كتاباً إلى سديدِ الملكِ أبي الحسنِ عليِّ بنِ مقلّد بن نصر بن منقذ الكنانيّ، يَتَشَوَّقُهُ فيه، ويستعطفُهُ، ويستدعيه إليه، وكان سديدُ الملكِ صديقاً للنحّاسِ الحلبيِّ، وكانَ الحلبيُّ يعرفُ أنَّ سيّدَهُ يريدُ بصديقه شرّاً، فكَتَبَ كما أمَرَهُ سيّدُهُ، إلى أنْ بلَغَ آخر الكتاب، وكانَ قولَهُ: (إنْ شاءَ اللّه تعالى)، فشدّدَ الكاتبُ نون (إنْ)، وفَتَحَها، فصارت (إنَّ).

فلمّا وصل الكتاب إلى سديد الملكِ عرضه على ابن عمّار صاحب طرابلس ومَنْ بمجلسه من خواصّه، فاستحسنوا عبارة الكاتب، واستعظموا ما فيه من رغبةِ محمودٍ فيه، وإيثارَهُ لقربه، فقال سديد

الملك: إنّي أرىٰ في الكتاب ما لا ترون.

ثمّ أجابه عن الكتاب بما اقتضاه الحال، وكتب في جملة الكتاب: (أنا الخادم المقرّ بالإنعام)، وكسر همزة (أنا) وشدّدَ النون، فصارت: (إنّا الخادم المقرّ بالإنعام).

فلمّا وصل الكتاب إلىٰ محمودٍ، ووقف عليه الكاتب النحّاس الحلبيّ، سُرَّ بما فيه، وقال لأصدقائه: قد علمتُ أنّ الذي كتبتُهُ لا يخفىٰ علىٰ سديد الملك، وقد أجاب بما طيَّبَ نفسي.

وكان الكاتبُ النحّاسُ الحلبيُّ قد قَصَدَ قول اللّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، فأجاب سديد الملك بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤][1].

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

تأمّل ختام الآية الأولىٰ تجده: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وختام الآخرة تجده: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، فما سرّ ختم كلّ آية بهذا الختام؟.

إنّك إذا تدبّرتَ الآيتين وجدتَ أنّه مع الليل يتعذّر الإبصار؛ بسبب

(١) وفيات الأعيان: ٣/ ٤١٠.

ادلهمام الظلمة، وتقوىٰ حاسّة السمع؛ بسبب السكون، فإذا لم يعتبروا فهل فقدوا حاسّة السمع أيضاً تبعاً لفقدهم حاسّة الإبصار ابتداءً؟

وأمّا مع النهار فَتَقْوىٰ حاسّةُ الإبصارِ، فإذا لم يعتبروا فهل قد فقدوا تلك الحاسّة التي هذا أوان نفعها؟. واللّه أعلم.

وقال الزركشيّ ـ رحمه اللّه ـ (١): «لمّا كان سبحانه هو الجاعل الأشياء علىٰ الحقيقة، وأضاف إلىٰ نفسه جَعْلَ الليل سرمداً إلىٰ يوم القيامة، صار الليل كأنّه سرمدٌ بهذا التقدير، وظرفُ الليلِ ظرفٌ مظلمٌ لا ينفذ فيه البصر، لا سيّما وقد أضاف الإتيان بالضياء الذي تنفذ فيه الأبصار إلىٰ غيره، وغيره ليس بفاعلٍ علىٰ الحقيقة، فصار النهارُ كأنّه معدومٌ؛ إذ نُسِبَ وجوده إلىٰ غير مُوْجِدٍ، والليل كأنّه لا موجود سواه؛ إذ جُعِلَ [وجوده] سرمداً منسوباً إليه سبحانه، فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾؛ لمناسبة ما بين السماع والظرف الليليّ الذي يصلح للاستماع، ولا يصلح للإبصار.

وكذلك قال في الآية التي تليها: ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنّه لمّا أضاف جَعْلَ النهار سرمداً إليه، صار النهارُ كأنّه سرمدٌ، وهو ظرفٌ مضيء تُنَوِّرُ فيه الأبصارُ، وأضاف الإتيان بالليل إلىٰ غيره، وغيره ليس بفاعلٍ علىٰ الحقيقة، فصار الليلُ كأنّه معدومٌ؛ إذ نُسِبَ وجودُهُ إلىٰ غير

(١) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٨٢.

مُوْجِدٍ، والنهار كأنّه لا موجود سواه؛ إذ جُعِلَ وجودُهُ سرمداً منسوباً إليه، فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ إذ الظرفُ مضيءٌ صالحٌ للإبصار، وهذا من دقيق المناسبة المعنويّة».

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ٢٠].

حيث أعادَ ذكرَ النارِ مرّةً أخرىٰ، فقال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ بعد قوله: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، قال ابنُ الحاجبِ ـ رحمه اللّه ـ (١): «إنّ سياقَ الآيةِ التهديدُ والتخويفُ وتعظيمُ الأمرِ، وفي ظاهر لفظِ (النارِ) من ذلك ما ليس في الضمير، ألا ترىٰ إلىٰ قوله:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ   نغّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا(٢)».

انتهىٰ كلامه.

فكرَّر الموتَ ثلاثَ مراتٍ مع إمكانِ إضمارِهِ بدلاً من إظهاره.

وهذا القولُ لابن الحاجب غيرُ دقيقٍ؛ لأنّ اللّه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قد أتىٰ بضميرها مرتين قبل ذلك حين قال: ﴿أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، وقال: ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾، ولو كانَ الإظهارُ لمراعاةِ التهديدِ والتخويفِ

(١) الأمالي النحويّة: ١ / ٥٨.
(٢) البيت لعديّ بن زيد العباديّ في (ديوانه: ٦٥)، ونسب لسوادة بن عديّ في (الكتاب: ١ / ٣٠).

لأظهرَ فيهما بدلَ الإضمارِ ، لكنَّ الصحيحَ أنّه أظْهَرَ الاسمَ بدلَ إضماره لأنّه وقعَ في جملةٍ محكيّةٍ لما يقالُ لهم يومَ القيامةِ عند إرادتهم الخروجَ من النارِ ، فلا يناسِبُ ذلك وَضْعُ الضميرِ موضعَ الظاهرِ ، فَذِكْرُ النارِ أولاً آتٍ بخبرِ اللّه تعالىٰ عن مأوىٰ الكافرين ، ولذلك لمّا أعادَ الحديثَ عنها مرّة ثانية في سياقِ خبره أعاده مضمراً ، أمّا ذِكْرُ النارِ مرّةً أخرىٰ دونَ إضمارٍ فهو في قول الملائكةِ الذي لم يُبْنَ علىٰ حديثٍ سابقٍ عن النار . واللّهُ أعْلَمُ .

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

الشُّكْرُ : الامتلاءُ من ذكر المُنْعِم عليه ، والشُّكْرُ ثلاثة أنواع :

شُكْرُ القلبِ : وهو تصوّر النعمة ، وشُكْرُ اللسانِ : وهو الثناءُ علىٰ المنِعم ، وشُكْرُ سائرِ الجوارحِ : وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه(١) ، وبناءً علىٰ هذا يكون في هذه الآية وقفتان :

أولاهما: أنّ اللّه تعالىٰ قال : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ ، ولم يقل : (اشكروا) ، قال الراغب الأصفهانيّ(٢) : «لينبِّهَ علىٰ التزام

---

(١) المفردات في غريب القرآن : ٢٦٥ .
(٢) المصدر السابق .

الأنواع الثلاثة من الشُكْرِ بالقلب، واللسان، وسائر الجوانح»، فيكون إعراب ﴿شُكْرًا﴾ في الآية على هذا القول مفعولاً مطلقاً. وقيل: إنّها مفعولٌ لأجله(١).

ثانيتُهما: أنّه قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، قال الزركشيُّ(٢): «الحمد للّه الذي ما قال: (الشاكر)»؛ لأنّ الشاكر هو المُثْنِي بالقليل والكثير، أمّا (شَكُورٌ) فصيغة مبالغة بمعنى: الموفِّي نِعَمَ اللّه حقّها من الشكر، ولذلك وَصَفَ الشكورين بالقلّة؛ لأنَّ توفيةَ نِعَمِ اللّه بالشكر صعبة الحصول، فهي كثيرة، ومهما حاول العبد شُكْرَها فسيظلُّ مقصّراً.

قال عبدالله بن المقفّع: «قد بَلَغَ فضلُ الله على الناس من السَعَةِ، وبَلَغَتْ نعمتُهُ عليهم من السُبُوغ، ما لو أنّ أخسَّهم حظاً، وأقلَّهم منه نصيباً، وأضعفَهم علماً، وأعجزَهُمْ عملاً، وأعياهم لساناً، بلغ من الشكر له، والثناء عليه بما خَلَصَ إليه من فضله، ووصل إليه من نعمته، ما بَلَغَ له منه أعظمُهم حظاً، وأوفرُهم نصيبًا، وأفضلُهم علماً، وأقواهم عملاً، وأبسطُهم لساناً، لكان عما استوجب الله عليه مقصّراً، وعن بلوغ غاية الشكر بعيداً، ومن أخذ بحظه من شكر الله، وَحَمْدِهِ، ومعرفةِ نعمِهِ، والثناءِ عليه، والتحميدِ له، فقد استوجب بذلك من أدائه إلى الله القربة عنده، والوسيلة إليه، والمزيد فيما شكره

(١) البحر المحيط: ٨/ ٥٢٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٥١٤.

عليه من خير الدنيا، وحسن ثواب الآخرة»[١].

وقال الراغب الأصفهانيُّ[٢]: «ولذلك لم يُثْنِ - أي اللّه - بالشكر من أوليائه إلا على اثنين: قال في إبراهيم - عليه السّلامُ -: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١]، وقال في نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]».

فَمَدَحَ إبراهيم بأنّه مُثْنٍ على نعم اللّه، ومَدَحَ نوحاً بأنّه مبالغٌ في الثناء عليها.

ويحسن في هذا المقام أنْ أشير إلى فائدة المغايرة بين الصفتين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، سأل الصاحب بن عبّاد القاضيَ عبدَ الجبّار بنَ أحمد المعتزليّ: لِمَ جَعَلَ اللّهُ المبالغةَ في الكفر، ولم يجعلها في الشكر؟

«فأجاب القاضي بأنّ نِعَمَ اللّه على عباده كثيرةٌ، وكلُّ شكر يأتي في مقابلتها قليلٌ، وكلُّ كفرٍ يأتي في مقابلتها عظيمٌ، فجاء الشكر بلفظ (فاعِلٍ)، وجاء (كفورٌ) بلفظ (فَعُوْلٍ) على وجه المبالغة»[٣].

وكتب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفديّ إلى العلامة جمال الدين السبكي قائلاً[٤]:

---

(١) الأدب الصغير: ٣٧.

(٢) المفردات: ٢٦٥.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٥١٤.

(٤) المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى: ١١-١٢.

فكّرتُ والقرآنُ فيه عجائبٌ بهرتْ لمن أمسى له مُتَدبِّرا
في ﴿هل أتى﴾ لِمْ ذا أتى يا شاكراً حتى إذا قال الكفورَ تغيّرا
فالشكرُ فاعلُهُ أتى في قِلَّةٍ والكفرُ فاعلُهُ أتى مستكثرا
فعلام ما جاءا بلفظٍ واحدٍ؟ إن التوازنَ في البديع تَقَرَّرا
لكنها حِكَمٌ يراها كلُّ ذي لُبٍّ وما كانت حديثاً يُفْتَرى

فأجابه السبكي قائلاً:

وجوابُهُ أنّ الكفورَ ولو أتى بقليلِ كُفْرٍ كان ذاك مُكَثَّرا
بخلاف مَنْ شَكَرَ الإله فإنه بكثيرِ شُكْرٍ لا يُعَدُّ مُكثِّرا
فإذنْ مراعاةُ التوازنِ ههنا محظورةٌ لمن اهتدى وتفكّرا

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ: ٢٤].

ختم اللّه الآية الكريمة بما يسمّيه البلاغيون (تجاهل العارف)، ومَزَجَ الشكَّ باليقين بإخراج ما تُعْرَفُ صِحَّتُهُ مُخْرَجَ ما يُشَكُّ فيه؛ ليزيد بذلك تأكيداً ومبالغةً في المعنىٰ، فلم يُبَيِّنْ مَنْ مِنَ القبيلين علىٰ الهدىٰ، ومَنْ منهما في الضلال، وهذا من إنصاف الخصم، وإقامة الحجّة عليه، بترك الحكم فيه للعاقل، قال الزمخشريُّ[1]: «وهذا من الكلام المنصف الذي كلُّ مَنْ سَمِعَهُ من مُوَالٍ أو منافٍ قال لمن خُوطِبَ به: قد

(١) الكشّاف: ٣/ ٢٨٩.

أَنْصَفَكَ صاحبُك، وفي دَرْجِهِ بعد تقدمة ما قَدَّمَ من التقرير البليغ دلالةٌ غيرُ خفيّة على مَنْ هو مِنَ الفريقين على الهدىٰ، ومَنْ هو في الضلال المبين، ولكنّ التعريض والتورية أنضلُ بالمجادل إلى الغرض، وأهجمُ به على الغلبة مع قلّة شغبِ الخصمِ، وفَلِّ شوكته بالهوينا، ونحوُهُ قول الرجل لصاحبه: (علم اللّه الصادق منّي ومنك، وأنّ أحدنا لَكاذبٌ[1]).

وههنا نظرة أخرىٰ في استعمال حرف الجر (على) مع الهدىٰ، حيث قال: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ واستعمال (في) مع الضلال، فقال: ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فـ(على) التي تدلّ على الاستعلاء، ومَنِ استقام على الطريق المستقيم، وثَبَتَ على الحقِّ، فإنَّ طريق الحقّ تصعد بصاحبها إلى العليّ الكبير، فَلِعُلُوِّهِ وثبوته واستقامته ناسَبَ مجيءُ (على) معه، فكأنّه مُسْتَعْلٍ على فرسٍ جوادٍ يركضه حيث شاء، بخلاف الضالّ صاحب الباطل؛ فإنّ انغماسه فيه وسلوكه طريق الضلال التي تأخذه سُفْلاً هاويةً به في أسفلِ سافلين، فكأنّه منغمسٌ في ظلامٍ، مرتبكٌ فيه، لا يدري أين يتوجّه به. كذا قال الزمخشريّ[2]. واللّه أعلمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

(١) تفسير الطبريّ: ٢٢/ ٩٥، زاد المسير: ٦/ ٤٥٥.
(٢) الكشاف: ٢/ ٢٨٩.

أشْكَلَ على العلماء قبل العامّةِ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾؛ فإنّ من عادة العرب في كلامهم عند اجتماع التابع والمتبوع أنّهم يقدّمون المتبوع، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة: ٦٩]، فالأصفر يوصف بأنّه فاقعٌ، ويقولون: أسودُ غربيبٌ، لكنّه في هذه الآية عكس، فأتى بالتابع ﴿غَرَابِيبُ﴾ قبل المتبوع ﴿سُودٌ﴾، وقد وصف الإمام الزركشيّ - رحمه اللّه - هذه الآية، فقال [(١)]: «هي من الآيات التي صَدِئتْ فيها الأذهانُ الصقيلةُ، وعادتْ بها أَسِنَّةُ الألسنةِ مَفْلولةً، ومن جملة العجائب أنّ شيخاً أراد أنْ يحتجَّ على مدرّسٍ لـمّا ذكر له هذا السؤال، فقال: إنّما ذُكِرَ السوادُ لأنّه قد يكون في الغربان ما فيه بياضٌ، وقد رأيتُهُ ببلاد المشرق!!!، فلم يفهم من الآية إلا أنّ الغرابيب هو الغراب، ولا قوّة إلا باللّه».

وقد جعل بعض المفسّرين سبب ذلك مراعاة الفواصل وختام الآيات[(٢)]، وقال الزركشيّ - رحمه اللّه - [(٣)]: «والذي يظهر في أنّ الُموجِبَ لتقديم (الغرابيب) هو تناسُبُ الكَلِمِ، وجريانُها على نمطٍ متساوي التركيب؛ وذلك أنّه لـمّا تَقَدّمَ البِيْضُ والحُمْرُ دونَ إتباعٍ كان الأليقُ بِحُسْنِ النَّسَقِ وترتيبِ النظام أن يكون (السودُ) كذلك، ولكنّه

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٤٤.
(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٢/ ٣٠٣.
(٣) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٤٥.

لـمّا كان في (السودِ) هنا زيادةُ الوصفِ كان الأليقُ في المعنىٰ أن يُتْبَعَ بما يقتضي ذلك، وهو الغرابيبُ ، فيُقابَلُ حظُّ اللفظِ وحظُّ المعنىٰ، فوُفِّيَ الخطابُ، وكَمُلَ الغرضان جميعاً، ولم يَطْرَحْ أحدُهما الآخرَ، فيقع النقص من جهةِ الطرحِ، وذلك بتقديم (الغرابيبِ) علىٰ (السودِ)، فوَقَعَ في لفظ (الغرابيب) حَظُّ المعنىٰ في زيادةِ الوصفِ، وفي ذِكْرِ (السودِ) مفرداً من الإتباع حَظُّ اللفظِ؛ إذ جاء مجرّداً عن صورة البِيْضِ والحُمْرِ، فاتّسقتِ الألفاظُ كما ينبغي، وتمَّ المعنىٰ كما يجبُ، ولم يُخِلَّ بواحدةٍ من الوجهين ، ولم يُقتصر علىٰ (الغرابيب)، وإنْ كانت متضمّنةً لمعنىٰ (السود) لئلا تتنافرَ الألفاظُ ، فإنّ ضمَّ (الغرابيبِ) إلىٰ (البِيْضِ) و(الحُمْرِ)، ولزّها في قَرَنٍ واحدٍ:

كابنِ اللبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ (١)

غيرُ مناسبٍ لتلاؤمِ الألفاظِ وتشاكلِها، وبِذِكْرِ السودِ وَقَعَ الالتئامُ، واتّسقَ نسقُ النظامِ ، وجاء اللفظ والمعنىٰ في درجةِ التمامِ، وهذا لَعَمْرُ اللهِ من العجائب التي تَكِلُّ دونها العقولُ، وتَعْيا بها الألسنُ، لا تدري ما تقولُ ، والحمد للّه».

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

---

(١) صدر بيت من البحر البسيط لجرير بن عطيّة الخطفي ، عجزه :

لم يستطعْ صولةَ البُزْلِ القناعيسِ

انظر : ديوانه : ١/ ١٢٨ .

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص: ١٨، ١٩].

حيث عَبَّرَ عن تسبيح الجبالِ بالفعلِ ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾، وعنْ حَشْرِ الطيرِ بالاسم ﴿ مَحْشُورَةً ﴾، والتعبيرُ بالفعلِ عن تسبيحِ الجبالِ للدلالةِ على حدوثِ ذلك منها شيئاً بعد شيءٍ، وحالاً بعد حالٍ؛ ليتصوّرَ السامعُ للآيةِ أنَّه يسمعُ تسبيحها، وأمّا التعبيرُ بالاسمِ عن حشرِ الطيرِ فلأنّه أرادَ كونَ الطيورِ محشورةً جملةً واحدةً، لا أنّها تُحْشَرُ مرّةً بعد أخرى، فهي كانتْ محشورةً لداودَ ـ عليه السّلامُ ـ في كلِّ وقتٍ يأمُرها حيثُ شاءَ.

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣].

حيث حذفَ جوابَ الشرطِ ﴿ إِذَا ﴾ الذي يمكنُ أنْ يُقدَّرَ بـ (حتّى إذا جاءوها وجدوا ما يقصرُ عنه البيانُ)؛ لأنَّ وصفَ ما يجدونه، ويلقونه عند ذلك في الجنّة لا يتناهى، فلا يحيطُ به لفظٌ، فجُعِلَ الحذفُ دليلاً على ضيقِ الكلامِ عن وصفِ ما يشاهدونه، وتُركَتِ النفوسُ تُقدِّرُ ما شأنُه، ولا تبلغُ مع ذلك كُنْهَ ما هنالك؛ لقول اللّه عزَّ وجلَّ في الحديث القدسيّ فيما رواه الشيخان [1] ـ رحمهما اللّه ـ عن أبي هريرة رضي اللّه

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢١، وصحيح مسلم: ٣/ ٢١٧٤.

عنه: (أَعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قَلْبِ بَشَرٍ).

وههنا سؤالٌ جديرٌ بالإجابة هو: لماذا أدخلَ الواو مع الجنّةِ في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، ولم يدخلها مع النار في قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)﴾ [الزمر: ٧١].

وقبل الإجابة على هذا السؤال أَذْكُرُ أنّه قد اجتمَع في مجلس سيفِ الدولةِ الحمدانيِّ أبو عليٍّ الفارسيُّ وأبو عبدالله الحسينُ بنُ خالَوَيْه، فسُئلَ ابنُ خالَوَيْهِ ذاك السؤالَ، فقال: هذه الواوُ تسمّى واوَ الثمانيةِ؛ لأنَّ العربَ لا تعطفُ الثمانيةَ إلا بالواو.

فنظرَ سيفُ الدولةِ إلى أبي عليٍّ، وقال له: أحقٌّ هذا؟ فقال أبو عليّ: لا أقولَ كما قال، إنّما تُرِكَتِ الواوُ في النارِ لأنّها مغلّقةٌ، وكانَ مجيئُهم شرطاً في فَتْحِها، فقوله: ﴿فُتِحَتْ﴾ فيه معنى الشرط، وأمّا قولُهُ: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ في الجنّة فهذه واوُ الحالِ، كأنّه قالَ: جاءوها وهي مُفَتَّحَةُ الأبوابِ، أو: هذه حالُها(١).

وهذا هو القولُ الصحيحُ؛ لأنّ النّارَ تكونُ مُغَلَّقَةً حتّى يَرِدُوها، وفي ذلك اشتدادُ لحرارتها، ولأنّ من العادة أن يُهانَ المعذّبون

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ١٨٩.

بالسجون، فَتُغْلَقَ حتّىٰ يأتوها، ومن العادة أيضاً أن يُكْرَمَ المنعَّمون بفتح الأبواب قبل وصولهم إليها، ويؤيّده قوله تعالىٰ في سورة أخرىٰ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾ [ص: ٤٩، ٥٠].

وأمّا واو الثمانية[(١)] التي أشار إليها ابن خالَوَيْهِ فهي التي تلحق الثامن من الأعداد وغيرها[(٢)]، فالعرب تقول: واحدْ، اثنانْ، ثلاثهْ، أربعهْ، خمسهْ، ستّهْ، سبعهْ، وثمانيهْ[(٣)]، وجعل الحريريّ[(٤)] منها قوله تعالىٰ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [التوبة: ١١٢].

وابن خالَوَيْهِ يرىٰ أنّ أبوابَ الجنّة ثمانيةٌ، لذلك دخلت الواوُ، وتابَعَهُ في ذلك أبو القاسم الحريريُّ، وقيل[(٥)]: إنّ هذه الواوَ زائدةٌ،

---

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف:

«تكلّم المؤلف على واو الثمانية نقلاً عن ابن خالويه والحريري، ولم يتعقب كلامهما بشيء.
والمعروف أن جماعة من محققي النحاة أنكروا هذه الواو، ونسبوها إلى ضعاف النحويين.
وذكر القائلون بها -إضافة إلى ما ذكره المؤلف- أن منها قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]، ولفظ: ﴿أَبْكَارًا﴾ هو الثامن، قالوا: ومما يستأنس به قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فزيدت الواو قبل الثمانية دون الأعداد السابقة.
وليس في شيء من هذا دليل لهم. والله أعلم» أ. هـ.
أقول: انظر: بدائع الفوائد: ٣/ ٥١، الفصول المفيدة في الواو المزيدة: ١٤٢.

(٢) مغني اللبيب: ٤٧٤.

(٣) انظر: المفصّل: ٢١٦، شرحه لابن يعيش: ٦/ ٢٨، الواضح في علم العربيّة: ٨٧.

(٤) درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ: ٣١.

(٥) الأزهيّة في علم الحروف: ٢٣٤.

والصحيح أنّها حاليّة كما سبق.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورىٰ: ٤٨].

سبق أن وضحتُ الفرق بين (إذا) و (إن) الشرطيّتين، وإذا تأمّلتَ هذه الآية وجدتَ ﴿إذا﴾ جاءتْ مع الرحمة، ووجدتَ ﴿إن﴾ جاءتْ مع السّيئة؛ وذلك ـ والله أعلم ـ لتغليب رحمة الله علىٰ عذابه، ولأنّ ما يعفو عنه اللّهُ أكثرُ، ثمّ إنّ هذا الاستعمالَ يدلُّ علىٰ مدىٰ كُفْرانِ الإنسانِ لنعَمِ اللّهِ؛ فاللّهُ قد غَمَرَهُ بالنعمة والرحمة في أكثر أحواله، وحين يقدّر المولىٰ ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ المرء أن تصيبه سيئةٌ عابرةٌ بسبب ما قدّمته يداه، يَظْهَرُ مَعْدِنُهُ الأصليُّ، فيكفر، ويجزع، وصدق الله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

وقد أشار ابن القيّم ـ رحمه الله ـ إلىٰ شيء من صور الجمال الأسلوبيّ في هذه الآية، فقال [١]: «وأتىٰ في الرحمة بالفعل الماضي

(١) بدائع الفوائد: ١ / ٤٧ ـ ٤٨.

الدالّ على تحقيق الوقوع: ﴿أَذَقْنَا﴾، ﴿فَرِحَ بِهَا﴾، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدالّ على أنّه غير محقّقٍ ﴿تُصِبْهُمْ﴾.

وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة ﴿أَذَقْنَا﴾ الدالّ على مباشرة الرحمة لهم، وأنّها مذوقةٌ لهم، والذوق هو أخصُّ أنواعِ الملابسةِ، وأشدُّها.

وكيف أتى في الرحمة بحرفِ ابتداءِ الغايةِ مضافةً إليه، فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾، وأتى في السيئة بباء السببيّة مضافةً إلى كَسْبِ أيديهم: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

وكيف أكّد الجملة الأولى التي تضمّنت إذاقة الرحمة بحرف ﴿إِنَّ﴾ دون الجملة الثانية. وأسرارُ القرآنِ أكثرُ وأعظمُ من أن تُحيطَ بها عقولُ البشرِ.

وتأمّل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] كيف أتى بـ ﴿إِذَا﴾ ههنا لـمّا كان مسُّ الضرِّ لهم في البحر محقّقاً، بخلاف قوله: ﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت: ٤٩]، فإنّه لم يُقيِّدْ مَسَّ الشرِّ هنا، بل أَطْلَقَهُ، ولـمّا قَيَّدَهُ بالبحر الذي هو متحقّقٌ فيه ذلك أتى بأداة ﴿إِذَا﴾.

وتأمّلْ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٣] كيف أتى هنا بـ ﴿إِذَا﴾ المُشْعِرَةِ

بتحقيقِ الوقوعِ المُسْتَلْزِمِ لليأسِ؛ فإنّ اليأس إنّما حَصَلَ عند تَحقُّقِ مَسِّ الشرِّ له، فكان الإتيان بـ﴿إذا﴾ ههنا أدلَّ على المعنى المقصود من (إنْ)، بخلاف قوله: ﴿وإذا مسَّهُ[1] الشَّرُّ فذو دُعاءٍ عريضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٥١]؛ فإنّه بِقِلَّةِ صَبْرِهِ وضَعْفِ احتمالِهِ متى تَوَقَّعَ الشَّرَّ أعرض، وأطال في الدعاء، فإذا تَحقَّقَ وُقُوعَهُ كان يؤوساً.

ومثل هذه الأسرار لا يُرقى إليها إلا بموهبةٍ من الله، وفهمٍ يؤتيه عبداً في كتابه».

* * *

قوله تعالى: ﴿إنَّ في السَّموَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آياتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وما أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية: ٣-٥].

يَظُنُّ بعضُ العلماءِ[2] أنّ فواصلَ الآياتِ، وهي خواتيمُها، ذاتُ فوائدَ لفظيّةٍ فقط، فتقعُ الفاصلةُ عند الاستراحةِ في الخطابِ لِتَحْسِينِ الكلامِ بها.

لكنَّ هذا غيرُ سديدٍ، بل إنّ لها فوائدَ مزدوجةً في آنٍ واحدٍ: لفظيّةً ومعنويّةً، نُقِلَ عن الزمخشريّ: «أنّه لا تَحْسُنُ المحافظةُ على الفواصل

---

(١) في المطبوع من (بدائع الفوائد): (وإن مَسَّهُ)، ولا قراءة بها هكذا.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٥٤.

لمجرّدها إلا مع بقاء المعاني على سدادها على النهج الذي يقتضيه حُسْنُ النظمِ والتئامُهُ، كما لا يَحْسُنُ تَخَيُّرُ الألفاظِ المونقةِ في السمعِ السَّلِسَةِ على اللسان إلا مع مجيئها منقادةً للمعاني الصحيحة المنتظمة، فأمّا أن تُهْمَلَ المعاني، ويُهتمَّ بتحسين اللفظ وَحْده غَيْرَ منظورٍ فيه إلى مُؤدّاهُ على بالٍ، فليس من البلاغة في فَتيلٍ أو نَقيرٍ، ومع ذلك يكون قوله: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] لا يتأتى فيه تَرْكُ رعايةِ التناسبِ في العطف بين الجمل الفعليّة إيثاراً للفاصلة؛ لأنّ ذلك أمرٌ لفظيٌّ لا طائل تحته، وإنّما عُدِلَ إلى هذا لقصدِ الاختصاص»(١).

وتأمّلْ هذه الآيات الثلاث من سورة الجاثية والتي هي موضع النظرة، تجدْ أنّ ختام كلّ واحدةٍ منها تتناسب مع مبتداها، لكنَّ إدراكَ المناسبةِ يحتاج إلى إعمالِ ذهنٍ، وقد فصّلها الزركشيّ رحمه الله، فقال(٢): «إنّ البلاغة تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنه - سبحانه - ذَكَرَ العِلْمَ بجملته، حيث قال: ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ومعرفةُ الصانعِ من الآيات الدالّة على أنّ المُخْتَرِعَ له قادرٌ عليمٌ حكيمٌ، وإنْ دلَّ على وجود صانعٍ مُخْتارٍ لدلالتها على صفاته مرتّبةً على دلالتها على ذاته، فلا بدَّ أولاً من التصديق بذاته حتّى تكون هذه الآيات دالّةً على صفاته؛ لتقدّم الموصوف وجوداً

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٧٢، معترك الأقران للسيوطيّ: ١/ ٥٢-٥٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٨٢-٨٣.

واعتقاداً على الصفات.

وكذلك قوله في الآية الثانية: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فإنّ سرَّ الإنسانِ، وتدبّرَ خِلْقَةِ الحيوانِ، أقربُ إليه من الأوّل، وتَفَكُّرُهُ في ذلك مما يزيده يقيناً في مُعْتَقَدِهِ الأوّلِ.

وكذلك معرفةُ جزئيّاتِ العالَمِ، من اختلافِ الليلِ والنهارِ، وإنزالِ الرزقِ من السماءِ، وإحياءِ الأرضِ بعد موتها، وتصريفِ الرياحِ، يقتضي رجاحةَ العقلِ، ورَصانَتِهِ؛ لِنَعْلَمَ أنّ مَنْ صَنَعَ هذه الجزئيّات هو الذي صَنَعَ العالَمَ الكُلّيَّ، التي هي أجرامُهُ وعوارضُ عنه، ولا يجوز أن يكون بعضُها صَنَعَ بعضاً؛ فقد قام البرهانُ على أنّ للعالَمِ الكُلّيِّ صانعاً مختاراً، فلذلك اقتضت البلاغةُ أن تكونَ فاصلةُ الآيةِ الثالثة: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وإنِ احتيجَ إلى العقل في الجميع، إلا أنّ ذِكْرَهُ ههنا أنسبُ بالمعنى الأوّل؛ إذ بعضُ مَنْ يَعْتَقِدُ [أنَّ اللّهَ] صانعُ العالمِ ربّما قال: إنّ بعضَ هذه الآثارِ يصنعُ بعضاً، فلا بدَّ إذاً من التدبّر بدقيق الفِكْرِ وراجحِ العقلِ».

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف: ٣١].

قولُه: ﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ ليست فيه ﴿مِن﴾ بمعنى (بَعْضٍ)؛ لأنّ الحديثَ عن جزاءِ الإيمان باللّه وتركِ الكفر، والانتقالُ من الكفر إلى

الإيمان يمحو الذنوبَ التي وَقَعَ فيها صاحبُها قبل إيمانه كلِّها، ويدلُّ على ذلك ما عَطَفَ اللهُ عليه بعده، حيث قال: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والإجارةُ من عذابِ الله لا تكون إلا بعد غفران الذنوب كلِّها، فدلّ هذا كلُّهُ على أنَّ التبعيضَ غيرُ مقصودٍ بالآية.

إذاً فلماذا عدَّىٰ الفعلَ ﴿يَغْفِرْ﴾ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾، مع إمكان أنْ يعدِّيَهُ بنفسه؟، وقد وَرَدَ كذلك في آيات أخرىٰ، كقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

الجواب: أنَّ الفعلَ ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ ضُمِّنَ معنىٰ: (يُنْقِذكم، ويُخْرِجكم منها)، قال أبو القاسم السهيليّ ـ رحمه الله ـ(١): «ولكنْ لا يكون ذلك في القرآن إلا حيث يُذْكَرُ الفاعلُ الذي هو المذنبُ، نحو قوله: ﴿لَكُم﴾؛ لأنّه المُنْقَذُ المُخْرَجُ من الذنوب، ولو قلتَ: (يَغْفِرْ من ذنوبكم) ـ دون أنْ تذكَر الاسمَ المجرورَ ـ لم يَحْسُنْ إلا على معنىٰ التبعيض؛ لأنّ الفعلَ الذي كان في ضمن الكلام، وهو الإنقاذ، قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقعٌ عليه».

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿أليم﴾: أبلغ من (مؤلم)؛ لأنّ (مؤلماً) يجوز أن يكون قد آلَمَ، ثُمَّ زال الألَمُ، أمّا (أليمٌ) فيدلّ على ملازمةِ الألمِ وعدمِ انقاطعه. واللّه أعلمُ.

(١) نتائج الفكر: ٣٣٣.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾ [الأحقاف: ٣٥].

خُصّتِ الساعةُ بكونها من ساعات النهار، لا من ساعات الليل؛ لأنَ النهارَ يقصرُ بسبب التشاغلِ فيه، ويُشَبَّهُ حينئذ بإبهام القطاة، أو بسالفة الذباب، أو بظلّ الوتد، قال جرير:

ويومٍ كـإبهـام القطاة تخايلتْ ... ضحاه وطابتْ بالعشيّ أصائلُهْ(١)

وقال الآخر:

ويومٍ عند دار أبي نعيم ... قصيرٍ مثلِ سالفةِ الذبابِ(٢)

وتقول العرب: (يومٌ أقصرُ من ظلِّ الوتدِ)، وقال الشاعر:

فهذا طويلٌ كظلِّ القناةِ ... وهذا قصيرٌ كظلِّ الوتدْ(٣)

وقال الخوارزمي:

ولا زالتْ عِداكَ بكلِّ أرضٍ ... لهم من سوءِ ظنِّهمُ نذيرُ

قصيرُ نهارِهِمُ خوفٌ طويلٌ ... بهم وطويلُ عمرِهِمُ قصيرُ(٤)

---

(١) ديوانه: ٤٧٩.

(٢) أخبار أبي القاسم الزجاجي: ١٨٩.

(٣) الغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي: ٢/ ٤٠٩.

(٤) محاضرات الأدباء: ١٦٤.

أمّا الليلُ فإنّه يوصفُ عادةً بالطول، وكذلك ساعاتُه، إلا على الراقد فيه، فقالت العرب في الأمثال: (أقصرُ من الليلِ على الراقد)[١]، وقيل: (ما أقصر الليل على الراقد!)[٢].

أمّا على الساهر والمُحِبّ فيُضْربُ به المثلُ في الطول، قال البحرانيّ:

أما لهذا الليلِ من آخِرِ قد بَلَغَ التَّسْهِيدُ مِنْ ناظِرِ

بتُّ وما أعْرِفُ طِيْبَ الكَرى ما أطولَ الليلَ على الساهِرِ !![٣]

وقيل: **وليلُ المحبِّ بلا آخر**[٤].

والمراد بقوله في الآية الكريمة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ تقليلُ مدّة لُبْثِهِمْ في الحياة الدنيا حينَ يرون العذابَ، فشبّهها بساعةٍ من النهارِ تنقضي بسرعةٍ، فاللّهُ أكبرُ، ما أجْمَلَ هذا البيانَ، وأبْلَغَهُ !!!.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

قرأ القراءُ السبعةُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ بنصب ﴿كُلَّ﴾، وهو الراجح، ورفعُ ﴿كُلّ﴾، وهي قراءة أبي السمال[٥]، مرجوحٌ؛ لأنّه اسمٌ مشتغَلٌ

(١) الدرّة الفاخرة: ٢/ ٤٤٤.

(٢) التمثيل والمحاضرة: ٢٤٢

(٣) التذكرة الفخريّة: ٢١٧.

(٤) التمثيل والمحاضرة: ٢٤٢.

(٥) المحتسب: ٢/ ٣٠٠، تفسير الرازيّ: ٢٩/ ٧٢.

عنه، حيث نَصَبَ العاملُ بعده ضميرَهُ ﴿خَلَقْنَاهُ﴾، فيكونُ الراجحُ نَصْبَ الاسمِ المشتغَلِ عنه بفعل مُقدَّرٍ، يُفسِّرُهُ الفعلُ المذكورُ، والتقدير: (إنّا خلقنا كلَّ شيء خلقناه بِقَدَرٍ)، ورفعُهُ غيرُ راجحٍ؛ لأنّه قد يُوهِمُ أنَ الجملةَ المذكورةَ: ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ صفةٌ لـ﴿شَيْءٍ﴾، فيكونَ المعنى: (إنا كلُّ شيء مخلوقٍ بقدر)، فَأفْهَمَ ذلك أنّ مخلوقاً ما يُضافُ إلى غير اللّه تعالى ليس بقدرٍ، وهذا ما يميل إليه المعتزلة(١)، كأبي علي الفارسيِّ والزمخشريِّ؛ لأنّهم يُقسِّمون المخلوقاتِ إلى مخلوقٍ للّه، ومخلوقٍ لغيرِ اللّهِ، والقسمُ الأخيرُ عندهم هو أفعالُ العبادِ الاختياريّةُ، وأفعالُ الشرّ، مع أنّ هذه الآية صريحةُ الدلالةِ على خَلْقِ كلِّ شيءٍ من قِبَلِ اللّهِ تعالى، ولذلك قال ابن المنيّر ـ رحمه اللّه ـ في كتابه (الانتصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال) (٢): «لكنّ الزمخشريّ لمّا كان من قاعدةِ أصحابِهِ تقسيمُ المخلوقاتِ إلى مخلوقٍ للّه، ومخلوقٍ لغيرِ اللّهِ، فيقولون: هذا للّه، بزعمهم، وهذا لنا، فَغَرَتْ هذه الآيةُ فاهُ، وقام إجماعُ القرّاءِ حجّةً عليه، فأخذَ يَسْتَرْوِحُ إلى الشقاءِ، وينقلُ قراءتها بالرفع، فَلْيُراجَعْ له، ويُعْرَضْ عليه إعراضُ القرّاءِ السبعةِ عن هذه الروايةِ».

* * *

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥].

---

(١) انظر: أخبار أبي القاسم الزجاجي: ٩٠.
(٢) حاشية الكشّاف: ٤ / ٤٢.

فـ﴿لَوْ﴾ الشرطيّةُ التي تُسمّىٰ (حرفَ امتناعٍ لامتناعٍ)، اقْتَرَنَ جوابُها باللام ، وهي كما يقول النحويّون : يكثُرُ اقترانُ جوابِها باللام إذا كان فعلاً ماضياً ، ولكننا نجد قول اللّه تعالىٰ عن الماء : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة : ٧٠]، فجاء جوابُها الماضي غيرَ مقرونٍ باللام، وفي ذلك نكتٌ بلاغيّةٌ عظيمةٌ، منها : أنّ اللّه سبحانه وتعالىٰ أكّدَ وَعِيدَهُ بِجَعْلِ الزرعِ حُطاماً ؛ لأنّ الكفّارَ قد تَعِبُوا في الزراعةِ والسقيِ، وظلّوا لياليَ وأيّاماً طويلةً في انتظارِ الثمرِ، فإهلاكُ الزرعِ، وجَعْلُهُ حُطاماً، أشقُّ علىٰ أنفسهم من نزولِ المطرِ عليهم أجاجاً، الذي لاحولَ لهم به ولا قوّةَ، ولم يَنَلْهُمْ تَعَبٌ ولا نَصَبٌ في إنزاله، ولذلك أُكِّدَ مع الزرع باللام ، وتُرِكَ التوكيدُ مع الماءِ.

وقيل : إنّ جَعْلَ الحرث حطاماً قَلْبٌ للمادّةِ والصورة، وجَعْلَ الماءِ أجاجاً قَلْبٌ للكيفيّة، ففي نَظَرِ الكفّارِ أنّه معَ الحرثِ أشدُّ وأشقُّ، ومع الماءِ أسهلُ وأيسرُ، فراعىٰ حالَهُمْ، فأكّدَ الأوّلَ، وَتَرَكَ الثانيَ دون تأكيدٍ.

وقيل(١) : إنّ اللامَ أُدْخِلَتْ علىٰ آيةِ المطعوم؛ للدلالة علىٰ أنّه يُقَدَّمُ علىٰ أمرِ المشروبِ، وأنّ الوعيدَ بِفَقْدِهِ أشدُّ وأصعبُ؛ من قِبَلِ أنّ المشروبَ إنّما يُحتاج إليه تَبَعاً للمطعومِ، ولهذا أيضاً قُدِّمَتْ آيةُ المطعومِ علىٰ آيةِ المشروبِ.

---

(١) الكشّاف : ٤ / ٥٧ .

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾ [الحديد: ٢٧].

جَعَلَ أبوعليٍّ الفارسيُّ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ مفعولاً به لفعلٍ محذوفٍ يُفَسِّرُه العاملُ المذكورُ بعده: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾، والواو عنده للاستئناف، وليستْ ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ معطوفةً على ﴿رَأْفَةً﴾، قال في كتابه (الإيضاح العضديّ)[1]: «فقوله: ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ محمولٌ على فِعْلٍ، كأنّه قال: (وابتدعوا رهبانيّةً ابتدعوها)، ألا ترى أنَّ الرهبانيّةَ لا يستقيمُ حَمْلُها على ﴿جَعَلْنَا﴾، مع وَصْفِها بقوله: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾؛ لأنّ ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم».

وَتَبِعَ الزمخشريُّ[2] أبا عليّ الفارسيَّ في إعرابه، وذكر قراءة الرفع لـ﴿رَأْفَةً﴾، لكنّه فسّر قوله: ﴿جَعَلْنَا﴾ بـ(وفّقنا)، فقال: «أي: وفّقناهم للتراحم والتعاطف بينهم»[3].

وهذا الإعراب منهما مَرْجِعُهُ كونُهما من المعتزلة، وهم يقولون: ما كان من أفعال العباد فلا يكون مخلوقاً للّه، فالرأفةُ والرحمةُ من خلقِ اللّهِ، والرهبانيّةُ من ابتداعِ الإنسانِ، فهي مخلوقةٌ له، وهم يعتقدون أنَّ

---

(١) ص: ٧٦.
(٢) الكشّاف: ٤ / ٦٧.
(٣) المصدر السابق.

ما يفعلُهُ الإنسانُ لا يفعلُهُ اللّه تعالىٰ، ولا يخلقُهُ.

قال ابن المنيّر ـ رحمه اللّه ـ: «في إعراب هذه الآية تورّطَ أبو عليّ الفارسيّ، وتحيّز إلىٰ فئة الفتنة وطائفة البدعة، فأعْرَبَ ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ علىٰ أنّها منصوبةٌ بفعلٍ مضمرٍ يفسّره الظاهر، وعلّلَ امتناع العطف، فقال: (ألا ترىٰ أنّ الرهبانيّةَ لا يستقيمُ حَمْلُها علىٰ ﴿جَعَلْنَا﴾، مع وصفها بقوله: ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾؛ لأنّ ما يجعله هو تعالىٰ لا يبتدعونه هم). والزمخشريُّ وَرَدَ أيضاً موردَهُ الذميمَ، وأَسْلَمَهُ شيطانُهُ الرجيمُ، فلمّا أجازَ ما مَنَعَهُ أبو عليٍّ مِنْ جَعْلِها معطوفةً أَعْذَرَ لذلك بتحريف الجَعْلِ إلىٰ التوفيق فراراً ممّا فرَّ منه أبو عليّ من اعتقاد أنّ ذلك مخلوقُ اللّهِ، وجنوحاً إلىٰ الإشراك واعتقادِ أنّ ما يفعلونه هم لا يفعله اللّه تعالىٰ، ولا يخلقه، وكفىٰ بما في هذه الآية دليلاً بعد الأدلّة القطعيّة والبراهين العقليّة علىٰ بطلان ما اعتقداه؛ فإنّه ذَكَرَ مَحَلَّ الرحمةِ والرأفةِ مع العِلْمِ بأنّ مَحَلَّها القلبُ، فجَعَلَ قولَهُ: ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ تأكيداً لخلقه هذه المعاني وتصويراً لمعنىٰ الخلق بِذِكْرِ مَحَلِّهِ، ولو كان المرادُ أمراً غيرَ مخلوقٍ في قلوبهم للّه تعالىٰ ـ كما زعما ـ لم يبق لقوله: ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ موقعٌ».

وأقول: إنّ هذا الإعراب من الفارسيّ والزمخشريّ باطلٌ، ولا يستقيم علىٰ قواعد اللغة؛ لأنَّ جَعْلَ هذه الآيةِ من بابِ النَّصْبِ علىٰ الاشتغالِ غيرُ صحيحٍ؛ فمن شروط الاسم المُشتَغَلِ عنه أنْ يكون مُخْتَصّاً؛ ليصحَّ رفعُهُ بالابتداء، والمبتدأ لا يكون إلا معرفةً، أو نكرةً

مختصّةً، أمّا في هذه الآية فـ﴿ رَهْبَانِيَّةً ﴾ نكرةٌ غيرُ مختصّةٍ، فلا يصحُّ أنْ تكونَ من بابِ الاشتغالِ، وإنّما الإعرابُ الصحيحُ لها أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً، و﴿ رَهْبَانِيَّةً ﴾ معطوفة على ﴿ رَأْفَةً ﴾، ووُصِفَت (الرهبانيّةُ) بجملة ﴿ ابْتَدَعُوهَا ﴾؛ لأنّ الرأفةَ والرحمةَ في القلبِ، ولا تَكَسُّبَ للإنسانِ فيهما، بخلافِ الرهبانيّةِ فإنّها أفعالُ بَدَنٍ مع شيءٍ في القَلبِ، ففيها موضعٌ للتكسُّبِ. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فقوله: ﴿ يُوَادُّونَ ﴾ من الفعل الماضي (وادَّ) على وزن (فاعَلَ)، وصيغة (فَاعَلَ) تدلُّ على المشاركة، مثل: قاتَلَ، وضارَبَ، وساهَمَ، وهكذا شأن هذا الوزن في دلالته على أنّه فعلٌ لاثنين إلا في أفعالٍ محصورةٍ جاءت على وزن (فاعَلَ)، ولم تدلَّ على المشاركة، وهي(١): قاتَلَ اللّه فلاناً، وبارَكَ اللّه فيك، وبادَرَ، وراقَبَ، وضاعَفَ، وقاسى، وعايَنَ، وعافى، وعاقَبَ، وداينَ، وباعَدَ،

(١) الكتاب: ٢ / ٢٣٩، إصلاح المنطق: ١٤٤ ـ ١٤٥، أدب الكاتب: ٤٦٤، المخصّص: ١٤ / ١٧٨ ـ ١٧٩.

وجاوزَ، وشارَفَ، ونادَلَ، وظاهَرَ.

ومجيء ﴿يُوَادُّونَ﴾ في هذه الآية الكريمة، وهي التي تدلُّ على المشاركة في المودة، التي هي من أعلى مراتبِ المحبةِ، ودونَ الخُلَّةِ، تعني - واللّهُ أعلَمُ - نَهْيَ المؤمنِ عن مبادلةِ الكافرِ ممن يحادُّ اللّهَ المودةَ إذا ابتدأه الكافرُ بها، فلا يصحُّ من المؤمن أن يُقابِلَ محبّةَ الكافرِ الذي تلك صفتُهُ محبتَهُ له بمثلها، وإذا كان النهي عن مبادلته المحبةَ فإنّ مبادرة المؤمن للكافر بالمحبة أولى بالنهي، وأشدُّ في الأثمِ.

والمتأمّل لقول اللّه تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا﴾ يلحظُ أنّ التعبير قد جاء بصيغة الخبر، الذي هو ضِدُّ الإنشاءِ، مع أنّ المرادَ بذلك النهيُ؛ وذلك للمبالغة في الزَّجْرِ عن محبّتهم، والأمرِ بمجانبتهم، والاحتراسِ من مخالطتهم ومعاشرتهم، فجاء النظم القرآني معبّراً عن ذلك بأنّه من المحال وجودُ مؤمنين صادقين في إيمانهم حقاً يوادّون أعداء اللّه من المشركين. واللّه أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

تأمّلوا قولَهُ: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ حيث قدّمَ

خبرَ المبتدأ: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ على المبتدأ: ﴿حُصُونُهُم﴾، وجعلَ الجملةَ المكونةَ فيهما خبراً لـ(أنّ)، وجَعَلَ اسمَها ضميراً عائداً على اليهود، ويمكنُ لقائلٍ أنْ يقولَ: (ظَنُّوا حصونَهُمْ مانعتَهُمْ)، أو: (ظنوا أنَّ حصونَهُمْ مانعتُهُمْ)، فهذا هو الأصلُ، لكنَّ التحوّلَ عن الأصلِ جاء مراعاةً لحالِ أولئك اليهودِ الممتلئةِ قلوبُهم غروراً بقوّتِهم الماديّة، فقدَّمَ خبر المبتدأ: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ الدالَّ على العزّةِ والحصانة؛ لِفَرْطِ وُثُوقِهِمْ بحصانتِها ومنعِها إيّاهم، من حيثُ ارتفاعُها، وقوةُ بنائها، وتوافرُ أسبابِ الأمانِ فيها، فحمايتُها لهم أمرٌ مقطوعٌ به لديهم.

أمّا تصييرُ ضميرِهم اسماً لـ(أنّ) من ﴿أَنَّهُم﴾، وإسنادُ الجملةِ إليه، فدليلٌ على اعتقادِهم في أنفسِهم أنَّهم في عزةٍ ومنعةٍ لا يُبالى معها بأحدٍ يَتَعَرَّضُ لهم، أو يَطْمَعُ في مغالبتِهم. كذا قالَ الزمخشريُّ في (كشّافِه)[1].

وأقول: هكذا شأنُ اليهودِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يُهَوِّلُون شأنَ قوّتِهم، ويتباهون بجنسِهم، وينسون أنَّ قدرةَ اللّهِ تعالى فوقَ كلِّ قدرةٍ، ولذلك كانَ الردُ عليهم حاسماً، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، فاللّهُ وَحْدَهُ هو الذي أتاهم من حيث لم يشعروا، ولم يتوقّعوا، وهو وَحْدَهُ الذي قذفَ في قلوبهِم الرُّعْبَ، فسبحان قاصم الجبابرة ومذلِّ المتكبرين!!!.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٨٠.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿إن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة: ٢].

جَعَلَ اللّهُ كونَهُمْ أعداءً للمسلمين، وبَسْطَهم أيديَهُمْ وألسنتَهُمْ بالسوءِ، أمراً مُحْتَمَلاً غيرَ مؤكَّدٍ، بإيقاعه في حَيِّزِ جزاءِ الشرطِ: (إنْ)، و(إنْ) ـ كما سبق ـ حَرْفُ شرطٍ يدلّ علىٰ احتمال وقوع جوابه، لا علىٰ القطعِ به، ولكنّه عَبَّرَ عن رغبتهم في كفر المسلمين ورجوعهم عن دين الإسلام بقوله: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، فَعَطَفَ الفعلَ: ﴿وَدُّوا﴾ ـ وهو ماضٍ ـ علىٰ الفعل المضارع: ﴿يَكُونُوا﴾، والسرّ في ذلك ـ واللّه أعلم ـ أنَّ رغبةَ الكفّارِ في كُفْرِ المسلمين لمّا كانتْ قطعيّةً غيرَ محتملةٍ للشكّ، متأصِّلةً فيهم، لا يحولُ بين قلوبهم وبين مودّتهم ذلك حائلٌ، عَبَّرَ عن ذلك بالماضي الذي يؤتىٰ به للتعبير عمّا قد تحقّق، أو عن متحقّق الوقوع، كما قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]، وهي أشياءُ لم تحصل بعدُ، ولكن عَبَّرَ بالفعل الماضي عنها لِتَحَقُّقِ وقوعِها. أمّا كونهم

أعداءً للمسلمين، وباسطي الأيدي والألسنِ بالسوء لهم فأمرٌ مشكوكٌ فيه؛ لاحتمال أنْ يَعرِضَ لهم ما يصدُّهم عنه من قوّةٍ في المسلمين أو ضَعْفٍ في الكفّار، فلمّا لم يكنْ مُتَحَقِّقَ الوقوعِ عَبَّرَ عنه بالمضارع.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧].

بعد أنْ نهىٰ اللّه عباده المؤمنين عن محبّةِ الكافرين ـ ولو كانوا من أقاربِهم ـ فَتَحَ بابَ الرجاءِ لهم في إسلامِ أقاربهم وأعدائِهم، ولذلك ختمَ الآيةَ بقولِه: ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾، أي: علىٰ جعلِهم يسلمون، وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: للداخلين منهم في الإسلامِ، يغفرُ لهم ذنوبَهم التي اقترفوها بكفرِهم. واللّهُ أعْلَمُ.

وأخيراً تأمّلوا قولَه تعالىٰ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾، هذه كنايةٌ في غايةِ الروعةِ عن قُرْبِ دخولِ هؤلاء الكفار في الإسلامِ الذي يمحو كلَّ العداواتِ السالفةِ، والكُرْهَ الشديدَ من قلوبِ المسلمين لأعدائهم عندَ دخولِهم في الإسلام؛ لأنّه كان نهىٰ عن موادّتهم وعن اتخاذهم أولياء حين كانوا علىٰ الكفر، ولا سبيلَ إلىٰ إعادةِ المودّةِ بينهم إلا بهدايتهم للإسلام؛ ليصيروا إخواناً لهم في الدين، يربط بينهم رباطه الوثيق محبّةً ومودّةً لا تنفصم عراها، ولا ينقطع مداها. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة : ١٠].

حيث كَرَّرَ التحريمَ بين الكافر والمؤمنة ، فقال أولاً : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ ، ثمّ أَرْدَفَ به قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ، مع أنّ الظاهر يدلُّ على أنّ الأولىٰ مُغْنِيَةٌ عن الأخرىٰ ، فإذا كانتْ المرأةُ المؤمنةُ المهاجرةُ مُحَرَّمَةً علىٰ زوجها ، فهو مُحَرَّمٌ عليها ، فما الداعي إلىٰ التكرار ؟

إنّ للتكرار هنا فائدتين ـ كما قال الزركشيُّ ـ رحمه الله ـ (١) :

«إحداهما : أنّ التحريمَ قد يكون في الطرفين ، ولكنْ يكونُ المانعُ من أحدهما ، كما لو ارتدّتِ الزوجةُ قبلَ الدخولِ بها ، يَحْرُمُ النكاحُ من الطرفين ، والمانعُ من جهتهما ، فَذَكَرَ اللّهُ سبحانه الثانيةَ ؛ ليدلَّ علىٰ أنّ التحريمَ كما هو ثابتٌ في الطرفين كذلك المانعُ منهما .

والثانية : أنّ الأولىٰ دلّتْ علىٰ ثبوتِ التحريمِ في الماضي ، ولهذا أتىٰ فيها بالاسم الدالِّ علىٰ الثبوت ، والثانيةُ في المستقبل ، ولهذا أتىٰ فيها بالفعل المستقبل» . انتهىٰ كلام الزركشيّ رحمه الله .

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٣/ ٢٣ .

وههنا نظرةٌ أخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾، فعبّرَ بـ﴿إِذَا﴾، ولم يُعبِّرْ بـ(إن)؛ لأنّ (إنْ) تستعمل في الأشياءِ المحتملةِ غيرِ المؤكّدةِ، ومجيءُ المؤمناتِ مهاجراتٍ من الأشياء المحقّقة، فقد هاجرتْ سبيعةُ بنتُ الحارثِ الأسلميّةُ رضي الله عنها وتركتْ زوجَها في مكّةَ، ولأجْلِ ذلك عبّرَ بـ﴿إِذَا﴾ التي تدلُّ علىٰ تحقق وقوع ما بعدها.

أمّا استعمال (إنْ) بعد ذلك في قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فلأنّ العِلْمَ اليقينيَّ بِصِدْقِ الإيمانِ لا يمكنُ أنْ يتحقّقَ من لقاءٍ قصيرٍ يُعْقَدُ عاجلاً لمحاولة معرفة ما لدىٰ المرأة المهاجرة من أسبابٍ لهجرتها، وهذا من رحمة الله تعالىٰ بالمؤمنات وبالمؤمنين؛ لأنّه لو قال: (فإذا علمتموهنّ مؤمناتٍ) لَوَجَبَ علىٰ الممتحنين التثبّتُ والتيقّنُ من صِدْقِ إيمانِ المرأةِ، وهذا ما لا سبيلَ إليه، وفيه مشقّةٌ علىٰ المهاجرة حيث تحتاج إلىٰ وقتٍ طويلٍ، وهي معلّقةٌ، حتّىٰ يَظْهَرَ صِدْقُ إيمانِها، لكنَّ هذه الآيةَ دلّتْ علىٰ أنّ عمادَ الحكمِ يكون علىٰ الظواهر، والله أعلمُ بالبواطن.

وأخيراً أقول: إنّ قوله تعالىٰ: ﴿جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ استشهد به أبو عليّ الفارسيُّ[1] علىٰ جواز تذكير الفعل وتأنيثه إذا كان الفاعلُ ممّا جُمِعَ بألفٍ وتاءٍ، حيث قال: ﴿جَاءَكُمُ﴾، ولم يقل: (جاءتكم)، ولكنْ رُدَّ عليه بأنّه يجوز الوجهان هنا؛ لوجود فاصلٍ بين الفعلِ: (جاء)

---

(١) التكملة: ٨٩.

والفاعلِ: (المؤمنات)، وهو المفعول به، وهو الضمير (كُمْ). واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

عَدَّىٰ الفعلَ ﴿يُرِيدُونَ﴾ باللام، فقال: ﴿لِيُطْفِئُوا﴾ مع أنّه يتعدّىٰ بنفسه؛ لأنَّ الفِعْلَ قد ضُمِّنَ معنىٰ فِعْلٍ آخَر، هو (يَسْعُوْنَ)، فصارَ معنىٰ الآية: يريدون، ويسعون لإطفاءِ نورِ اللّه بأفواههم، وهذا يَدُلُّ علىٰ أنّ مع إرادتهم سعياً وعملاً، وهذا أبلغُ في جُرْمِهِمْ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

لو أنّ سائلاً سألَ، فقال: لِمَ حُذِفَتْ (مِنْ) في هذه الآية: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، ولم تكنْ كآيةِ سورةِ (الأحقاف): ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١]؟ لقلتُ: قد بيّنتُ [١] أنّ آيةَ (الأحقاف) تخصُّ الكافرين، وقد دلّتْ علىٰ الإنقاذِ من الكفرِ وذنوبِهِ؛ لأنّ الإسلامَ يَجُبُّ كلَّ ما قَبْلَهُ، فهي خروجٌ كاملٌ من الذنوبِ.

---

(١) ص ٢٦٢-٢٦٣.

أمّا آية الصف فهي إخبارٌ عن المؤمنين الذين قد سَبَقَ لهم الإنقاذُ من ذنوبِ الكفرِ بإيمانِهِمْ، ثمّ وُعِدُوا على الجهادِ بغفرانِ ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غيرُ محيطةٍ بهم كإحاطة الكفرِ المهلكِ بالكافرِ، فلم يتضمَّنِ الغفرانُ معنى الاستنقاذ؛ إذ ليس ثَمَّ إحاطةٌ من الذَّنْبِ بالمُذْنِبِ، وإنّما تضمّنَ معنى الإذهابِ والإبطالِ للذنوبِ؛ لأنّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيّئاتِ، كذا قال السهيليّ ـ رحمه الله ـ في كتابه (نتائج الفكر)[١].

أمّا قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾ [البقرة: ٢٧١] فإنّ ﴿مِن﴾ فيها للتبعيض؛ لأنّ الصدقةَ لا تُذْهِبُ جميعَ الذنوبِ، بل بعضَها[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة: ١١].

جاء التعبير بـ ﴿إِذَا﴾ الشرطيّة الدّالّة على تحقّق الوقوع؛ لأنّ الشرطَ وجزاءَهُ قد وَقَعا قبلَ نزولِ الآيةِ، حيث كان رسول الله ﷺ يَخْطُبُ بأصحابه خطبتي الجمعة بعد صلاتها، إذ جاءتْ تجارةٌ من الشام، فَانْصَرَفَ كثيرٌ من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ نَحْوَها،

---

(١) ص ٣٣٣، وانظر: بدائع الفوائد لابن القيّم ـ رحمه الله ـ: ٢/ ٥٩.
(٢) نتائج الفكر: ٣٣٤.

وتركوا الرسول ﷺ مع قليلٍ من أصحابه. فنزلت الآية [١]، فهي إخبارٌ عمّا سَبَقَ.

وههنا وقفةٌ يسيرةٌ مع قوله: ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، فالأصلُ في الضمير أنْ يعودَ على أقربِ مذكورٍ، وهنا الضمير الذي جُرّ بـ(إلى) كان الأصلُ فيه أنْ يعودَ على اللهو، فيقال: (انفضُّوا إليه)؛ لأنّهُ الأقربُ، ولكنّه عاد مؤنّثاً إلى التجارة، وإنْ كانتْ أبعدَ، فقال: ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾.

وللعلماء في تعليل ذلك أقوالٌ [٢]، منها: أنّ التجارةَ أجذبُ للقلوبِ، وأشغلُ لها عن طاعة الله من اللهو، وأنّ المشتغلين بالتجارة أكثرُ عدداً من المشتغلين باللهو، أو لأنّها أكثرُ نفعاً من اللهو، فهي أصلٌ، وهو تَبَعٌ لها، وكذلك إذا وَقَعَ النهيُ عن الانشغال بالتجارة ـ وهي مباحةٌ ـ عن ذِكْرِ الله فالتحذيرُ من الانشغالِ باللهو ـ وهو غيرُ مباحٍ ـ يكون من باب (الأَوْلى)، وليس العكس كذلك، ثمّ إنّ التجارةَ كانتْ سبباً في انْفِضاضِ الصحابةِ عن رسول الله ﷺ، وهو يخطبُ يومَ الجمعةِ، وبسببهم نزلت الآية، فناسب تقديمُ ما كان سبباً على ما جاء تَبَعاً، وهو ضرب الطبول، أو اللهو.

والذي أراه أنّ الضمير يمكنُ أنْ يرجعَ إلى التجارة واللهو معاً، لكنْ لم يَعُدْ مُذَكَّراً لِتَدْخُلَ التجارةُ أيضاً، ولو عاد مُذَكَّراً لاقْتُصِرَ على اللهو، ولم يُغَلَّبْ المُذَكَّرُ على المؤنّث ـ كما هي عادة العرب ـ؛ لأنّ

(١) أسباب النزول للواحديّ: ٤٩٣ ـ ٤٩٤.
(٢) الكشّاف: ٤ / ١٠٦ ـ ١٠٧، المحرّر الوجيز: ١٦ / ١٤، البحر المحيط: ١٠ / ١٧٦، تفسير أبي السعود: ٨/ ٢٥٠، تفسير التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٢٨.

اللهو غيرُ عاقلٍ. واللّهُ أعْلَمُ.

وتحسن الإشارة هنا إلىٰ أنّ لتكرار حرف الجرّ ﴿من﴾ في قوله: ﴿مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ فائدةً، هي قَطْعُ إمكانِ الظنِّ بأنّ ما عند اللّه خيرٌ من التجارة واللهو مجتمعين فقط، فبتكرار حرف الجرِّ دلّتِ الآيةُ علىٰ أنّ ما عند اللّه من الرزق والثواب خيرٌ من اللهو، وخيرٌ من التجارة، مُنْفَرِدَيْنِ، أو مُجْتَمِعَيْنِ. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤].

إنّ الآية جاءتْ في بيان بعض صفات المنافقين، وهي أنّهم لا يفقهون، وأنّهم لا يعقلون، مع أنّ أجسامَهم حسنةٌ مُعْجِبَةٌ، ولذلك شبّههم بالخُشُبِ المسنّدةِ، فَشَبَّهَ هيئةَ جلوسِهِمْ في مجالسِ رسول اللّه ﷺ، مُسْتَنِدِينَ علىٰ الجدار، يتحدّثون، ويُبْدُونَ الاستماعَ لحديث رسول اللّه ﷺ، شَبَّهَ هذه الهيئةَ بالخُشُبِ؛ لأنّها ذاتُ أجسامٍ طويلةٍ بيّنةٍ في الصورةِ، ولكنّها خاليةٌ من العقل، بعيدةٌ عن الفهم، ولتقاربِ شكلِها مع شكلِ الإنسان شبّههم اللّه تعالىٰ بها، ولم يشبههم بالحجارة؛ لفارقِ الشَّبَهِ، وتأمّلوا وَصْفَ الخُشُبِ بقوله: ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾؛ لأنّ الخُشُبَ يمكن أنْ تفيد إذا سُقِفَ بها المكانُ، لكنها إذا سُنِّدَتْ لم

يُسْتَفَـدْ منهـا في تلك الحالةِ، والمنافقـون مثلُ الخُشُبِ غيرِ المفيـدة، فشبّهَهم بخشبٍ نخـرةٍ متآكلـةٍ، إلا أنهـا مسـندةٌ، يحسب مَنْ رآها أنها صحيحة(١).

ثمّ إنّ تشبيهَهم بهـا في تلك الحالة إشارةٌ إلى هيئةِ مقـامِهم في مـجلسِ رسـول اللّه ﷺ مـسـتندين إلى الجـدار دون جلوس ؛ لعـدم حرصهم على الاطمئنان عند المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أمّا وصْفُ الخُشُبِ مع أنّها جَمْعٌ بقوله: ﴿مُسَنَّدَةٌ﴾، وهي مفردةٌ، حقُّها أنْ يُوْصَفَ بها المفردُ، فيقال: خَشَبَةٌ مُسَنَّدَةٌ، فالسببُ في ذلك أنَّ الجمعَ إذا كانَ دالاً على الكثرة وُصِفَ بالمفردِ، كما هو الحال في هذه الآية، فالخُشُبُ على زنةِ (فُعُلٍ)، وهو من أوزانِ جمعِ الكثـرة، ووصفُها بالمفردِ يدلُّ على الكثرة كذلك، أمّا الوصفُ بما جُمعَ بألفٍ وتاءٍ فيدلُّ على القلّةِ، فلو قيـل: خُشُبٌ مسنّداتٌ، لحصلَ تناقضٌ، فـ ﴿خُشُبٌ﴾ تدلُّ على الكثـرة، و(مسنّداتٌ) تدلُّ على القلّةِ، قال الحريريّ في (درّة الغوّاص في أوهام الخـواص)(٢): «وكذلك اختاروا - أي العرب - أيضاً أنْ ألحقوا بصفةِ الجمعِ الكثيرِ الهاءَ، فقالوا: أعطيته دراهمَ كثيرةً، وأقمتُ أيّاماً معدودةً، وألحقوا بصفةِ الجمعِ القليلِ الألفَ والتاءَ، فقالوا: أقمتُ أيّاماً معدوداتٍ، وكسوتُهُ أثواباً رفيعاتٍ».

ولذلك قال بعضُ المفسّرين في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ

(١) كتاب الجمان في تشبيهات القرآن: ٢٦٧.

(٢) ص ١٠١.

أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٤]: «إنّ قائلي ذلك من اليهود فرقتان: إحداهما قالتْ: إنّما نُعَذَّبُ بالنارِ سبعةَ أيّامٍ، وهي عددُ أيّامِ الدنيا، وقالتْ فرقةٌ: إنّما نعذّبُ أربعين يوماً، وهي أيّامُ عبادتِهِمُ العِجْلَ، فآية (البقرة) تحتمل قَصْدَ الفرقةِ الثانيةِ، وآية (آل عمران) تحتمل قَصْدَ الفرقةِ الأولىٰ»(١)، وقال الحريريّ(٢): «كأنّهم قالوا أوّلاً بطول المدّة، ثمّ إنّهم رجعوا عنه، فقصّروا المدّة».

وفي آية سورة (المنافقون) مدارِ النظرةِ تأمّلْ قولَهُ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ إذ أتىٰ بـ﴿إِذَا﴾ التي تدلُّ علىٰ تأكيدِ حصولِ الرؤيةِ، وأنَّ الرسولَ ﷺ كان يراهم دائماً، ولم يأتِ بـ(إنْ) التي تدلُّ علىٰ الاحتمالِ والشكِّ، لكنّه عن قولهم أتىٰ بـ﴿إِن﴾ بعد ذلك، فقال: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ الدّالةِ علىٰ قلّةِ كلامِهِمْ، أو علىٰ عدم اهتمام الرسول ﷺ بقولهم، والأوّل أرجح. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

حيث قَدَّمَ الأزواجَ علىٰ الأولاد؛ لأنّه قد حكم عليهم بعداوتهم

---

(١) كشف المعاني: ١٠٣.
(٢) درّة الغوّاص: ١٠١.

لهم، ووقوعُ ذلك من الأزواجِ أكثرُ منه في الأولاد ، ولذلك قدَّمَهُمْ. واللّه أعلمُ.

وقولُه: ﴿عَدُوًّا﴾ بمعنى (أعداءٍ)؛ لأنَّ ﴿عَدُوًّا﴾ على وزن (فَعُولٍ) الذي يستوي فيه المفردُ والمثنَّى والجمعُ والمذكّرُ والمؤنّثُ، قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦] ، ولذلك قال بعده: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ ، فأعادَ عليه ضميرَ الجمع.

ثم تأمّلوا قولَهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، فترتيبُ العفوِ والصفحِ والغفرانِ جاء في غاية الإبداعِ والروعةِ، فبدأ بالعفو، وهو تَرْكُ العقوبةِ، ثمّ ثنّى بالصفحِ، وهو تَرْكُ التثريبِ واللومِ والتعييرِ بالذنبِ، وخَتَمَ بالغفرانِ، وهو إخفاءُ الذنبِ وسَتْرُهُ.

فتباركَ مَنْ تكلَّمَ بهذا البيانِ حقّاً ، وبلَّغَهُ رسولُهُ ﷺ وحياً.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

قَدَّمَ الأموالَ في هذه الآية؛ لأنَّ الأموالَ لا تكادُ تفارقُها الفتنةُ، أمّا الأولادُ فليستْ في استلزامِ الفتنةِ مثلَ الأموالِ، ولذلك أَخَّرَ ذِكْرَهُمْ. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ١٩].

في هذه الآية الكريمة قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾، و(رأى): الأصلُ في معناها إذا كانت بصريّةً الرؤيةُ دون قَصْدٍ مُسْبَقٍ، أمّا (نَظَرَ) فالأصلُ في معناها: الرؤيةُ المقصودةُ، فتقول: نظرتُ إلى القمر، ورأيتُه، فالأوّل جاء بعد قَصْدِ النظرِ إليه، والثاني جاء دون قَصْدٍ.

قال الراغبُ الأصفهانيُّ في (المفردات)[1]: «إذا عُدِّيَ (رأيتُ) بـ﴿إلى﴾ اقتضى معنى النظر المؤدّي إلى الاعتبار»، فضُمِّنَتْ ﴿لَمْ يَرَوْا﴾ معنى (لمَ ينظروا)، والدليلُ تَعَدِّي الفعلِ بـ﴿إلى﴾؛ لأنَّ المقصودَ ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ رؤيةُ الطيرِ حالةَ كَوْنِ الرائين قاصدين أو غيرَ قاصدين، وكأنَّه يقولُ: انظروا إليها معتبرين.

وفي هذه الآية تنبيهاتٌ أودُّ الإشارةَ إليها بإيجاز:

التنبيهُ الأولُ: قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هذا القول مكوَّن من: همزةِ الاستفهامِ، و واوِ العطفِ، والفعلِ المجزومِ بـ﴿لم﴾، والمعطوفُ عليه مقدّرٌ، والتقدير: أَغَفلوا؟، ولم يروا؟، وحذفُ المعطوف عليه يَكْثُرُ في مثلِ هذا الأسلوبِ.

التنبيه الثاني: فائدةُ قولِهِ: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ طَلَبُ النظرِ والاعتبارِ فيها

---

(١) ص: ٢٠٩.

في حالةِ طيرانِها ؛ لأنّها إذا لم تكنْ في حالِ الطيرانِ فلا بَسْطَ فيها ، ولا قَبضَ ، وأَمْكَنَ اصطيادُها بسهولةٍ ، أمّا إضافةُ كلمةِ (فَوْقَ) إلىٰ الضميرِ (هم) ، حيث قال : ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ ؛ ليدلَّ علىٰ قُرْبِها منهم ، وأنّه لا يَطْلُبُ منهم الاعتبارَ بشيءٍ بعيدٍ عنهم ، وعسيرٍ عليهم بلوغُهُ .

التنبيه الثالث: التعبيرُ عن بَسْطِ الأجنحةِ بالاسم : ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ ، وَعَطْفُ القبضِ عليه بالفعل ﴿ يَقْبِضْنَ ﴾ ؛ لأنّ الطيرانَ أكثرُهُ بَسْطٌ للأجنحةِ ، وقبضُها قليلٌ ، لا يَلْجَأ إليه الطائرُ إلا عندما يَهُمُّ بالهبوط ، فكأنَّ الأصلَ في الطيران البَسْطُ ، فَعَبَّرَ عنه بالاسمِ ؛ لأنَّ الاسمَ يدلُّ علىٰ الثبوتِ والدوامِ ، وبما أنَّ القبضَ فرعٌ عليه يتجدّدُ عند الحاجةِ عَبَّرَ عنه بالفعلِ الذي يدلُّ علىٰ التجدّدِ والحدوث[1] .

التنبيه الرابع: مجيء اسم ﴿ الرَّحْمَن ﴾ في الآيةِ دونَ سائرِ أسماءِ اللّهِ الحسنىٰ في قوله : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ﴾ إشارةٌ إلىٰ رحمة اللّه تعالىٰ بهذه الطيورِ حيث خَلَقَها علىٰ هيئةٍ تمكّنُها من السلامةِ من الأذىٰ بالطيرانِ والبعدِ عن مواطنِ الخطرِ . واللّه أعلم .

* * *

قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة : ٤١ ، ٤٢] .

تَأَمّلْ كيف خَتَمَ اللّهُ تعالىٰ الآية الأولىٰ بقوله : ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ،

---

(١) الكشّاف : ٤ / ١٣٨ .

وَخَتَمَ الآيةَ الأخرىٰ بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، ووجه ذلك: «أنّ مخالفةَ القرآنِ لِنَظْمِ الشِّعْرِ ظاهرةٌ وواضحةٌ لا تخفىٰ علىٰ أحدٍ، فقولُ مَنْ قال: شِعْرٌ، عنادٌ وكفرٌ محضٌ، فناسَبَ خَتْمُهُ بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾.

وأمّا مخالفتُهُ لنظمِ الكُهّانِ وألفاظِ السجعِ فتحتاجُ إلىٰ تَدَبُّرٍ وتَذَكُّرٍ؛ لأنّ كلاً منهما نثرٌ، فليستْ مخالفتُهُ لهما في وضوحِها لكلِّ أحدٍ كمخالفةِ الشِّعْرِ، وإنّما تظهر بتدبّرِ ما في القرآنِ من الفصاحةِ والبلاغةِ والبدائعِ والمعاني الأنيقةِ، فَحَسُنَ خَتْمُهُ بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾»(١).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

كَرَّرَ لفظَ ﴿الْجِبَالُ﴾؛ لأنّه في مقامِ التهديدِ والوعيدِ، ثمّ إنَّه لو أضمرَ، فقال: (وكانتْ كثيباً)، لكانَ محتملاً أنْ يَعودَ الضميرُ علىٰ الأرضِ(٢)، فتكونَ هي التي أصبحت كثيباً مهيلاً، وهذا غيرُ مرادٍ، فمنعاً لهذا الاحتمالِ أظهرَ في موضعِ الإضمارِ. واللّهُ أعْلَمُ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، والمعروفُ أنَّ (شَرِبَ) يتعدّىٰ بـ(مِنْ)،

---

(١) معترك الأقران: ١ / ٤٣ـ٤٤.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٤٩٢.

ولكنَّه ههنا ضَمَّنَ الفعلَ (يَشْرَبُ) معنىٰ: يَلْتذُّ، أي: يلتذون بسببها، وقيل(١): إنه ضُمِّنَ معنىٰ (يَرْوَىٰ)، ويؤيِّدُه المجيء بِفِعْلٍ يدلُّ علىٰ التكثير، وتأكيدُهُ بمصدره، حيث قال: ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾، ثمّ قال: ﴿تَفْجِيرًا﴾.

فصار معنىٰ الآية ـ واللّهُ أعْلَمُ ـ: عيناً يشربُ، ويلتذُّ بها عبادُ اللّهِ، أو: عيناً يشربُ، ويروىٰ بها عبادُ اللّهِ. واللّه أعلم.

وقال الزمخشريّ: «فإنْ قلتَ: لِمَ وُصِلَ فِعْلُ الشُّرْبِ بحرفِ الابتداء أولاً ـ يريد قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: ٥] ـ، وبحرف الإلصاق آخراً؟ ـ يريد قوله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ـ، قلتُ: لأنّ الكأسَ مبدأُ شُرْبِهِمْ، وأوّلُ غايتِهِ، وأمّا العينُ فبها يَمْزِجُونَ شَرابَهُمْ، فكأنّ المعنىٰ: يشربُ عبادُ اللّهِ بها الخمرَ، كما تقول: شربتُ الماءَ بالعسلِ»(٢).

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ۝٢٨﴾ [الإنسان: ٢٨].

سبق القول مراراً: إنّ (إذا) تستعمل في ما كان متحقّقَ الوقوعِ، و(إن) تستعمل في ما كان محتملَ الوقوعِ، أو بعيدَهُ، لكنْ أَشْكَلَ علىٰ العلماء استعمالُ (إذا) في هذه الآية مع مشيئةِ التبديلِ، والتبديلُ غيرُ

(١) البحر المحيط: ١٠/ ٣٦١.
(٢) الكشّاف: ٤/ ١٩٦.

واقع.

وأُجِيْبَ بأنّ التبديل هنا يحتمل وجهين:

« **أحدهما:** إعادتُهُمْ في الآخرة؛ لأنّهم أنكروا البعث.

والثاني: إهلاكُهُمْ في الدنيا وتبديلُ أمثالِهِمْ، فيكون كقوله: ﴿ **إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ** ﴾ [النساء: ١٣٣].

فإنْ كان المراد في الدنيا وَجَبَ أن يُجْعَلَ هذا بمعنى (إنِ) الشرطيّة؛ لأنّ هذا شيءٌ لم يكنْ، فهي مكان (إنْ)؛ لأنّ الشرطَ يمكنُ أنْ يكونَ وألا يكونَ، ألا ترىٰ إلىٰ ظهورها في قوله تعالىٰ: ﴿ **إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ** ﴾[النساء: ١٣٣]، ﴿ **إن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ** ﴾ [سبأ: ٩]، وإنّما جاز لـ(إذا) أنْ تقعَ مَوْقعَ (إنْ) لما بينهما من التداخل والتشابه»(١).

ولستُ أرىٰ أنّ (إذا) هنا بمعنىٰ (إنْ)، بل أراها باقيةً علىٰ معناها الأصليّ؛ فيكونُ ذلك أبلغَ في التهديد، ليأتي نتيجةً لما سَبَقَهُ مِنْ ذِكْرِ الخَلْقِ وَشَدِّ الأَسْرِ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ** ﴿٣﴾ ﴾ [الضحىٰ: ٣].

حيثُ يجعلُ النحويّون هذه الآيةَ الكريمةَ شاهداً علىٰ حذفِ المفعولِ

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٤/ ٢٠٠ـ٢٠١.

به لتناسبِ الفواصلِ ؛ فالآيات الأولىٰ من تلك السورةِ مختومةٌ بالألفِ المقصورةِ ، وكان الأصلُ في الآيةِ أنْ يُقالَ : (وما قلاك) .

والصحيحُ أنَّ النظمَ القرآنيَّ ليس مبنيّاً علىٰ أُسُسٍ لفظيّةٍ فقط ، فهذه الآيةُ الكريمةُ التي بيَن أيدينا لو تدبّرناها لَتَبَيَّنَ لنا أنَّ اللّه ـ سبحانَه وتعالىٰ ـ ذَكَرَ الضميرَ العائدَ علىٰ الرسولِ ﷺ مع التوديع ، وحَذَفَهُ مع القِلَىٰ ، وفي هذا تكريمٌ للرسولِ ﷺ من أنْ يُواجَهَ بالقِلَىٰ ، وهوَ البغضُ ، حتّىٰ لو كانَ ذلك في سياقِ النفي ؛ لِما فيه من الطردِ والإبعادِ وشدّةِ البغضِ ، ومنْ نِعَمِ اللّه تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ أنّه يَرْفُقُ به إذا عَاتَبَه ، ومِنْ ذلك قولُهُ : ﴿ عفَا اللَّهُ عنكَ لِمَ أَذنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يتبيَّنَ لكَ الَّذين صدَقُوا وتَعْلَمَ الْكَاذِبِين ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة : ٤٣] ، تأمّلوا ـ رحمني اللّه وإيّاكم ـ كيف قدّمَ اللّه تعالىٰ عَفْوَهُ علىٰ عتابِهِ لرسوله ﷺ .

أمّا التصريحُ بالمفعولِ مع التوديعِ في آيةِ سورة الضحىٰ فلأنَّ التوديعَ لا محذورَ فيه ، بل إنَّه لا يكونُ إلا بينَ المتحابين ، ولذلك صرّح اللّه تعالىٰ بالضمير ، فقال : ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ . واللّهُ أعلَمُ .

* * *

قال تعالىٰ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر : ١ ـ ٨] .

هذه السورةُ العظيمةُ مؤثّرةٌ جداً في كلِّ مَنْ ألقىٰ السمعَ وهو شهيدٌ، تَقْرعُ القلوبَ، وتهزُّها هزّاً يعيدُها إلىٰ جادّةِ الحقِّ، إذا أرادَ اللّه تعالىٰ لأصحابِها خيراً في الدارين.

ولي في هذه السورة تنبيهات:

التنبيه الأوّل: تأمّلوا قوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ حيث أسندَ اللّهُ تعالىٰ الإلهاءَ إلىٰ التكاثرِ، مع أنَّ اللاهين هُم الكفّارُ، ولَهْوُهُمْ يكون عن الإيمان، أو همُ المؤمنون، ولَهْوُهُمْ يكون عن الازديادِ من الصالحاتِ، وإسنادُ الإلهاءِ إلىٰ التكاثرِ أبلغُ من قولِ: (لَهَوْتُمْ بالتكاثرِ)؛ لأنّه في الآيةِ الكريمةِ السببُ الوحيدُ في الغفلةِ والبعدِ عن الإيمانِ أو الطاعاتِ، فكأنَّه لا سببَ غيرُهُ، أمّا لو لم يُسْنَدْ إليه لكان سبباً من أسبابٍ كثيرةٍ.

ثمّ تأمّلوا قوله: ﴿التَّكَاثُرُ﴾ فصيغةُ التفاعلِ تدلُّ علىٰ التفاخرِ في ذلك والتباهي به، وتدلّ علىٰ فُشُوِّهما في المتخاصمَين أو في القبائل، فكلُّ قبيلةٍ تفاخرُ الأخرىٰ حتّىٰ تشتغلَ بذلك عن الإيمان والطاعة، وكلُّ واحدٍ من المتكاثرين همُّه أنْ يُكاثِرَ صاحبَهُ، ولذلك لو حصلتِ الكثرةُ من غيرِ تكاثرٍ لم تضرَّ.

ولم يُحدِّدِ اللّه المتفاخَرَ به؛ ليعمَّ كلَّ ما يمكنُ أنْ يَدْخُلَ فيه من مال، أو عبيدٍ، أو أولادٍ، أو مزارعَ، أو مصانعَ، أو علومٍ لا يُرادُ بها وجهُ اللّهِ

تعالىٰ، فالإيجازُ بالحذفِ ههنا دلَّ علىٰ العمومِ؛ لأنَّ المهمَّ ليس المتكاثَرَ به، بل المهمُّ التكاثرُ نفسُه، وما يَنْتُجُ عنه من صَرْفٍ لصاحبه عن الإيمانِ والطاعةِ.

التنبيه الثاني: في قوله تعالىٰ: ﴿**حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ سمع أعرابيٌّ رجلاً يقرأُ هذه الآيةَ، فقال: (بعثُ القومِ للقيامةِ وربِّ الكعبةِ)[1]، وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ ـ رضي اللّه عنه ـ: (ما زلنا نشكُّ في عذابِ القبرِ حتىٰ نزلتْ: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾)[2].

وقال عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ ـ رحمه اللّه ـ [3]بعدَ أن قرأَ الآيةَ: (ما أرىٰ المقابرَ إلا زيارةً، وما للزائر بدٌّ من أنْ يرجعَ إلىٰ منزله، إمّا إلىٰ جنةٍ أو إلىٰ نارٍ).

فالتعبيرُ عن الموتِ بالزيارةِ تعبيرٌ في غايةِ البلاغةِ عن كونِ الموتِ مرحلةً بَرْزَخِيّةً، ينتقلُ بعدَها الموتىٰ إلىٰ دارٍ أخرىٰ، فليستِ القبورُ دارَ استقرارٍ، ولا أهلُها باقون فيها، وإنّما هم فيها بمنزلة الزائرين، يحضرونها مدّةً، ثمّ يرحلون عنها، كما هو شأنُ الزائرِ، يرحلُ ولو بعدَ حين. فما أجملَهُ من تعبيرٍ!!!

---

(١) المحرّر الوجيز: ١٦ / ٣٥٩.
(٢) سنن الترمذيّ: ٥ / ٤٤٧.
(٣) البحر المحيط: ١٠ / ٥٣٦.

التنبيه الثالث: قولُهُ: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قيل: إنَّها تأكيدٌ لقوله قَبْلَهُ: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ والصحيحُ أنَّ العِلْمَ الأوّلَ يكونُ عند نزولِ الموتِ بهم، فيعاينون العذابَ، وما بعد ﴿ثُمَّ﴾ مقصودٌ به العِلْمُ بعذابِ القبرِ.

وَذَكَرَ ابنُ القيِّمِ ـ رحمه الله ـ خمسةَ أدلّةٍ على ذلك، هي[1]:

الأوّل: أنَّ الفائدةَ الجديدةَ والتأسيسَ هو الأصلُ، وقد أمكنَ اعتبارُهُ، مع فخامةِ المعنى وجلالتِه، وعدمِ الإخلالِ بالفصاحةِ.

الثاني: توسُّطُ ﴿ثُمَّ﴾ بين العِلْمَينِ ـ وهي تفيدُ الترتيبَ مع التراخي ـ، فهي مؤذنةٌ بتراخي ما بين المرتبتين حقيقةً زماناً وخطراً.

الثالث: أنّ هذا القولَ مطابقٌ للواقعِ؛ فإنّ المُحْتَضَرَ يعلمُ عند المعاينةِ حقيقةَ ما سيكون عليه، ثمّ يعلمُ في القبرِ وما بعدَه ذلك علماً يقيناً، فهو فوقَ العِلْمِ الأوّلِ.

الرابع: أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه، وغيرَهُ من السَلَفِ فَهِمُوا من الآية أنَّ المقصودَ بها عذابُ القبرِ.

الخامس: أنَّه ذَكَرَ عذابَ النارِ بعدَهُ، فقال: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ فَدَلَّ على أنَّ الأوّلَ غيرُ مرادٍ به النارُ.

---

(١) بدائع التفسير: ٥/ ٣١٢، التفسير القيّم: ٥١٦.

وقيل: إنَّ الأوّلَ توعُّدٌ بما ينالهم في الدنيا، والثاني توعُّدٌ بما أُعِدَّ لهم في الآخرةِ، فليسَ في السورةِ تكرارٌ.

* * *

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ١، ٢].

يَفْرُقُ علماءُ اللغةِ بينَ (أعطىٰ) و(آتىٰ)، فيجعلون الإيتاءَ أقوىٰ من الإعطاءِ[١]، ويستشهدون علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ويقولون: إنّ المُلْكَ شيءٌ عظيمٌ لا يعطيه اللّهُ إلا مَنْ له قُوّةٌ، ولذلك تأمّلْ قوله: ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ تجدها قويّةً دالةً علىٰ تمكّنِ المُلْكِ قبلَ النزعِ.

إذا عَرَفْتَ هذا فربّما قلتَ: كيف استعمل في سورة (الكوثر) الإعطاءَ، فقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، ولم يقل: (إنّا آتيناك الكوثر)؟.

قال الزركشيّ ـ رحمه اللّه ـ في تعليل ذلك[٢]: «لأنّ النبيّ ﷺ وأُمّتَهُ يَرِدون علىٰ الحوضِ وُرُودَ النازلِ علىٰ الماءِ، ويرتحلون إلىٰ منازلِ العزّ، والأنهارِ الجاريةِ في الجِنانِ، والحوضُ للنبيّ ﷺ وأمّتِه عندَ عَطَشِ

---

(١) نقله الزركشيّ في كتابه (البرهان في علوم القرآن: ٤ / ٨٥) عن الجوينيّ.
(٢) المصدر السابق: ٤ / ٨٦.

الأكبادِ قَبْلَ الوصولِ إلى المقامِ الكريمِ، فقال فيه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾؛ لأنّه يَتْرُكُ ذلك عن قُرْبٍ، وينتقلُ إلى ما هو أعظمُ منه». واللّه أعلم.

وتأمّلْ قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ تَجِدْهُ قَرَنَ الفعلَ بالفاءِ، وقد أفادتْ معنيين:

«**أحدهما:** جَعْلُ الإنعامِ الكثيرِ سبباً للقيامِ بِشُكْرِ الْمُنْعِمِ وعبادتِهِ.

وثانيهما: جَعْلُهُ سبباً لِتَرْكِ المبالاةِ بقولِ العدوّ؛ فإنّ سببَ نزولِ هذه السورةِ أنّ العاصَ بنَ وائلٍ قال: إنّ محمّداً صُنْبُورٌ[1]، فشقَّ ذلك على رسول اللّه ﷺ[2]، فأنزل اللّه هذه السورة»[3].

وتأمّلْ كيف أظهرَ الاسمَ بعد إضمارِهِ، فقال: ﴿لِرَبِّكَ﴾، ولم يقل: (لي)، ولا: (لنا)؛ للتنبيه على أنّه تعالى أهلٌ لأنْ يُصلّى له؛ لربوبيته، حيث خَلَقَ الخَلْقَ، وأبدَعَهُ، وأنشأهُ بنعمته، وفيه تعريضٌ بدين العاص بن وائلٍ وأشباهه ممّن كانتْ عبادتُهُ ونحرُهُ لغير اللّه.

وقال الإمامُ فخرُ الدينِ الرازيُّ عن قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾[4]: «فيه حُسْنان: وُرُودُهُ على طريق الالتفات التي هي أمٌّ من الأمّهاتِ، وَصَرْفِ الكلامِ عن لفظِ المضمرِ إلى لفظِ المظهرِ، وفيه إظهارٌ لكبرياءِ

(١) في (القاموس المحيط: ٥٤٨): «الصُّنْبُورُ: الرجلُ الفَرْدُ الضعيفُ الذليلُ بلا أهلٍ وعَقِب وناصر».

(٢) انظر: أسبابَ النزول للواحديّ: ٥٤١ ـ ٥٤٢، وفيه أنّ العاص قال: إنّ محمّداً أبتر.

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٤) المصدر السابق: ٣٧٩.

شأنِه، وإبانةٌ لعزّةِ سلطانِه، ومنه أَخَذَ الخلفاءُ قولَهُمْ: يأمرُكَ أميرُ المؤمنين بكذا.

وعن عمر ـ رضي اللّه عنه ـ أنّه حين خَطَبَ الأزديّةَ إلىٰ أهلِها قال لهم: خَطَبَ إليكم سيّدُ شبابِ قريشٍ مروانُ بنُ الحَكَمِ، وسيّدُ أهلِ المشرقِ جريرُ بن بُجَيلَةَ، ويَخْطِبُ إليكم أميرُ المؤمنين علىٰ نفسِهِ».

* * *

قوله تعالىٰ عن أبي لهب: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ٤، ٥].

فالجِيْدُ لفظٌ لا يُطْلَقُ إلا علىٰ المرأةِ، وبخاصّة إذا ذُكِرَ الحليُّ والحُسْنُ، وهو موضعُ الحِليةِ من عُنُقِها، قال الأعشىٰ:

يومَ أبْدتْ لنا قُتيلةُ عن جيدِ … تليعٍ تَزِيْنُهُ الأطواقُ (١)

وقال ابن الرومي:

وأَحْسَنُ مِنْ عِقْدِ المَلِيحَةِ جِيْدُها … وأحسنُ من سربالها المتجردُ (٢)

وقال كثيّر بن عبدالرحمن:

إذا ما أراد الغزوَ لم يَثْنِ هَمَّهُ … حَصانٌ عليها عقدُ دُرٍّ يزينُها (٣)

(١) ديوانه: ٢٥٩.

(٢) ديوانه: ٢/ ٥٥٩.

(٣) ديوانه: ٣٦٥.

وقال يزيدُ بنُ معاوية:

إذا بَرزَتْ ليلى مِنَ الخِــدْرِ أبْرزَتْ   لنا مَبْسِماً عَذْباً وَجِيْداً مُطَوَّقا (١)

وقال الشمّاخ:

دارُ الفتاةِ التي كنّا نقول لها   يا ظبيةً عُطُلاً حُسّانةَ الجِيدِ (٢)

وقال العرجي:

أبصرتُ وجهاً لها في جيده تَلَعٌ   تحت العقود وفي القرطين تشميرُ(٣)

وقال البهاء زهير:

أبداً أزيدُ مع الوصال تلهّفاً   كالعقدِ في جيدِ المليحةِ يَعْلَقُ(٤)

وقال الحارث بن خالد المخزومي:

ومنها علاماتٌ بمجرى وشاحها   وأخرى تَزِينُ الجيدَ من موضع العِقْدِ(٥)

وقال أمينُ الدينِ عبدُالرحمنِ بنُ عليٍّ الموصليُّ:

هَوِيْتُها طَفْلَةً دقَّتْ مَحاسِنُها   فَطَرْفُها نَرْجِسٌ والخَدُّ تُفّاحُ

يَتيمَةُ الدَّهْرِ نَثْرُ الدُّرِّ مِنْ فِمِها   والعِقْدُ في جِيدِها والوَجْهُ مِصْباحُ (٦)

---

(١) التذكرة الفخريّة: ٨٤.

(٢) ديوانه: ١١٠.

(٣) ديوانه: ٢٢٦.

(٤) ديوانه: ١٠٢.

(٥) شعره: ٦٩.

(٦) التذكرة الفخرية: ١٨٨.

والعُنُقُ لفظٌ عامٌّ للرجل والمرأة وغيرهما ، وحين يُرادُ الغَلُّ والتعذيبُ يُطْلَقُ لفظُ العُنُقِ[(١)]، كقوله تعالىٰ : ﴿ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلىٰ عُنُقك﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقوله : ﴿وجعلنا الأغلالَ في أعناقِ الذين كفروا﴾ [سبأ: ٣٣] ، وقوله: ﴿وأولئكَ الأغلالُ في أعناقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥]، وقوله: ﴿إنَّا جعلْنا في أعناقِهِمْ أغلالاً﴾ [يس: ٨] ، وقوله: ﴿إذِ الأغلالُ في أعناقِهِمْ والسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١].

والغَلُّ والتعذيبُ هما المرادان في سورة المسد، فكيف جاء التعبير عن ذلك بخلاف الأصل؛ حيث عبّر بالجيد، وليس بالعنق؟

الجواب عن ذلك ـ واللّهُ أعلَمُ ـ أنّ النساءَ مغرماتٌ بالتحلّي والحليّ، وحينما تُبشَّرُ المؤمناتُ بِلُبْسِ أحْسَنِ الحليّ يومَ القيامةِ تُبَشَّرُ العوراءُ أمُّ جميلٍ بنتُ حربٍ امرأةُ أبي لَهَبٍ بحليّ من نوعٍ خاصٍّ لا يليقُ إلا بمثلها، وهو حبلٌ من جهنّم، يطوّقُ عُنُقَها ، فهذا من بابِ البشارةِ بالسوءِ ، كقوله تعالىٰ: ﴿بشّرِ المُنافقينَ بأنَّ لهُمْ عذاباً أليماً ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء: ١٣٨] .

قال سعيدُ بنُ المسيّبِ ـ رحمه اللّه ـ[(٢)]: «كانتْ لها قلادةٌ فاخرةٌ من جوهرٍ ، فحلفتْ لَتُنْفِقَنَّها في عداوةِ محمّدٍ ﷺ، فيكونُ ذلك عذاباً في جَسَدِها يومَ القيامةِ»، وكانتْ تحمل الغَضىٰ والشَّوكَ والسَّعْدانَ،

---

(١) الروض الأنف: ٢/ ١١٣ .

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢٢٢ .

فتطرحُها بالليل على طريق النبيّ ﷺ، فانظروا كيف جاءَ الجزاءُ من جنسِ العملِ: حبلٌ في مقابلِ حبلٍ، وحليٌّ مقابلِ حليٍّ، لكنْ شتّانَ بينهما؛ فلها يومَ القيامة حبلٌ طويلٌ من نارٍ تَسْتَعِرُ، أو من لِيفٍ خَشِنٍ(١).

هذا واللّهُ أعْلَمُ، وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

---

(١) قال الشيخ إبراهيم بن يوسف:

«وأضيف إلى ذلك الجواب جواباً آخر لبعض أهل العلم، خلاصته أنه لم يعبر بالعنق والرقبة لأن هذين اللفظين -مع اشتراك الرجل والمرأة فيهما- لا يعبران عن جانب الجمال والغَيَد الذي يشي به لفظ الجيد، ولهذا عوقبت هذه المرأة الملعونة في جيدها الذي تُدلُّ به، وتعطو به، متتبعةً المسالك والطرق التي يمر بها رسول الله ﷺ لتملأها شوكاً وأذى.

ولم يذكر الشعراء في باب الغزل إلا لفظ الجيد؛ لأنه مرادف له في معناه الخاص، ودلالته الحافّة، وظلاله الموحية، وربما ذكروه في باب الهجاء إشارة إلى اتسام المهجو بصفات النساء من تكسر ودلال وتغنج، وبُعْد عن اقتحام المعارك وطلب المعالي.

ومنه قول حسان -رضي الله عنه- يهجو مسافع بن عياض التميمي:

أو في الذوابة من قوم ذوي حَسَبٍ   لم تصبح اليوم نِكساً ثانيَ الجيدِ».

انتهى كلام الشيخ جزاه الله خيراً.

وأقول: ومن أحسن ما قرأتُ في (الجيد) قولُ قيس بن الخطيم:

تروحُ من الحسناء أم أنت مغتدي   وكيف انطلاقُ عاشقٍ لم يُزَوَّدِ
تراءتْ لنا يومَ الرحيل بمقلتي   غرير بمُلْتَفٍّ من السدر مُفْرَدِ
وجيد كجيد الرئم صاف يَزينُهُ   توقُّدُ ياقوت وفَصّل زبرجدِ
كأنّ الثريا فوقَ ثُغْرَة نحرها   تَوقَّدُ في الظلماء أيَّ توقُّدِ

انظر: ديوانه: ٧٠.

ثَبَتُ المصادر والمراجع

* إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر / لأحمد بن محمّد بن أحمد الدمياطيّ الشافعيّ، ت ١١١٧هـ، تصحيح : علي محمّد الضّبّاع، مطبعة عبدالحميد أحمد حنفيّ، مصر .
* أحكام القرآن / لأبي بكر محمّد بن عبدالله المعافريّ الإشبيليّ، المعروف بـ(ابن العربيّ)، ت ٥٤٣ هـ، تحقيق : عليّ محمّد البجاويّ، دار المعرفة، بيروت .
* أخبار أبي القاسم الزّجّاجيّ / تحقيق : د/ عبدالحسين المبارك، ١٤٠١هـ، دار الحريّة للطباعة، بغداد .
* أدب الكاتب / لأبي محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ت ٢٧٦هـ، تحقيق : محمّد الداليّ، ط١، سنة ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
* الأزهيّة في علم الحروف/ لعليّ بن محمّد الهرويّ، ت ٤١٥هـ، تحقيق : عبدالمعين الملوحيّ، دار المعارف للطباعة، دمشق، سنة ١٤٠٢هـ.
* أسباب النزول / لأبي الحسن عليّ بن أحمد الواحديّ، ت ٤٦٨ هـ، تحقيق : السيّد أحمد صقر، ط ٣، سنة ١٤٠٧هـ، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، عام ١٣٩٩هـ.
* الاسم والمسمّى/ لعبدالله بن محمّد بن السيد البطليوسيّ، ت ٥٢١هـ، تحقيق : أحمد فاروق، مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، المجلد ٤٧، العدد الثاني .
* إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز / لبديع الزمان سعيد النورسيّ، طبع سنة ١٣٩٤هـ، مؤسسة الخدمات الطباعيّة، بيروت .

* إصلاح المنطق / ليعقوب بن إسحاق بن السّكّيت، ت ٢٤٤هـ، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، وعبدالسلام هارون، ط ٤، سنة ١٩٨٧م، دار المعارف، مصر.

* الأصول في النحو / لمحمّد بن سهل النحوي المعروف بأبي بكر بن السّرّاج، تحقيق: عبدالحسين الفتليّ، ط١، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* إعراب القرآن / لأبي جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل النّحّاس، ت ٣٣٨هـ، تحقيق: د/ زهير غازي زاهد، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، من منشورات ديوان الأوقاف بالعراق.

* الإعراب عن قواعد الإعراب / لأبي محمّد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاريّ، ت ٧٦١هـ، تحقيق: د/ علي فودة نيل، ط ١، سنة ١٤٠١هـ، من منشورات عمادة شؤون المكتبات في جامعة الملك سعود، الرياض.

* الاقتضاب في شرح أدب الكتاب / لأبي محمّد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسيّ، ت ٥٢١هـ، تحقيق: مصطفى السقا والدكتور حامد عبدالمجيد، سنة ١٩٨٣م، مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

* أمالي ابن الشجريّ/ لأبي السعادات هبة الله بن عليّ الحسنيّ العلويّ، ت ٥٤٢هـ، تحقيق: د/ محمود محمّد الطناحيّ، ط ١، سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، مطبعة المدنيّ، مصر.

* الأمالي النحويّة (أمالي القرآن الكريم) / لأبي عمرو عثمان بن عمر الكرديّ، المعروف بـ(ابن الحاجب)، ت ٦٤٦ هـ، تحقيق: هادي حسن حمّوديّ، ط ١، سنة ١٤٠٥هـ، عالم الكتب، بيروت.

* أمثال العرب / للمفضّل بن محمّد الضبّيّ، ت ١٧٨ هـ، تحقيق د/ إحسان عبّاس، ط٢، ١٤٠٣هـ، دار الرائد العربيّ، بيروت.
* الإنصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال / لناصر الدين أحمد بن محمّد بن المنيّر الإسكنريّ، ت ٦٨٣ هـ، بهامش كتاب (الكشّاف).
* الإنصاف في مسائل الخلاف/ لأبي البركات عبدالرحمن بن محمّد الأنباريّ، ت ٥٥٧هـ، تحقيق محمّد محيي الدين عبدالحميد، ط ٣، ١٩٥٣م، مطبعة حجازيّ، القاهرة.
* أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك / لأبي محمّد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاريّ، ت ٧٦١هـ، ط ٣، سنة ١٤٠٧هـ، دار إحياء العلم، بيروت.
* الإيضاح العضديّ / لأبي عليّ الحسن بن أحمد الفارسيّ، ت ٣٧٧هـ، تحقيق د/ حسن الشاذليّ فرهود، ط٢، ١٤٠٨هـ، دار العلوم، الرياض.
* الإيمان / لأبي العبّاس أحمد بن عبدالحليم ابن تيميّة، ت ٧٢٨ هـ، نشر: محمّد زهير الشاويش، ط ٢، سنة ١٩٦١م، المكتب الإسلاميّ، دمشق.
* البحر المحيط / لأبي حيّان محمّد بن يوسف الأندلسيّ النحويّ، ت ٧٥٤هـ، عناية عرفان العشّا حسونة، ١٤١٢هـ، دار الفكر، بيروت.
* بدائع التفسير/ لأبي عبدالله محمّد بن أبي بكر الزرعيّ، المعروف بـ(ابن القيّم)، ت ٥٧١هـ، جمع: يسري السيّد محمّد، ط ١، سنة ١٤١٤هـ، دار ابن الجوزيّ، الدمّام.
* بدائع الفوائد / لأبي عبدالله محمّد بن أبي بكر الزرعيّ، المعروف بـ(ابن

القيّم)، ت ٥٧١هـ، دار الكتاب العربيّ، بيروت.

* البداية والنهاية / لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القدسيّ، ت ٧٧٤هـ، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٥١هـ.

* البديع في علم العربيّة / لأبي السعادات مجدالدين المبارك بن محمّد بن الأثير الجزريّ، ت ٦٠٦هـ، رسالةٌ نال بها درجة الدكتوراه صالح بن حسين بن عبدالله العايد، سنة ١٤٠٦هـ، كلية اللغة العربيّة جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الرياض .

* بديع القرآن / لعبدالعظيم بن عبدالواحد بن أبي الإصبع المصريّ، ت ٦٥٤ هـ، تحقيق: حفني محمّد شرف، ط ٢، سنة ١٣٨٦هـ، دار نهضة مصر، القاهرة.

* بردة المديح المباركة / لأبي عبدالله محمّد بن سعيد البوصيريّ، ت ٦٩٦هـ، ط ٥، سنة ١٣٥٢هـ، المكتبة الحسينيّة المصريّة بالأزهر، القاهرة.

* البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن/ لكمال الدين أبي المكارم عبدالواحد ابن عبدالكريم الزملكانيّ، ت ٦٥١ هـ، تحقيق : د/ خديجة الحديثيّ، د/ أحمد مطلوب، ط ١، سنة ١٩٧٤م، وزارة الأوقاف العراقيّة، بغداد.

* البرهان في علوم القرآن / لبدرالدين محمّد بن عبدالله الزركشيّ، ت ٧٩٤هـ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعرفة، بيروت.

* البسيط في شرح جمل الزجّاجيّ / لعبيدالله بن أحمد بن عبيدالله الإشبيليّ (ابن أبي الربيع)، ت ٦٨٨هـ، تحقيق : د/ عيّاد بن عيد

الثبيتيّ، ط ١، ١٤٠٧هـ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت .

* البصائر والذخائر / لأبي حيّان عليّ بن محمّد بن العبّاس التوحيديّ، ت ٤١٤ هـ، تحقيق : د/ وداد القاضي، ط ١، دار صادر، بيروت .

* بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس / لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبدالبرّ النمريّ القرطبيّ، ت ٤٦٣هـ، تحقيق: محمّد مرسي الخوليّ، ط ٢، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

* البيان في غريب إعراب القرآن / لأبي البركات كمال الدين عبدالرحمن ابن محمّد الأنباريّ، ت ٥٧٧هـ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سنة ١٤٠٠هـ.

* تأويل مشكل القرآن / لأبي محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ، ت ٢٧٦هـ، نشر السيّد أحمد صقر، ط٢، ١٩٧٣م، دار التراث، القاهرة .

* تاج العروس من جواهر القاموس / لأبي الفيض المرتضى محمّد بن محمّد الزبيديّ، ت ١٢٠٥هـ، دار مكتبة الحياة، بيروت .

* التبيان في إعراب القرآن / لأبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبريّ، ت ٦١٦ هـ، تحقيق : عليّ محمّد البجاويّ، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ، مصر.

* التذكرة الحمدونيّة/ لأبي المعالي محمّد بن الحسن بن محمّد بن عليّ بن حمدون ، ت ٥٦٢ هـ، تحقيق : إحسان عبّاس وبكر عبّاس، ط ١، سنة ١٩٩٦م، دار صادر، بيروت .

* التذكرة الفخريّة / لأبي الحسن بهاء الدين عليّ بن عيسى الإربليّ،

ت ٦٩٢ هـ، تحقيق : د/ نوري حمودي القيسيّ، والدكتور/ حاتم صالح الضامن، ط ١، سنة ١٤٠٤هـ، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ.

* تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد/ لأبي عبدالله محمّد بن عبدالله بن مالك الطائيّ، ت. . هـ، تحقيق: محمّد كامل بركات، سنة ١٣٨٧هـ، دار الكتاب العربيّ، القاهرة.

* تفسير أبي السعود، المسمّىٰ (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم)/ لأبي السعود محمّد بن محمّد العمادي، ت ٩٥١ هـ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

* تفسير التحرير والتنوير / لمحمّد الطاهر بن عاشور، دون معلومات أخرىٰ.

* تفسير الطبريّ، المسمّىٰ (جامع البيان في تأويل القرآن) / لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبريّ، ت ٣١٠هـ، ط ١، سنة ١٤١٢هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت.

* التفسير القيّم / لأبي عبدالله محمّد بن أبي بكر الزرعيّ، المعروف بـ(ابن القيّم)، ت ٧٥١هـ، جمع: محمّد أويس الندويّ، تحقيق: محمّد حامد الفقي، دار السنّة المحمّديّة، القاهرة.

* التفسير الكبير، المسمّىٰ (مفاتيح الغيب) / لمحمّد بن عمر الرازيّ، ت ٦٠٦هـ، ط ١، سنة ١٤١١هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت.

* التكملة / لأبي عليّ الحسن بن أحمد الفارسيّ، ت ٣٧٧هـ، تحقيق: د/ حسن شاذلي فرهود، ط ١، سنة ١٤٠١هـ، شركة الطباعة العربيّة السعوديّة، الرياض.

* تمثال الأمثال/ لأبي المحاسن محمّد عليّ العبدريّ الشيبيّ، ت ٨٣٧هـ،

تحقيق د/ أسعد ذبيان، ط١ ، ١٤٠٢هـ، دار المسيرة، بيروت .

* التمثيل والمحاضرة / لأبي منصور عبدالملك بن محمّد الثعالبيّ، ت ٤٢٩هـ، تحقيق : عبدالفتّاح محمّد الحلو، ط ٢ ، سنة ١٩٨٣م، الدار العربيّة للكتاب، بيروت .

* التمهيد في تنزيل الفروع على الأصول/ لجمال الدين عبدالرحيم بن الحسن الإسنويّ، ت ٧٧٢ هـ، ط ١ ، سنة ١٣٥٣هـ، المطبعة الماجديّة بمصر .

* الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبيّ) / لأبي عبدالله محمّد بن أحمد القرطبيّ ، ت ٦٧١هـ، دار الكتب المصريّة، القاهرة، سنة ١٣٨٧هـ .

* الجمان في تشبيهات القرآن / لأبي القاسم عبدالله بن محمّد البغداديّ، المعروف بـ(ابن ناقيا) ، ت ٤٨٥هـ، تحقيق : أحمد مطلوب وخديجة الحديثيّ، من مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق .

* جمهرة الأمثال / لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكريّ، توفي بعد ٣٩٥هـ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، وعبدالمجيد قطامش، ١٣٨٤هـ، المؤسّسة العربيّة الحديثة، القاهرة.

* الجنى الداني في حروف المعاني/ لحسن بن قاسم المراديّ ، ت ٧٤٩هـ، تحقيق الدكتور / طه محسن، ط ١ ، مطابع دار الكتب، الموصل .

* حقائق التأويل في متشابه التنزيل / لأبي الحسن محمّد بن الحسين بن موسى الكاظم، المعروف بـ(الشريف الرضيّ)، ت ٤٠٦ هـ، دار التراث الإسلاميّ، بيروت .

* الحماسة البصريّة / لعليّ بن أبي الفرج بن الحسن البصريّ، توفي نحو ٦٥٨هـ، تحقيق : مختار الدين أحمد، ط ٣، ١٤٠٣هـ، عالم الكتب،

بيروت .
* الخاطريّات/ لأبي الفتح عثمان بن جنّي النحويّ، ت ٣٩٢ هـ، تحقيق: عليّ ذو الفقار شاكر، ط١، سنة ١٤٠٨هـ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت .
* الخصائص / لأبي الفتح عثمان بن جنّي النحويّ، ت ٣٩٢ هـ، تحقيق محمّد عليّ النجّار، ط٢، دار الهدىٰ للطباعة والنشر، بيروت .
* درّة التنزيل وغرّة التأويل/ لمحمّد بن عبدالله الخطيب الإسكافيّ ، ت ٤٢٠ هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ.
* درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ / لأبي محمّد القاسم بن عليّ الحريريّ، ت ٥١٦هـ، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة .
* الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة / لحمزة بن الحسن الأصبهانيّ ، ت ٣٦٠ هـ، تحقيق : د/ عبدالمجيد قطامش، القاهرة، سنة ١٩٧١م .
* ديوان ابن الروميّ (عليّ بن العبّاس بن جريج) / تحقيق : الدكتور حسين نصّار، سنة ١٩١٨م، ط ٢، سنة ١٩٩٤م، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة .
* ديوان أبي الحسن عليّ بن محمّد التهاميّ / تحقيق : د/ محمّد بن عبدالرحمن الربيّع ، ط ١، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، مكتبة المعارف بالرياض .
* ديوان الأعشىٰ الكبير/ تحقيق : د/ محمّد محمّد حسين، ١٩٥٠م، مكتبة الآداب، القاهرة .
* ديوان امرئ القيس / تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، دار المعارف بمصر .

* ديوان أوس بن حجر/ نشر: محمّد يوسف نجم، سنة ١٩٦٠م، دار صادر، بيروت.
* ديوان البهاء زهير/ تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ومحمّد طاهر الجبلاويّ، ط ٢، دار المعارف بمصر.
* ديوان جرير/ شرح محمّد بن حبيب، تحقيق: نعمان محمّد أمين طه، دار المعارف، مصر.
* ديوان الحطيئة/ تحقيق: د/ نعمان محمّد أمين طه، ط ١، سنة ١٤٠٧هـ، مطبعة المدنيّ، القاهرة.
* ديوان ذي الرمّة/ تحقيق: د/ عبدالقدوس أبو صالح، ط ٣، سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
* ديوان رؤبة بن العجّاج/ تصحيح: وليم بن الورد البروسي، ط ٢، سنة ١٤٠٠هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
* ديوان شعر عديّ بن الرقاع العامليّ/ تحقيق: د/ نوري حمودي القيسيّ، والدكتور حاتم صالح الضامن، ط ١، سنة ١٤٠٧هـ، من مطبوعات المجمع العلميّ العراقيّ.
* ديوان الشمّاخ بن ضرار الذبيانيّ/ تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر.
* ديوان الطرمّاح/ تحقيق: د/ عزّة حسن، من مطبوعات مديريّة إحياء التراث القديم، دمشق، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
* ديوان العباس بن الأحنف/ دار بيروت، بيروت، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
* ديوان عبيد بن الأبرص/ تحقيق وشرح: د/ حسين نصّار، ط ١، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، مصر.

* ديوان العجاج / تحقيق: د. سعدي ضنّاويّ، ط ١، سنة ١٩٩٧م، دار صادر، بيروت.
* ديوان عديّ بن زيد العباديّ/ جمع: محمّد جبّار المعيبد، من منشورات وزارة الثقافة والإشاد، بغداد، سنة ١٩٦٥م.
* ديوان العرجيّ / تحقيق: خضر الطائيّ ورشيد العبيديّ، سنة ١٩٥٦م، الشركة الإسلاميّة للطباعة، بغداد.
* ديوان علقمة الفحل / شرح: السيّد أحمد صقر، المكتبة المحموديّة التجاريّة، القاهرة، سنة ١٣٥٣هـ.
* ديوان عنترة / تحقيق: محمّد سعيد مولويّ، ط ٢، سنة ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلاميّ، بيروت.
* ديوان قيس بن الخطيم / دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٧م.
* ديوان كثيّر عزّة / تحقيق: إحسان عبّاس، سنة ١٩٧١م، دار الثقافة، بيروت.
* ديوان النابغة الذبيانيّ / تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.
* ربيع الأبرار ونصوص الأخبار/ لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ، ت ٥٣٨ هـ، تحقيق: د/ سليم النعيميّ.
* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ للسيّد محمود الألوسيّ البغداديّ، ت ١٢٧٠ هـ، المطبعة المنيريّة بمصر.
* الروض الأُنُفُ في شرح السيرة النبويّة / لأبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيليّ، ت ٥٨١هـ، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، ١٣٨٧هـ، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

* زاد المعاد في هدي خير العباد / لأبي عبدالله محمّد بن أبي بكر الزرعيّ، المعروف بـ(ابن القيّم)، ت ٧٥١هـ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط، ط ٢، سنة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان .

* الزاهر في معاني كلمات الناس / لأبي بكر محمّد بن القاسم الأنباري، ت ٣٢٨هـ، تحقيق : د/ حاتم صالح الضامن، دار الرشيد، بغداد .

* سنن أبي داود (ضمن : الكتب الستّة وشروحها) / لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستانيّ، ت ٢٧٥هـ، ط٢، دار سحنون، تونس .

* سنن ابن ماجه (ضمن : الكتب الستّة وشروحها) / لأبي عبدالله محمّد ابن يزيد الربعيّ، ت ٢٧٣هـ، ط٢، دار سحنون، تونس .

* سنن الترمذيّ (ضمن : الكتب الستّة وشروحها) / لأبي عيسىٰ محمّد ابن عيسىٰ الترمذيّ، ت ٢٧٩هـ، ط٢، دار سحنون، تونس .

* سنن الدارميّ (ضمن : الكتب الستّة وشروحها) / لأبي محمّد عبدالله ابن عبدالرحمن الدارميّ، ت ٢٥٥هـ، ط٢، دار سحنون، تونس .

* سير أعلام النبلاء / لأبي عبدالله محمّد بن أحمد الذهبيّ، ت ٧٤٨هـ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، ط ٢، سنة ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .

* السيرة النبويّة / لأبي محمّد عبدالملك بن هشام المعافريّ، ت ٢١٣ هـ، دار المنار، القهارة، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

* شرح أبيات سيبويه / لأبي محمّد يوسف بن أبي سعيد السيرافيّ، ت ٣٨٥ هـ، تحقيق : د/ محمّد علي سلطانيّ، دار المأمون للتراث، دمشق .

* شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة / لأبي القاسم هبة اللّه بن الحسن اللالكائيّ، ت ٤١٨ هـ، تحقيق : أحمد حمدان، دار طيبة، الرياض .

* شرح ألفيّة ابن مالك / لأبي عبداللّه بدرالدين محمّد بن محمّد بن مالك، ت ٦٨٦هـ، تحقيق/ محمّد محيي الدين عبدالحميد، ط ١٥ ، ١٣٨٦هـ، دار الاتحاد العربيّ للطباعة، مصر .

* شرح الأنموذج في النحو / لمحمّد بن عبدالغنيّ الأردبيليّ، ت ٦٤٧هـ، تحقيق : د/ حسن شاذليّ فرهود، ط١ ، ١٤١١هـ، دار العلوم ، الرياض .

* شرح ديوان جرير/ لمحمّد إسماعيل الصاوي، دار الأندلس، بيروت .

* شرح ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد الأنصاريّ / تحقيق : الدكتور سامي الدهّان ، ط ٣، دار المعارف بمصر .

* شرح شعر زهير بن أبي سلمى/ لأبي العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب، ت ٢٩١ ، تحقيق : د/ فخر الدين قباوة، ط ١ ، سنة ١٤٠٢هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت .

* شرح الكتاب [مخطوط] / لأبي سعيد الحسن بن عبداللّه السيرافيّ، ت ٣٦٨هـ، مصوّرة في جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة محفوظة برقم (٨٨٦٣ ف) .

* شرح المفصّل / لموفّق الدين يعيش بن عليّ بن يعيش النحويّ، ت ٦٤٣هـ، عالم الكتب، بيروت .

* شعر ابن ميّادة / تحقيق : د / حنّا جميل حدّاد ، سنة ١٤٠٢هـ ، من مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق

* شعر الأخطل / تحقيق : د/ فخر الدين قباوة، سنة ١٣٩٠هـ، دار

الأصمعيّ، حلب .
* شعر الحارث بن خالد المخزوميّ / جمع : د/ يحيى الجبوريّ، ط ٢، سنة ١٤٠٣هـ، دار القلم، الكويت .
* شعر زياد الأعجم / جمع وتحقيق : يوسف حسين بكّار، ط ١، سنة ١٩٨٣م، دار المسيرة .
* شعر عبدالله بن الزبير الأسديّ / جمع وتحقيق : د/ يحيى الجبوريّ، من منشورات وزارة الإعلام العراقيّة، سنة ١٩٧٤م .
* شعر عبدة بن الطبيب / جمع : د/ يحيى الجبوريّ، دار التربية للطباعة والنشر، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ساعدت على نشره جامعة بغداد، العراق .
* شعر عمرو بن أحمر الباهليّ / جمع وتحقيق حسين عطوان، ١٩٧٠م، مجمع اللغة العربيّة، دمشق .
* شعر عمرو بن شأس الأسديّ / تحقيق : د/ يحيى الجبوريّ، مطبعة الآداب، النجف، سنة ١٩٧٦ م .
* شعر محمّد بن بشير الخارجيّ/ جمع وتحقيق : محمّد خير البقاعيّ، ط١، سنة ١٤٠٥هـ، دار قتيبة، دمشق .
* شعر النابغة الجعديّ / ط١، من منشورات المكتب الإسلاميّ .
* الشعر والشعراء / لأبي محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ت ٢٧٦هـ، تحقيق : أحمد محمّد شاكر، ط ٣، سنة ١٩٧٧م، دار التراث العربي .
* الصحاح : تاج اللغة و صحاح العربيّة / لإسماعيل بن حماد الجوهري، ت ٣٩٣ هـ، تحقيق : أحمد بن عبدالغفور عطار، ط ٢، سنة ١٣٩٩هـ، دار العلم للملايين، بيروت .

* صحيح البخاريّ (ضمن: الكتب الستّة وشروحها)/ لأبي عبدالله محمّد ابن إسماعيل البخاريّ، ت ٢٥٦هـ، ط٢، دار سحنون، تونس.
* صحيح مسلم (ضمن: الكتب الستّة وشروحها) / للإمام مسلم بن الحجّاج القشيريّ، ت ٢٦١هـ، ط٢، دار سحنون، تونس.
* الصداقة والصديق / لأبي حيّان عليّ بن محمّد بن العبّاس التوحيديّ، ت ٤١٤ هـ، تحقيق: د/ إبراهيم الكيلانيّ، ط ٢، سنة ١٤١٩هـ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
* الصعقة الغضبيّة في الردّ على منكري العربيّة / لأبي الربيع سليمان بن عبدالقويّ الطوفيّ، ت ٧١٦ هـ، تحقيق : د/ محمّد بن خالد الفاضل، بحثٌ قدّمه المحقّق إلى جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة للترقية إلى درجة (أستاذ مشارك)، سنة ١٤١٦ هـ.
* صناعة الكتّاب / لأبي جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل النّحّاس، ت ٣٣٨هـ، تحقيق : د/ بدر أحمد ضيف، ط ١، ١٤١٠هـ، دار العلوم العربيّة، بيروت، لبنان.
* الطبقات الكبرى / لمحمّد بن سعد الزهريّ، المعروف بـ(ابن سعد)، ت ٢٣٠ هـ، دار صادر، بيروت.
* العقد الفريد / لابن عبد ربه الأندلسي، ت ٣٢٨هـ، تحقيق : محمّد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت.
* العين / لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ، ت ١٧٥هـ، تحقيق : د/ مهدي المخزوميّ، د/ إبراهيم السامرّائيّ، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، دار الحريّة، بغداد.
* عيون الأخبار / لأبي محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ت ٢٧٦هـ،

الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة . سنة ١٩٧٣م .

* غاية النهاية في طبقات القرّاء/ لأبي الخير محمّد بن محمّد الجزريّ، ت ٨٣٣ هـ، نشر : ج . برجستراسر، ط ٣، سنة ١٤٠٢هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت .

* غرائب آي التنزيل / لزين الدين محمّد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق : د . عبدالرحمن بن إبراهيم المطروديّ، ط ١، سنة ١٤١٢هـ، دار عالم الكتب، الرياض .

* الغيث المسجم في شرح لاميّة العجم / لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفديّ ، ت ٧٦٤هـ، ط ٢، سنة ١٤١١هـ، دار الكتب العربيّة، بيروت، لبنان .

* فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيميّة / لأبي العبّاس أحمد بن عبدالحليم ابن تيميّة، ت ٧٢٨ هـ، جمع : عبدالرحمن بن محمّد بن قاسم، ط ١، دار العربية، بيروت .

* فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن / لأبي يحيىٰ زكريّا بن محمّد الأنصاريّ ، ت ٩٢٦ هـ، تحقيق : محمّد علي الصابونيّ، ط ١، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، عالم الكتب، بيروت .

* الفروق اللغويّة / لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكريّ، توفي بعد سنة ٣٩٥ هـ، تحقيق : حسام الدين القدسيّ، سنة ١٤٠١هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت .

* فصل المقال في شرح كتاب الأمثال / لأبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكريّ، ت ٤٨٧هـ، تحقيق : د/ إحسان عبّاس، و د/ عبدالمجيد عابدين، ط٣، ١٤٠٣هـ، مؤسّسة الرسالة، بيروت .

* الفصول المفيدة في الواو المزيدة / لصلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائيّ، ت ٧٦١ هـ، تحقيق : د/ حسن موسى الشاعر ، ط ١ ، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، دار البشير ، عمّان، الأردن .
* الفوائد في مشكل القرآن/ لعزّ الدين بن عبدالسلام، ت ٦٦٠ هـ، تحقيق: د/ سيّد رضوان الندويّ، المطبعة العصريّة، الكويت، سنة ١٩٦٧م .
* الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان / المنسوب لأبي عبدالله محمّد بن أبي بكر الزرعيّ، المعروف بـ(ابن القيّم)، ت ٧٥١هـ، دار النفائس ، بيروت، سنة ١٩٧٩م .
* في ظلال القرآن / لسيّد قطب ، ط ٥ ، سنة ١٣٩٧ هـ ، دار الشروق ، بيروت .
* الكتاب / لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه ، ت ١٨٠هـ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، ١٩٧٧م، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب .
* كتاب الأمثال / لأبي عبيد القاسم بن سلام، ت ٢٢٣هـ، تحقيق : د/ عبدالمجيد قطامش، دار المأمون للتراث، دمشق .
* كتاب القطع والائتناف / لأبي جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل النّحّاس، ت ٣٣٨ هـ، تحقيق: د/ أحمد خطّاب العمر ، ط ١ ، سنة ١٣٩٨هـ، مطبعة العاني، بغداد .
* الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ، ت ٥٣٨ هـ، دار المعرفة، بيروت .
* كشف المعاني في المتشابه من المثاني / لأبي عبدالله محمّد بن إبراهيم بن

سعد الله بن جماعة، ت ٧٣٣هـ، تحقيق : د/ عبدالجواد خلف ، ط ١ ، سنة ١٤١٠هـ، دار الوفاء، المنصورة ، مصر .

* الكليّات/ لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسينيّ الكفويّ، ت ١٠٩٤هـ، تحقيق : الدكتور عدنان درويش ومحمّد المصريّ، ط ٢ ، سنة ١٤١٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان .

* الكوكب الدرّيّ فيما يتخرّج على الأصول النحويّة من الفروع الفقهيّة/ لجمال الدين عبدالرحيم بن الحسن الإسنويّ، ت ٧٧٢ هـ، تحقيق د/ محمّد حسن عوّاد، ط ١ ، سنة ١٤٠٥هـ، دار عمّار للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن .

* لسان العرب/ لأبي الفضل محمَّد بن مكرم بن منظور، ت ٧١١هـ، القاهرة، المطبعة الكبرى الميريَّة، ١٣٠٠ـ١٣٠٧هـ .

* مجاز القرآن / لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميميّ، ت ٢١٠هـ، تعليق د/ فؤاد سيزكين، نشر مكتبة الخانجيّ بمصر .

* مجالس العلماء / لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزّجّاجيّ، ت ٣٤٠ هـ، تحقيق : عبدالسلام محمّد هارون، دار المعارف، القاهرة .

* مجمع الأمثال / لأبي الفضل أحمد بن محمّد الميدانيّ، ت ٥١٨هـ، تحقيق محمّد محيي الدين عبدالحميد، سنة ١٣٧٤هـ، مطبعة السنّة المحمّديّة، القاهرة .

* محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء / لأبي القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهانيّ ، ت ٥٠٢هـ، تهذيب واختصار : إبراهيم زيدان، ط ٢ ، سنة ١٤٠٦هـ، دار الجيل، بيروت، لبنان .

* المحتسب في تبيين شواذّ القراءات / لأبي الفتح عثمان بن جنّي النحويّ،

ت ٣٩٢ هـ، تحقيق : علي النّجديّ ناصف، وعبدالفتّاح شلبيّ، ١٣٨٩هـ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة .

* المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / لأبي محمّد عبدالحقّ بن غالب ابن عطيّة الأندلسيّ، ت ٥٤٦هـ، تحقيق : المجلس العلميّ بتارودانت، سنة ١٤١١هـ، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة .

* المحصول في علم أصول الفقه / لأبي عبدالله محمّد بن عمر الرازيّ ، ت ٦٠٦ هـ، تحقيق : د/ طه جابر العلوانيّ، من منشورات جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الرياض .

* المخصّص / لأبي الحسن عليّ بن إسماعيل الأندلسيّ، المعروف بـ(ابن سيده)، ت ٤٥٨هـ، المكتب التجاريّ، بيروت .

* المخلاة / لبهاء الدين محمّد بن الحسين العامليّ، ت ١٠٠٣هـ، ط ١، سنة ١٤٠٥هـ ، بيروت، لبنان .

* المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى / لأبي النصر أحمد بن محمّد السمرقنديّ، المعروف بـ(الحدّاديّ) ، المتوفّى بعد سنة ٤٠٠ هـ، تحقيق : صفوان عدنان داووديّ ، ط ١ ، سنة ١٤٠٨هـ، دار القلم، دمشق .

* المذكّر والمؤنّث / لأبي بكر محمّد بن القاسم الأنباريّ، ت ٣٢٨هـ، تحقيق : د / محمّد عبدالخالق عضيمة (رحمه الله)، مطابع الأهرام التجاريّة، القاهرة، سنة ١٤٠١هـ .

* المذكّر والمؤنّث/ لأبي زكريّا يحيى بن زياد الفرّاء، ت ٢٠٧هـ، تحقيق : د/ رمضان عبدالتوّاب، ط١ ، سنة ١٩٧٥م، دار التراث ، القاهرة .

* المستدرك على الصحيحين في الحديث / لأبي عبدالله محمّد بن عبدالله الحاكم النيسابوريّ، ت ٤٠٥ هـ، ط٣، ١٩٨٠ م، دار الكتاب العربيّ،

بيروت .
* المسند (ضمن : الكتب الستّة وشروحها) / لأبي عبدالله أحمد بن حنبل، ت ٢٤١هـ، ط٢، دار سحنون، تونس .
* معاني الأدوات والحروف / منسوبٌ لأبي عبدالله محمّد بن أبي بكر الزرعيّ، المعروف بـ(ابن القيّم)، ت ٧٥١هـ، تحقيق : د/ أسماء بنت محمّد العسّاف ، رسالة دكتوراه، كلّيّة التربية للبنات، الرياض، سنة ١٤١٦هـ .
* معاني القرآن / لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، ت ٢١٥ هـ، تحقيق د/ هدىٰ محمود قرّاعة، ط ١، سنة ١٤١١هـ، مطبعة المدني، القاهرة .
* معاني القرآن / لأبي زكريّا يحيىٰ بن زياد الفرّاء، ت ٢٠٧هـ، ط٢، ١٩٨٠م، عالم الكتب، بيروت .
* معاني القرآن وإعرابه / لأبي إسحاق إبراهيم بن السريّ بن سهل الزّجّاج، ت ٣١١هـ، تحقيق د/ عبدالجليل عبده شلبيّ، ط١، ١٤٠٨هـ، عالم الكتب، بيروت .
* معترك الأقران في إعجاز القرآن/ لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطيّ، ت ٩١١هـ، تحقيق : علي محمّد البجاويّ، دار الفكر العربيّ، بيروت .
* مغني اللبيب عن كتب الأعاريب / لجمال الدين عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاريّ، ت ٧٦١هـ، تحقيق : د/ مازن المبارك، ومحمّد عليّ حمدالله، ط ٥، ١٩٧٩م، دار الفكر، بيروت .
* المفردات في غريب القرآن / لأبي القاسم الحسين بن محمّد الراغب

الأصفهانيّ ، ت ٥٠٢هـ، تحقيق: محمّد سيّد كيلانيّ، مكتبة مصطفى الحلبيّ، القاهرة، سنة ١٣٨١هـ .

* المفصّل في علم العربيّة / لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ، ت ٥٣٨ هـ، دار الجيل، بيروت .

* مقالات الأدباء ومناظرات النجباء/ لعليّ بن عبدالرحمن بن هذيل، تحقيق : د/ عبدالرحمن بن عثمان الهليّل ، ط ١ ، سنة ١٤٢١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان .

* المقتضب / لأبي العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد، ت ٢٨٥هـ، تحقيق: د/ محمّد عبدالخالق عضيمة (رحمه اللّه)، عالم الكتب، بيروت .

* ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل / لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطيّ، ت ٧٠٨هـ، تحقيق : سعيد الفلاح، ط ١ ، سنة ١٤٠٣ه*، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت .

* المواهب الربّانيّة من الآيات القرآنيّة / لعبدالرحمن بن ناصر السعديّ ـ رحمه اللّه ـ، مكتبة المعارف، الرياض، سنة ١٤٠٢هـ .

* الموشّح / لأبي عبيد اللّه محمّد بن عمران المرزبانيّ، ت ٣٨٤هـ، تحقيق: عليّ محمّد البجاويّ، دار نهضة مصر، القاهرة، سنة ١٣٨٥هـ .

* نتائج الفكر في النحو / لأبي القاسم عبدالرحمن بن عبداللّه السهيليّ، ت ٥٨١هـ، تحقيق : د/ محمّد إبراهيم البنّا، دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض .

* نثر الدرّ / لأبي سعد منصور بن الحسين الآبيّ ، ت ٤٢١ هـ، تحقيق : محمّد عليّ قرنة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة .

* نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر / لأبي الفرج عبدالرحمن ابن عليّ بن الجوزيّ، ت ٥٩٧هـ، تحقيق: محمّد عبدالكريم كاظم الراضي، ط٢، سنة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

* نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء / لأبي البركات كمال الدين عبدالرحمن ابن محمّد الأنباريّ، ت ٥٧٧هـ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المدنيّ، القاهرة.

* نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز / لأبي عبدالله محمّد بن عمر فخر الدين الرازيّ، ت ٦٠٦ هـ، تحقيق: د/ بكري شيخ أمين، ط ١، سنة ١٩٨٥م، دار العلم للملايين، بيروت.

* الواضح في علم العربيّة / لأبي بكر محمّد بن الحسن الزبيديّ، ت ٣٧٩هـ، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٧٥م.

* الوجوه والنظائر في القرآن الكريم / لأبي عبدالله هارون بن موسى العتكيّ، المتوفى حوالي سنة ١٧٠هـ، تحقيق: د/ حاتم صالح الضامن، دار الحرّيّة للطباعة، بغداد، سنة ١٤٠٩ هـ.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / لأبي العبّاس أحمد بن محمّد بن خلّكان، ت ٦٨١هـ، تحقيق: د/ إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت.

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة الطبعة الأولى	١١
أهمية اللغة العربية في الدعوة	١٧
التمهيد: سبل تدبر كتاب الله	٤٥
الركن الأول: فهم علوم اللغة	٤٦
الركن الثاني: : التقوى والإخلاص والتجرد	٤٧
الركن الثالث: الذوق اللغوي السليم	٤٨
النظرات	٥١
* قوله تعالى: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ...** ﴾ [**الفاتحة**: ٦، ٧]	٥١
* قوله تعالى: ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ...** ﴾ [**البقرة**: ٧]	٥٣
* قوله تعالى: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ...** ﴾ [**البقرة**: ٩]	٦٠
* قوله تعالى: ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١٢]	٦٠
* قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ...** ﴾ [**البقرة**: ١٤]	٦٢
* قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي ..... فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾ [**البقرة**: ١٧، ١٨]	٦٥
* قوله تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ..... لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [**البقرة**: ٢٤]	٧٠
* قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ ..... الظَّالِمِينَ** ﴾ [**البقرة**: ٣٥]	٧١
* قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ .....** ﴾ [**البقرة**: ٤٩]	٧٦
* قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ....** ﴾ [**إبراهيم**: ٦]	٧٦

الموضـــوع	الصفحة
* قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ...﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩]	٧٧
* قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ..... بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١، ١٦٢]	٧٧
*قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ ..... مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]	٨٠
* قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ...﴾ [الأعراف: ١٦٠]	٨٠
* قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ... عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]	٨١
* قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ... يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩]	٨٢
* قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ ... وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣]	٨٣
* قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى... تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]	٨٤
* قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ ..﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]	٨٥
* قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ...﴾ [الجمعة: ٦، ٧]	٨٥
* قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا ...﴾ [البقرة: ١٠٤]	٩٠
* قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [البقرة: ١٠٧]	٩٢
* قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ ...﴾ [البقرة: ١٢٠]	٩٣
* قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ...﴾ [البقرة: ١٤٥]	٩٣
* قوله تعالى: ﴿... قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ...﴾ [البقرة: ١٢٦]	٩٤
*قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ...﴾ [البقرة: ١٥٩ – ١٦١]	٩٥

الموضـــوع	الصفحة
* قـوله تعـالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ...﴾ [البقرة: ١٨٧]	٩٨
* قوله تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ...﴾ [البقرة: ١٨٧]	١٠٣
* قوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ...﴾ [البقرة: ٢٢٩]	١٠٣
* قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ...﴾ [البقرة: ١٩٦]	١٠٤
* قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ...﴾ [البقرة: ٢١٧]	١١٢
* قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ...﴾ [البقرة: ٢٢٢]	١١٦
* قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ...﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧]	١١٨
* قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ [البقرة: ٢٢٨]	١١٩
* قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ...﴾ [البقرة: ٢٣٣]	١٢٠
* قوله تعالى: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ...﴾ [البقرة: ٢٣٥]	١٢٤
* قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ ...﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩]	١٢٥

الموضـــوع	الصفحة
* قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾ [البقرة: ٢٦١]	١٢٥
* قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى...﴾ [البقرة: ٢٦٣]	١٢٨
* قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ...﴾ [البقرة: ٢٦٧]	١٢٩
* قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ...﴾ [البقرة: ٢٨٢]	١٢٩، ١٣١
* قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...﴾ [آل عمران: ٣، ٤]	١٣٤
* قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ...﴾ [آل عمران: ٢٦]	١٣٧
* قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ...﴾ [آل عمران: ٤٥]	١٣٨
*قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾ [آل عمران: ٩٩]	١٤٠
* قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...﴾ [آل عمران: ١١٠]	١٤١
* قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٥٩]	١٤٢
* قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [آل عمران: ١٦٤]	١٤٦
* قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ...﴾ [النساء: ٢]	١٤٨
* قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [النساء: ٧٦]	١٥١
* قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ...﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]	١٥٦

الموضـــوع	الصفحة
* قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ...﴾ [النساء: ١٧٦]	١٥٧
* قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة: ٣]	١٦٠
* قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ...﴾ [المائدة: ٦]	١٦٢
* قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ...﴾ [المائدة: ١٣]	١٦٥
* قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾ [المائدة: ٥٢، ٥٣]	١٦٦
* قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً...﴾ [المائدة: ١١٠]	١٦٩
* قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]	١٧١
* قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ [الأنعام: ٢٥]	١٧٢
* قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم...﴾ [الأنعام: ٣٨]	١٧٤
* قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ...﴾ [الأنعام: ٦٠]	١٧٥
* قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ [الأنعام: ١٥١]	١٧٥
* قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]	١٧٨
*قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]	١٧٩
* قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً...﴾ [الأعراف: ١٤٢]	١٨٠
* قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...﴾ [الأعراف:	

الموضوع	الصفحة
١٥٧]	١٨١
* قوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ... ﴾ [التوبة: ٣]	١٨٣
* قوله تعالى: ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ... ﴾ [التوبة: ٨٧]	١٨٥
* قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم... ﴾ [التوبة: ١١١]	١٨٧
* قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ... ﴾ [يونس: ٤٣]	١٨٨
* قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ... ﴾ [يونس: ٤٨، ٤٩]	١٨٩
* قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ... ﴾ [هود: ٤٠]	١٩٠
* قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ... ﴾ [يوسف: ٤]	١٩١
* قوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ... ﴾ [يوسف: ٢٣]	١٩٣
* قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن .. ﴾ [يوسف: ٢٥]	١٩٦
* قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ... ﴾ [يوسف: ٣٠]	١٩٨
* قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا... ﴾ [يوسف: ٤٧ - ٤٩]	٢٠١
* قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ... ﴾ [يوسف: ٧٦]	٢٠٧
* قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ... ﴾ [يوسف: ٨٠].	٢٠٨
* قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ... ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨]	٢٠٩
* قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ... ﴾ [الحجر: ٩٤]	٢١٠
* قوله تعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً... ﴾ [النحل: ٨]	٢١١

الموضــوع	الصفحة
* قــوله تعــالى : ﴿ قــدْ مكرَ الَّذينَ من قَـبْلِهِمْ فـأَتى اللَّهُ بُنْيـانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِد ... ﴾ [النحل : ٢٦]	٢١٣
* قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ... ﴾ [النحل : ٥١]	٢١٥
* قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً ... ﴾ [النحل : ٨١]	٢١٦
* قوله تعالى : ﴿ وأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ... ﴾ [الإسراء : ٣٥]	٢١٧
* قوله تعالى : ﴿ وتَرى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ... ﴾ [الكهف : ١٧، ١٨]	٢١٨
* قوله تعالى : ﴿ وتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ... ﴾ [الكهف : ١٧، ١٨]	٢١٩
* قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ... ﴾ [الكهف : ٦١]	٢٢٠
* قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ... ﴾ [الكهف : ٧٧]	٢٢١
* قوله تعالى : ﴿ ذَلكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٨٢]	٢٢٢
* قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ... ﴾ [الكهف : ٧٨]	٢٢٢
* قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ... ﴾ [مريم : ٢٦]	٢٢٣
* قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم : ٢٩]	٢٢٤
* قوله تعالى : ﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ... ﴾ [مريم : ١٥]	٢٢٥
* قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ ... ﴾ [مريم : ٣٣]	٢٢٥
* قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٦٩]	٢٢٨

الموضوع	الصفحة
* قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩]	٢٢٩
* قوله تعالى: ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ... ﴾ [طه: ٧١]	٢٣١
* قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ.. ﴾ [طه: ٨٠]	٢٣٢
* قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ... ﴾ [الأنبياء: ٤٦]	٢٣٣
* قوله تعالى: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٠]	٢٣٤
* قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٨]	٢٣٤
* قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ... ﴾ [الحج: ٢]	٢٣٥
* قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ... ﴾ [الحج: ٢٥]	٢٣٧
* قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا... ﴾ [النور: ٣٣]	٢٣٧
* قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٤]	٢٤٠
* قوله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ... ﴾ [النمل: ١٩]	٢٤٠
* قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ... ﴾ [النمل: ٨٠]	٢٤٢
* قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ. ﴾ [القصص: ٢٠]	٢٤٣
* قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ... ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]	٢٤٥
* قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ... ﴾ [السجدة: ٢٠]	٢٤٧
* قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ... ﴾ [سبأ: ١٣]	٢٤٨

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
* قوله تعالى: ﴿قُلْ من يرزُقُكُم مِّنَ السَّموَات والأَرْضِ..﴾ [سبأ: ٢٤]	٢٥١
* قوله تعالى: ﴿أَلَمْ ترَ أَنَّ اللَّهَ أَنزلَ من السَّماءِ ماءً...﴾ [فاطر: ٢٧]	٢٥٢
* قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ والإِشْرَاقِ...﴾ [ص: ١٨، ١٩]	٢٥٤
* قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً....﴾ [الزمر: ٧٣]	٢٥٥
* قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا...﴾ [الشورى: ٤٨]	٢٥٨
* قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾ [الجاثية: ٣ - ٥]	٢٦٠
* قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ...﴾ [الأحقاف: ٣١]	٢٦٢
* قوله تعالى: ﴿فاصبرْ كمَا صبرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ ...﴾ [الأحقاف: ٣٥]	٢٦٤
* قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]	٢٦٥
* قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ ...﴾ [الواقعة: ٦٥]	٢٦٦
* قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا...﴾ [الحديد: ٢٧]	٢٦٨
* قوله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة: ٢٢]	٢٧٠
* قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ...﴾ [الحشر: ٢]	٢٧١
* قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً...﴾ [الممتحنة: ٢]	٢٧٣
* قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ...﴾ [الممتحنة: ٧]	٢٧٤

الموضـــوع	الصفحة
* قـولـه تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ...﴾ [الممتحنة: ١٠]	٢٧٥
* قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾ [الصف: ٨]	٢٧٧
* قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ [الصف: ١٢]	٢٧٧
* قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]	٢٧٨
* قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ...﴾ [المنافقون: ٤]	٢٨٠
* قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ...﴾ [التغابن: ١٤]	٢٨٢
* قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾ [التغابن: ١٥]	٢٨٣
* قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]	٢٨٤
* قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ...﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]	٢٨٥
* قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ...﴾ [المزمل: ١٤]	٢٨٦
* قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ...﴾ [الإنسان: ٦]	٢٨٦
* قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ...﴾ [الإنسان: ٢٨]	٢٨٧
* قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]	٢٨٨
* قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ..﴾ [التكاثر: ١ - ٨]	٢٨٩
* قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...﴾ [الكوثر: ١، ٢]	٢٩٣
* قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ...﴾ [المسد: ٤، ٥]	٢٩٥
* ثبت المصادر والمراجع	٢٩٩
* الفهرس	٣٢١